30
2024
الجزء الثاني
الإنسان و التطور
سلسلة الاصدارات المكتبية العلمية

في البداية كانت الكلمة

الأســـاس فـــي الطـب النفســي: الإفتراضـات الاساسيـــة

الفصـــل السابـــــع

إصـــدارات: مؤسســة العلـــوم النفسيـــة العربيـــة
مؤسســة الرخــاوي للتدريـــب والأبحـــاث العلميـــة

الأســـاس فـــي الطـب النفســي: الإفتراضـات الاساسيـــة

الفصـــل السابـــــــــع

يحيـــى الرخـــاوي

الفهـــــــرس

العدد: 3956 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الخامس "غالي جوهر" رواية "مدرسة العراة"	5
العدد: 3957 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل السادس "كمال نعمان" رواية "مدرسة العراة"	33
العدد: 3962 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل السابع "عبد السميع الأشرم" رواية "مدرسة العراة"	58
العدد: 3963 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثامن "بسمة قنديل" رواية "مدرسة العراة"	79
العدد: 3964 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثامن "مختار لطفي" رواية "مدرسة العراة"	107
العدد: 3969 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل العاشر: "عبد السلام المشد" رواية "مدرسة العراة"	135
العدد: 3970 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الحادي عشر (والأخير)"إبراهيم الطيب" رواية "مدرسة العراة"	163
العدد: 3971 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) "الخاتمة....." رواية "مدرسة العراة"	177

العدد: 3976 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") 181

العدد: 3977 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") 211

العدد: 3978 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") 237

العدد: 3983 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") الفصل الرابع "مصر الجديدة" 258

العدد: 3984 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") الفصل الخامس: "أبو النمرس" 278

العدد: 3985 – جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") الفصل الخامس: "أبو النمرس" 294

الأحـــد 01-07-2018

العدد: 3956 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الخامس "غالي جوهر" رواية "مدرسة العراة"

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" (1) تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط" هيًا.

وهذا هو الفصل الخامس صورة غريب جوهر

"غالى جوهر"

المصيبة أنى أصدق ما أحاول أن أقنعها به، النقاش يزداد يوما بعد يوم وهى تدفعنى لأن أقول حججا وبراهين تكاد تقوض حياتى قبل حياتها، كأنى أنساق بهذا العناد إلى التشكيك فى كل ما كان، أستطيع أن أتخلص من ألفاظى التى تقنعها مع أنها تنساب إلىّ حتى تكاد تقنعنى أنا، يبدو أنى أحاول أن أقنع نفسى بالتمادى فى إقناعها، هى التى تكف عن النقاش، صحيح أنا الذى صنعتها على مقاس فكرى حينذاك، ولكن ماذا لو تغير المقاس بعوامل التعرية والزمن؟

صحيح أنا الذى صنعتها على مقاس فكرى حينذاك، ولكن ماذا لو تغير المقاس بعوامل التعرية والزمن؟

الأفكار التى تتدمج فى عواطفنا وتحدد سلوكنا فى صحونا ونومنا ألفاظ داعرة، هذا ما تعلمته غصبا عنى مؤخرا، هى أجسام غريبة تدخل إلى عقولنا تطمسها ونبيع أنفسنا لها ونحن نتصور أننا نتخلص بها من الخوف ونتجنب المواجهة، أحاول أن أراجع نفسى فى حذر، أنا أحاول، أنا مضطر، لكننى

اخترت بمجيئى واستمرارى أن أضطر، ملكة تتمسك بما كان كما لو كان مثبتا فى اللوح المحفوظ، صحيح أن الأفكار التى اعتنقناها قد رحمتنا من شعور الأقلية بالضطهاد كما أدرجتنا فى طبقة الثوار التقدميين، وجدنا أنفسنا مع أغلبية صنعناها بأنفسنا، مع العمال الكادحين، كنا أقلية بالولادة فأصبحنا حماة حمى عمال العالم، هذا الموقف الجديد يكاد يحرمنا من تبريرات الشعور بالضطهاد والعتذار به، صدّقت ملكة أننا الأغلبية الجديدة، ونسيتْ وحدتنا القاسية الحقيقية.

شتان بين حياة داخل أسوار من الألفاظ الصلبة، هربا من الخوف إلى الحلم بالمجهول، وبين الحياة فى غابة مكشوفة، صدرك عار وقرار المستقبل بين يديك، تحمل هموم العالم ليل نهار، ل تنجح فى أن تخبئها حتى تحت الوسادة، تنام مفتوح العينين وإل اغتالك داخلك والتهمتك الوحوش المتحفزة فى أعماقك، أى مصيبة جلبتها على نفسى، كنت مع الأقلية – بالولادة – وكان لى رب يحمينى، وأب يسمع أعترف له، وملكوت ينتظرنى، كنت أوقد نارا مضطهِدة لكل من يضطهدنى أو يُهَمّش عقيدتى، الآن، أعيش أملا مستحيلا أن يتساوى كل الناس بكل الناس ولو فى الفرص والأحلام، ليس أملا بل هو واجب يومى، عرفت الفرق ووجه الشبه بين ما هو واجب يومى وواجب قومى.

كيف؟ من معى؟ .... "من" فعلا معى حقيقة ل شعرا؟ حين وجدت نفسى متورطا بهذا التزام الجديد وجدتنى وحيدا تماما، حتى ملكة: ليست هنا رغم تشابه أفكارنا حتى التماثل.

بدأت مخاوفى وهواجسى إثر ما رأيت ذلك اليوم، اضطررت أن أراجعنا دون قصد، زميل عمل، وزميل كفاح، وزميل سجن، وزعيم رأى، وموسوعى، إجاباته جاهزة، وصوته مرتفع، كان مرجعى المذهبى دون منصب رسمى، تأخرت فى مكتبى لعمل إضافى وكان هو أيضا ينهى بعض مهامه بعد مواعيد العمل دون علمه بوجودى، سمعت صوت شجار عنده ثم ارتطام كراسى بالحائط ثم استغاثة، دخلت مسرعا فوجدته قابعا فى ركن الحجرة يرتعش مثل فأر فقد الطريق إلى

الأفكار التى لا تندمج فى عواطفنا وتحدد سلوكنا فى صحونا ونومنا ألفاظ داعرة، هذا ما تعلمته خصيا عنى مؤخرا، هى أجساد غريبة تدخل إلى عقولنا تطمسها ونبيع أنفسنا لها ونحن نتصور أننا نتخلص بها من الخوف ونتجنب المواجهة

جحره، رأيت "ذلك الغريب" ممسكا بالكرسى من أرجله وقد رفعه فوق رأسه فى الهواء وهو يضربه و يتركه، تسمرت فى مكانى أشارك الفأر رعبه المعدى، سمعت الغريب يواصل هجومه بعد أن ألقى إلىّ نظرات غضب واحتقار معا وكأنى شريك فى جريمةٍ ما، قال له كلاما كثيرا ما بين السباب والمعايرة: "ذل، جبان، تغرر بالبنات وتفسد عقولهن لصالح شهواتك" زاد وجومى وتسمرت خوفا وحيرة ورغبة فى معرفة المزيد، الغريب ضعيف البنية وصاحبنا فحل جسيم، فيل ملقى على ظهره وقد رفع سيقانه أمام ابن آوى، بلغت المأساة أوجها حين صاح صديقى بى لما رآنى "إلحقنى ياغالى"، لم ألحقه، كيف ألحقه؟ قفزت من داخلى رغبة خبيثة – رغم علاقتنا الرائعة الممتدة – أن يستمر المنظر أكثر لشعورى الداخلى فجأة أنه يستأهل ما يجرى فعلاً، وأكثر.

أحسست بانهيار العالم حين تبينت جلية الأمر لما تمادى الغريب فى ثورته: "سرقتها وخدعتها مثل أى جبان، انتهزت فرصة غيابى وهى أمانة فى عنقى، أحضرتها من بلدنا كإبنة من بناتى، سوف تدفع الثمن يا وغد، أعرف كيف أكمل الغريب"، لو كنت تستأهلها لأرغمتك على الزواج منها يا جبان – طفلة ذات خمسة عشر عاما يا وغد !! – ولكن ظفر المكوجى الذى خطبها رغم علمه بكل شئ برقبتك، أما أنت فلا تستأهل غير هذه".

بصق فى وجهه وانصرف وهو ينظر إلىّ باحتقار حتى تصورت أنه سوف يبصق على أنا أيضا، أخذت أهز رأسى يمينا وشما حتى أفيق من صدمتى وأستعيد الموقف، ظل هو قابعا فى ركن الحجرة كالمغمى عليه، لونه فى لون الموتى والعرق يعلن استمرار نوع ما من الحياة، لِمَ يقوم يدافع عن نفسه حتى أمامى، لم يمسح البصاق من على وجهه؟ مرت فترة أخرى قبل أن أستطيع أن أتمالك نفسى وأسمع منه بعض ردود مقتضبة زادتنى اقتناعا أنه كما قال الرجل وأكثر.

صحيح أن الأفكار التى اعتنقناها قد رحمتنا من شعور الأقلية بالاضطهاد كما أدرجتنا فى طبقة الثوار التقدميين، وجدنا أنفسنا مع أغلبية صنعناها بأنفسنا، مع العمال الكادحين، كنا أقلية بالولادة فأصبحنا حماة حمى عمال العالم

لم أستطع أن أنسى منظر الرعب الذى كان على وجهه مهما تغير المكان والزمان، وجهه، ويديه، وجسده، كل ذلك غارق فى بصقة الرجل التى تكاثرت بحبات العرق المتفصد حتى تصورته يغرق فى بركة نتنة وهو يكاد يختفى تحت ريم سطحها الأصفر بصفرة الموت.

"حادث فردى عابر"، "حادث غير قابل للتعميم"، كلام كثير كا□عتذار أو التفسير أو التبرير، أخذٌ ورد ومحاو□تهْ تفكير، لم ينجح أى شئ من هذا أن يحول دون أن أشاهد أفكاره كلها، أفكارنا، وهى تتفجر مثل الفقاقيع الهشة التى تغطى سطح الريم على وجه بركة البصاق والعرق، قبل أن يغوص فيها ببطء، تتفجر ثم تختفى فى الهواء وكأنها لم تكن.

يبدو أننى كنت جاهزا لتسجيل هذا المنظر تسجيلا دائما تبريرا لشىء □ أعرفه، كيف أستطيع أن أستمر فى تصديق كلام يقال بلا اختبار واقعى لإمكانية تحقيقه، كيف أفصل بين ما رأيت وما كنت أسمع منه ومنهم طول الوقت؟

عجزت أن أعتبره حادثا فرديا، مع أنه كذلك غالبا.

لم أستطع أن أكف عن إعادة تقييم كل الزملاء، من خلال علاقاتهم الخاصة بعضهم ببعض، وبأنفسهم، أصبحت كلما اقتربت من أحدهم طالعتنى صفرة الموت، وتناثر البصقة، وحبات العرق البارد، وحيوان عاجز يتلمظ جوعا واستجداء وهو يهز ذنبه يتابع فى شبق نهمِ رضيعة تحبو وهى لم تفطم بعد،

= ماذا حدث لى يا ملكة؟،

– ما علاقة ذلك بواجبنا المقدس.

= واجبنا مقدس.... نعم، ولكن كيف؟ من الذى سيحققه؟ بعد أن نخوض بحور الدم فوق جثث الضحايا نسلم القيادة لواحد مثله ونأتمنه على العمال الكادحين وهو لم يستطع أن يكون أمينا على طفلة ريفية □ خيار لها.

– حادث فردى، أسأت فهمه، □ تُعَمِّمْ، كل المؤسسات فيها وفيها، حتى رهبان الكنائس وشيوخ الطريقة.

شتان بين حياة داخل أسوار من الألفاظ الصلبة، هربا من الخوف إلى الحلم بالمجهول، وبين الحياة فى غابة مكشوفة، صدرك عار وقرار المستقبل بين يديك

= الكذب والصدق يتجزآن.

– ما دخل هذا بذاك.

= إما شرف، وناس، أو لندع كلا يسعى إلى مصلحته على مسئوليته، وليتصارع الجميع فى النور،

– أى نور تتحدث عنه ياسيادة "المقدم"،

= نور الوعى بحقيقة الضعف وضرورة العدل.

– كلام يشبه الجد، وهو يشبه أكثر كلام رجال المباحث وسماسرة البورصة.

= يجوز.

– تريد الناس ملائكة أطهارا أو؟ أم نصنع المجتمع الذى ينشئهم كذلك.

= أنا أريد شيئا، و أعنى شيئا، أكاد أفقد الشئ والمعنى معا.

– أنت تبالغ وكأنك من أصحاب الفضيلة، كل واحد حر، وهو مسئول عما يفعل.

= الحرية قبل تكافؤ الفرص خدعة أزلية.أى حرية كانت أمام خادمة ذات خمسة عشرة ربيعا؟ تصورى أنه قال لى مؤكدا وهو يفسر فعلته أن ما تم حدث باختيارها! المسألة أن اللعاب يسيل فى الظلام.... فى حين أن الخطابة تعلو إذا أضيئت الأنوار،

–..ماذا تريد الآن؟

= أريد أن أجد ميزانا واحدا للناس..... والمال.... والعواطف.... والكلام.

– مبدأنا فيه كل ذلك، تلوم المبدأ إن أساء تطبيقه واحد هنا أو هناك.

= منظره وهو ويرتعد فى ركن الحجرة ثم ما تلى ذلك مما صوره خيالى راح يزحف إلى كل وعيى، وهو يشككنى فينا جميعا.

–... ماذا تريد؟ نتراجع؟

= ، أريد شيئا، أنا أريد أن أنام.

كنت مع الأقلية – بالولادة – وكان لى رب يحمينى، وأب يسمع أعترف له، وملكوت ينتظرنى، كنت أوقد نارا مضطهِدة لكل من يضطهدنى أو يُهَمِّش عقيدتى

– ذهبت إلى الطبيب وأعطاك أقراصا، ولكنك تأخذها بانتظام.

= الأقراص تمسح ما حدث، وجوهكم أمامى تتورد بصفرة الموت تعلوها حبات العرق والبصاق، إن ما يحرمنى من النوم ليس التفكير، ولكنها وجوهكم، ليس وجهه هو فقط بل كلكم، كلكم، ياه !!.

– كل من؟ هل تخاطبنى ضمنهم يا غالى؟

= أعرف، اختلطت علىّ الأمور.

– لم أعد أفهمك، ما رأيك نذهب إلى طبيب آخر.

-1-

الآن، أعيش أملا مستحيلا أن يتساوى كل الناس بكل الناس ولو فى الفرص والأحلام، ليس أملا بل هو واجب يومى، عرفت الفرق ووجه الشبه بين ما هو واجب يومى وواجب قومى

إما أن أعيش كما تصورت يوما للناس وبالناس بلا تفرقة و كذب و أقلية و أكثرية، وإما أن أهدم كل شئ بيدى حتى لو انهار المعبد على من فيه، حتى لو رجعت إلى سجنى القديم أتعاطى المخدرات الميتافيزيقية بمحض إرادتى، لماذا لم تهتز ملكة مثلما اهتززت أنا رغم أنى أنا الذى علمتها كل شئ، استجابت لى وأنا أحشر فى دماغها ما شأن لها به، ثم ها هى ذى تتسمك به أكثر منى وتتركنى أتخبط وحدى، لماذا ارتاحت تماما لهذا الحل رغم أنه حرمها من أمومتها ذاتها، هل أجرؤ أن أعيد النظر فى علاقتى بها، أنا أحتاج إلى رعايتها المتفانية التى تحيطنى بها، هل هذا هو الحل السعيد؟ تطعمنى وتسقينى وتهز سريري– جسدها أحيانا– حتى أنام أحلم بالجنة والعدل والسلام على الأرض، ما كل هذا الإصرار على التمسك بأيديولوجيتنا، أعرف لماذا صرت أشعر بوحدتى أكثر كلما لوحت بأيديولوجيتنا المشتركة، جانب من نفسى أدركه يتنكر بوضوح لما أحاول أن أقنعها به.

تخليت عن جنة السماء هربا من اضطهاد الأقلية ومذلتها فى مقابل أن نحلم بجنة الأرض ونحن نصنعها صنعا، جنة السماء جنة مؤجلة يمكن التحقق من عدمها، جنة الأرض مصيبتها أنها تدخل امتحان التحقيق بسرعة، لماذا نتعجل

اختبارها وقد رسبت فى معظم السنوات السابقة، حتى فى الملحق؟ هذا الحادث الأخير قلَّب على التاريخ والجغرافيا، هو الذى استغاث بى وهو ينتفض كالفأر الهارب، أصبحت أشك فى كل شئ ، كل أحد، حتى ملكة لم أعد أتقبلها بنفس الترحاب والطمأنينة، أشك فى عواطفها كلما ازدادت سخونة، تعودت أن توصل الطعام إلى فمى فى كثير من الأحيان، مداعبة فى الظاهر وعادة فى النهاية، ذات مرة رأيت حبات الأرز وهى تقترب من فمى على الملعقة فى يدها وكأنها شظايا ذرية، انتفضتْ يدى فتناثر الأرز فى كل جانب، وأخذتُ فى الاعتذار.

لم أستطع أن أنسى منظر الرعب الذى كان على وجهه مهما تغير المكان والزمان، وجهه، ويديه، وجسده، كل ذلك تفارق فى بصقة الرجل التى تكاثرت بحبات العرق المتفصد حتى تصورته يغرق فى بركة نتنة وهو يكاد يختفى تحت ريم سطحها الأصفر بصفرة الموت.

– مالك يا غالى.

= لا شئ، لدغة برغوت.

– تمزح، ليس عندنا براغيث، إلا إن كنت قد استوردتها من والدتك.

=.... أنت أمى وأبى.

– أنا أحبك،

=..أنا أخجل مما تفعلينه أحيانا.

– تخجل من حبى يا حبى.

= أخجل من نفسى.

تواصل إطعامى، وتغطيتى، وإحضار الشاى باللبن إلى سريرى كل صباح، كما تواصل ترديد أفكارى، والحماس لعقيدتى، بالأصالة عن نفسها والنيابة عنى، أتساءل: أى ملل يمكن أن يصاب به الإنسان فى الجنة؟

حين اقترحت استشارة طبيب آخر ذهبت وحدى أتحسس طريقى أولا، ولكنها لحقت بى بعد البداية بقليل.

– يا ملكة، أشعر أن الأقراص كانت أسلم مهما فعلت، هذا العلاج الجديد تُطرح فيه أسئلة كثيرة وإجاباتنا المحفوظة لا تكفى يا ملكة، أخشى أن أتغير.

– تتغير، وهل هناك غير ما فسر لنا التاريخ ورسم المستقبل.

= ياليت.

– طول عمرك وأنت قلق.

= والأسئلة؟

– لها إجاباتها.

= كلها؟

– يعنى.

= وما يستجد من أسئلة!!

– سنترجمه إلى ما عرفنا من قبل، فنجد الأجوبة جاهزة وكافية.

الحرية قبل تكافؤ الفرص خدعة أزلية.أى حرية كانت أمام خادمة ذات خمسة عشرة ربيعا؟

أنا أنوى، و أريد، و أقدر أن أتغير، فلماذا أصر على الذهاب إلى هناك؟، الشغف إلى المعرفة وحب ا ستطلاع يملكان علىّ حواسى إ أنهما يكفيانا لتبرير المخاطرة، أحس أحيانا أنها خدعة جديدة، عقيدة سرية مطروحة فى صورة علاج حديث، يشبهون أصحاب تجاربى الباكرة وإن كانت المواجهات أكثر حدة والمفاجآت أعنف والصياح أقل، أنظر إليهم واحدا واحدا وأحاول أن أجد وجه شبه يربطهم ببعضهم البعض فلا أجد، يحلم كل منهم بحلمه الخاص ويجمعهم حلم غير معلن هو سر جذب هذا الرجل الطبيب.

عبد السميع الأشرم هو أكثرهم إغاظة لى، نغم نشاز فى وسط فرقة تفعل إ أن تمضى الوقت فى ضبط الأوتار قبل بداية اللحن الذى يبدأ أبدا، فكيف يكون عبد السميع وحده هو النشاز بالله عليك يا غالى؟ تكاد تفقد منطقك السليم إ إن كنت تسمع لحنا خفيا تنكره.

عبد السلام المشد أكثرنا جدا وأعمقنا ألما ولو زوجته المصون الست فردوس لسألته عن السبيل إلى الطريق الهادئ الذى يواصل السعى فيه دون كلل، كمال نعمان أقربهم إلىّ، صديق قديم، سبقنى إلى انسحاب من طريقنا المشترك لأسباب مختلفة، فنان بحق، يبدو أنه لم يجد شيئا آخر، فرحت حين

وجدته معنا هناك، مجرد صدفة، وجدتها رائعة ومخيفة معا، تيقظ الحذر فى داخلى وهو ينظر إلى ملكة مع أن المعركة انتهت لصالحى من زمن، سمعتهما يتشاجران ولم أميز حديثهما أكثر من مرة،

إبراهيم الطيب يتحدانى دون استفزاز، إما أنه بسيط لدرجة لم آلفها، أو أنه مسحور يتلقى تعليماته من تحت الأرض.

نجوى شعبان ممتلئة بالحياة و أعرف مدى ما يمكن أن يذهب بها تيار تدفقها.

أتوقع أن تصادف شلا عميقا تتحطم عليه كل أحلامها الغبية.

ما الذى حشرنى بينهم؟ كلما فكرت فى التراجع – مجرد فكرة– سهرت الليل كله حتى أقسم أمام المرآة أنى ذاهب، و أطمئن حتى يأتى الموعد وأتاكد أنى ذهبت، اطمئنانى هذا يثير قلقا فى الجانب الآخر، بسمة تؤنسنى فى وحدتى من بعيد، بد أن أعترف أنى أذهب فى بعض الأحيان لأرتاح إلى أنها مازالت على قيد الحياة.

مختار ينتظر غمزة سنارته و أراه إ وهو يصطاد كيفما اتفق، بشرته تنبض بحياة رخوة مغرية يظهرها أكثر وأكثر أنه فى أغلب الأحيان يجلس بجوار غريب الباهت وكأنه لم ير الشمس منذ ولد.

شيخهم ومساعدته يمارسان التبشير لعقيدة خفية فى صورة طبية عصرية غامضة، لو كانت المسألة دعوة جاهزة لدين جديد لأمكن مناقشته، ثم قبوله أو رفضه، أنا تركت دين أهلى وذهبت مع الناس من الطبقات العاملة، لن أتنازل عن موقعى مع الأغلبية الكادحة، لو صدقت ما أعرف، سوف أجدنى أعود إلى أقلية سرية ألعن من أقليتى التى ذنب لى فى كونى ولدت منها، أرفض حلوله جميعا دون أن أعرفها حتى لو كانت مغلفة بأوراق العلم والتجربة، أشك فى أنه يعرف شيئا جاهزا، يخيل إلى أنه يعرف شيئا قويا داخل كل منا شيئا، مشتركا تلمسه كلماته فينا، شيئا يبدو أنه يتجلى فى كل منا مختلفا، لكنه هو هو.

تصورى أنه قال لى مؤكدا وهو يفسر فعلته أن ما تم حدث باختيارها! المسألة أن اللعاب يسيل فى الظلام.... فى حين أن الخطابة تعلو إذا أضيئت الأنوار

– إلى متى تظل تذهب إلى هناك يا غالى؟

= إلى أن أعرف ماذا أريد، وماذا يريد هذا الرجل منى، أو لى، لنا.

– هذا الرجل خطير، هو عميل مزدوج، يعنى، بل متعدد الولاء، لكننا نعرف أسياده الذين يجندونه.

= يجوز.

– مؤكد.

= شئ عاد مؤكدا.

-2-

– هل وجدت شيئا آخر يا كمال.

= أبدا.

– إذن ماذا؟ هل نستمر بلا هدف.

= تقول نستمر، فأنت غيرى.

– طول عمرنا معا، ولسنا معا، والله زمان.

= تركتكم وتركت مبدأكم الرائع حتى أكون مع أحد، ما الذى أتى بك إلى هنا؟

– أبحث.

= منذ متى؟ تركتكم والأمور تمام التمام، تحتاج إلى مزيد من البحث.

– إعلان إفلاس الذات يُشهر فى الصحف يا كمال.

= ولماذا نجلس فى منازلنا ونبحث، حتى تكتمل السرية؟

– هل جئت تبحث عن الحل؟ أم تمحو ما وجدت من حلول؟

= لم يعد يهمنى أن أجد الحل أو أفقده.

– والفن؟ ح لك يوما وكأنه الحل.

= لم يعد يكفينى.

– أشفق على وحدتك وألمك.

إما أن أعيش كما تصورت يوما للناس وبالناس بلا تفرقة ولا كذب ولا أقلية ولا أكثرية، وإما أن أهدم كل شئ بيدى حتى لو انهار المعبد على من فيه، حتى لو رجعت إلى سجنى القديم أتعاطى المخدرات الميتافيزيقية بمحض إرادتى

= □ أحتاج إلى شفقتك، وليس عندى أى استعداد لأبادلك مثلها.

– أريد أن أسمع منك.

= تعرف أننى □ أنصح أحدا، دعنى أقولها لك بصراحة: □ تتراجع عن شئ قبل أن تجد بديلا ولو مؤقتا، ما يجرى هنا ليس بديلا أصلا.

– أنا □ أتراجع، هو الذى يتسرب منى يا كمال.

= أسخف المعتقدات أفضل من □ شئ.

– لو كان سخفا □حتملته، ليس المبدأ، المصيبة فى أهله، بشع بشع ما وصلنى، بشع، – حيرتنى يا كمال.

= مازلت تؤمن بالمذهب، ربما أكثر منهم، فلماذا انسحبت وتركتهم؟

– □ أعرف .. قل لى أنت

= قلت لك.... لست مثلى فلا تطِلْ الإلحاح، إسأل نفسك عما أتى بك إلى هنا.

– ليست عندى إجابة، تصورت ذات مرة أننا نستبدل المرضى والمجانين بأصحابنا من المناضلين؟ دع الآخرين جانبا، مصيبتى مع ملكة أعظم وأخطر ولو أنى غير مدرك أبعادها بنفس الوضوح.

= □ يمكنك أن تستغنى عنها، إنها تعطيك كل شئ، فلا تتماد فى إيذائها،

– أنا أحبها.... حتى وهى تخنقنى بعواطفها.

= هى إنسانة مخلصة إلى النهاية.... رغم اختلافى معها ومعك.

– مخلصة إلى النهاية؟ نهاية من؟

= إلى النهاية والسلام، إن كان لأى شئ نهاية.

– هى □ ترتاح لك وتتجنبك.

= أنا أرفضها، ولكنى أحترمها، مثابرة وعنيدة.

– هى تقول إنك هارب جبان.

= ...ربما □ تتعدى الصدق فى ذلك.

تخليت عن جنة السماء هربا من اضطهاد الأقلية ومذلتها فى مقابل أن نحلم بجنة الأرض ونحن نصنعها صنعا

هذا الرجل.!! هذا الرجل يعترف بعيوبه وكأنها عيوب غيره، هرب بجلده، ثم يثنينى عن الهرب، أفضل ما فى الوجود أن تؤمن بشئ مائة فى المائة، أى شئ، ملكة كانت مؤمنة بكل الطقوس الميتافيزيقية القديمة، ثم هاهى ذى مؤمنة بكل الطقوس الجديدة، لماذا أفعل مثلها؟ وكمال، عكس ذلك، هو وصل إلى شئ، وهو يريد أن يصل إلى شئ، أنا على وشك أن أفعل مثله.

أنا أجد مبررا للتراجع، نفوس الناس ضعيفة لكن المبدأ ليس به عيب، بد من العدل والمساواة، بد من البدء بلقمة العيش، ثم يكون بعد ذلك مايكون، عقلى يكاد يشت يا ملكة.

– للمرة الألف يا ملكة: فلينهر من ينهار، المبدأ غبار عليه.

= ما فائدة أن تردد الصواب طول الوقت، ثم تفعل عكسه؟

– لكن هذا الذى انهار هو الذى سيحكم البلد اذا ما استولينا على السلطة.

= توزع المناصب الوزارية من الآن؟ تبرر موقفك وأنت تمهد للتراجع.

وحتى لو كان طريقنا الأول هو الطريق الصحيح، فكيف أتمسك به وقد طمست معالمه داخل نفسى، وهل البديل أن أحضر هنا مع هؤلاء المجانين؟ هل أنا مريض مثلهم؟ ملكة تكرس كل جهودها لكى أكف عن الحضور فأرد عليها تلقائيا بأن أعاند وأحاور وأداور دون اقتناع كامل من داخلى، يا ليتنى أحضر، لو كففتِ يا ملكة عن القفز والتشنج، فلربما فكرت أنا وعدلت وحدى، أنا أثق فى أحد منهم، مازلت أشعر بانتمائى للأقلية، أى أقلية، أينما ذهبت فأنا الأقلية وهم الأكثرية، كيف أثق فيهم أو فيه؟ أخشى أن يتكشف هذا الطبيب عن خدعة نذلة مثل صديقى عالى الصوت المتكوم فى ركن الحجرة فى بركة العرق، وتناثر نتن البصقة، وبقايا شحوب الموت، بشعة، صورة بشعة، حمار جائع يشم مؤخرة غزال حديثة الولدة، ماذا لو جمع السلطة فى يديه؟ يدعو إلى تأميم المصانع ويبدأ بتأميم خادمة الجيران لصالحه، يتحاشانى منذ الحادثة،.... صوته أصبح أكثر ارتفاعا ونبرته أكثر حدة، صوته أحيانا يصلنى وأنا فى سرحات خيالى وهو

جنة السماء جنة مؤجلة لا يمكن التحقق من عدمها، جنة الأرض مصيبتها أنها تدخل امتحان التحقيق بسرعة، لماذا نتعجل اختبارها وقد رسبت فى معظم السنوات السابقة، حتى فى الملحق؟

قابع فى ركن الحجرة ينتفض ممسكا صولجان السطلة مصدرا فرمانا يقول "رجال الحزب أولى بالحريم من ذويهم"، أكتشف أن خيالى كان يتربص بى الناحية الثانية.

متى أكف عن التذكر والتفكير؟ ..متى يكف خيالى عن المبالغة والتشويه؟ ماذا جرى لى...؟ هذا الزعيم المزعوم ليس كل الناس، ليس كل الرجال، وليس كل الثوار، أحس أنى أبالغ فى التشويه لأبرر هربى، كلما اتسعت الرؤية غمرنى هلع غامض.

-3-

– رجلى على رجلك.... ولو حملونى على نقالة.

= هذا انتحار، حرارتك أربعون والطبيب أمرك بالراحة التامة.

–..... كيف تتركنى وأنا بهذه الحالة مادمت تعلم بخطورتها؟

= مثلما تركتك إلى العمل فى الصباح.

– العمل شئ، وهذا شئ آخر.

= أنت تعلمين أهمية الذهاب وتحرصين على أن نتعجل النهاية.

– إنه مثل الماء المالح، كلما ذهبنا إليه اضطررنا للذهاب أكثر.

= فليكن.... ولنشرب الماء المالح حتى نتقيأ.

– أنا فعلا أكاد اتقيأ كلما ذهبت، ربما ارتفعت حرارتى من ذهابى معك.

= لن تأتى معى اليوم.

هذا الرعب الذى يتملكها من هذه الرحلة الأسبوعية يثير داخلى ويدفعنى للتحدى بلا حدود، أكتشف أننى أتحدى إ نفسى، لماذا لم أحظ على إبراهيم بعض ما أنا فيه؟ ملامحه مثل الصخر لكنها مغطاة بخضرة زرع مجهول المصدر، ترى هل وصل إلى الحل الأسعد أو أنه فى غيبوبه سرية؟ انتهزت فرصة تخلف زوجتى هذه المرة وانتحيت به جانبا.

= كيف ترتاح هذه الراحة والناس جوعى يا إبراهيم؟

أنا تركت دين أهلى وذهبت مع الناس من الطبقات العاملة، لن أتنازل عن موقعى مع الأغلبية الكادحة، لو صدقت ما لا أعرف، سوف أجدنى أعود إلى أقلية سرية ألعن من أقليتى التى لا ذنب لى فى كونى ولدت منها

– ماذا تريد يا غالى، وأين ملكة؟

= أريد أن تعطينا مما أعطاك الله.

– لم يعطنى الله شيئا، أنا الذى أسعى فى الطريق اليه.

= إلى الله؟

– وإلى عطائه؟

= أنت لست مثل عبد السميع، أنت أعقل من ذلك.

– ﷺ أحد مثل الآخر.

=... وكيف ستوصل عطاء الله إلى الجوعى، أفادكم الله؟

– جوعى! كيف؟

= ﷺ يوجد إﷺ جوع واحد، جَوْعى للقمة والغموس.

– وهل أنت جائع أم هارب؟

= ... فى ظل النظام القائم يمكن أن أجوع فى أى لحظة.

– وإلى أن تجوع بإذن الله، ماذا أنت صانع؟

= أحمى الجوْعى من حشيشك وأفيون عبد السميع.

– بالله عليك، من الذى يتعاطى الأفيون؟ تهرب من جوعك فى الحديث عن جوع الناس ثم تتهم الناس بالتعاطى، أنت ﷺ تكاد تفيق من مخدرات مستوردة تعميك عن نفسك وعن ناسك الذين ﷺ تعرفهم إﷺ من الكتب.

= أكلمك لأعرف عنك أكثر، تَسْتَشْيَخُ حتى تكاد تعظنى أن أدخل دينك.

– لم أعلن دينى لأحد، أنا أحاول أﷺ أخدع نفسى، هذه هى الحكاية.

= أنت مرتاح لأن دينك هو دين الأغلبية فلا خوف من اﷺضطهاد والنبذ.

– دينك داخلك فدعه يترعرع بلا إذن من ملكة وﷺ خوف من كمال وﷺحساب لعبد السميع، ساعتها ستعرفه كما ستعرف الناس الذين تتحدث عنهم، وتحس بهم.

= دعوتكم هنا خطيرة إلى الإحساس يا إبراهيم، ماذا لو أحس الجوعى.

حتى لو كان طريقنا الأول هو الطريق الصحيح، فكيف أتمسك به وقد طمست معالمه داخل نفسى

متى أكف عن التذكر والتفكير؟ ..متى يكف خيالى عن المبالغة والتشويه؟ ماذا جرى لى...؟ هذا الزعيم المزعوم ليس كل الناس، ليس كل الرجال، وليس كل الثوار، أحس أنى أبالغ فى التشويه لأبرر هربى، كلما اتسعت الرؤية غمرنى طلع غامض

– يقتلون الشبعانين.

= وقد يقتلونك أول الناس؟

– قد يكون هذا هو الحل.

= أنت يا إبراهيم تقول ذلك؟

– الإنسان . ليحيا . إما قاتل أو مقتول.

= حسبتك مسالم حتى النهاية.

– أحيانا يكون القتل هو طريق السلام.

= □ أفهمك.

– أعيش مشاعر القتل لتصهرنى وأنا أقترب منك مسئو□ عنها، رغم اختلافنا.

= هذا خطر، و..، و..، غير مفهوم.

– فهمته لحظة ثم تراجعت.

= فهمته أو لم أفهمه هو خطر.

– مجرد وجودنا فى الحياة خطر.

= كلامك مرعب وقد كنت أحسبك فى سلام حقيقى.

– إذا أردت أن ترى من زاوية أفضل فحاول أ□ تخاف من خوفها.

= خوف من؟

– "ملكة"....

= إبراهيم؟ هل وجدت حلا؟

–.... أنت حَلِّى.

= أنا؟

– أقتلك بلا مجاملة.

= كلامك يرعبنى يغرينى با□قتراب، فيحمينى منك جوع الناس.

– نحن □ نصل إلى الناس إ□ من خلال أنفسنا.

= ملكة تصدق شيئا من ذلك، إصبعها تشير إلى المخابرات الأمريكية تفسيرا لأى محاولة للمراجعة، هى تسمى حكمتكم حكمة الكراسى الوثيرة.

– هو طريق أطول، وربما أضمن أو أخطر.

= هى تفكر فى جوع الناس ليل نهار.

– هل هذا يسمح أن يحل"التفكير" محل "الجوع" ومحل الناس بالمرة.

= الجوع هو المشكلة الرئيسية.

– بل المشكلة الأولى، نحن إما نعيش ونحن نحس ببعضنا البعض أو يأكل بعضنا بعضا.

= أشعر أننا فى محل توصيل الطلبات للمنازل "تيكاواي" "سندوتشات إحساس بالصدق الحار والليمون المتبل بالصحة والتطور." ويذهب الناس فى ستين داهية.

– الناس الناس؟ وأنت وملكة ألستما ناسا؟

= نكون ناسا إ بهم.

– أنت تخلط بين الحديث عنهم والتمسح بهم، للناس يا غالى نبضٌ آخر.

= كيف؟

– المواجهة مستمرة.

=... رعب أزلى، يعوق الأنبياء أنفسهم.

– بديل لذلك.

= كلام حلو.

– أنت الأحلى.

= إبراهيم.

– نعم.

= الله يخرب بيتك.

–... حصل.

بالله عليك، من الذى يتعاطى الأفيون؟ تهرب من جوعك فى الحديث عن جوع الناس ثم تتهم الناس بالتعاطى، أنت لا تكاد تفيق من مخدرات مستوردة تعميك عن نفسك وعن ناسك الذين لا تعرفهم إلا من الكتب

 أستطيع أن أكذبك بسهولة يا إبراهيم، أرى طريقا واضحا و بديلا حقيقيا، سمعت مثل هذا الكلام مرة فى جلسة حشيش تنتزع القهقهات من جوفك دون المرور على قلبك، تتصاعد موجات الإحساس الزاعق على نغمات عود ذلك الشيخ العجيب الجميل الضرير، أوحشتنى جلستهم، سوف أذهب إليهم لأعرف إلى أى سماء طار بهم الدخان الأزرق، لعل حشيشتهم تتحدى أفيونك يا إبراهيم، أنت وشيخك المغرور.

-4-

الشيخ الضرير النحيف يمسك بعوده فى حب غامر، يشرئب بعنقه إلى اليسار أكثر منه إلى اليمين فى حركة لولبية تشبه مسيرة التطور، يرتشف ريقه باستمرار وكأن صنبور الوعى قد انساب بلا انقطاع فى تجويف فمه، شعره الأجعد ولونه الأسمر وعنقه الطويل يذكرنى بآثار القدماء، حركات وجهه كلها إحساس صادق يا إبراهيم، هأنذا أوقظ إحساسى مباشرة بأنفاس الحق الأزرق، ملكة سعيدة بهذه الزيارة وتأمل أن يعود ما انقطع ولو من خلال غابة الجوزة، حين عرضت عليها الذهاب لسماع الشيخ، قالت إنها تفضله عن شيخ المنسر طبيبنا المجنون، ضربات العود تخرج بغير انتظام وأصابع الشيخ تعبث فى مفاتيحه استعدادا للسهرة، والدخان الأزرق يملأ الجو فى سِحْر أصيل، الطلبات تنهال على الشيخ فى وطنية اشتراكية، وأحيانا فى عروبة قومية.

- نريد أن نسمع شيئا جديدا.
- الجديد فى الحديد، والجنرا ت يذكرونا بما تحت الباط.
- بطاطنا سخنة.
- وصاحبة الجلالة تحب البليلة السخنة.
- وحمص "الشام" المتحدة.

تتفجر القهقهات فى عدوان قاس، والشيخ يرتشف ريقه فى انتصار وزهو بالغين، يقدم أحدهم إليه الجوزة.

نحن لا نصل إلى الناس إلا من خلال أنفسنا

– إسحب لك نفس، واستفتح.
– انسحاب هذه الأيام هو للأمام يا فاضل.
– ليس لدينا حجة بعد العبور.
– سحبوا البساط من تحتنا بلعبة أمريكية رائعة.
– سحبوا البساط بجهاد رجال البلاط.
– حلقة جديدة من مسلسل" الوطواط".
–... مغامرات السوبرمان، فى قصر السلطان.

تفتح الأفواه، وتنطلق منها الأصوات عنيفة كالضحك، شلالات تجرف معها كل شئ، ملكة متحمسة أشد الحماس وتطلب من الشيخ أغنية خاصة.

يقول الشيخ:

– عقبال عوضك يا ست ملكة يا سكره.

يقول أحدهم.

– سندخل العوض مع المطالبة بحقوقنا فى حقول الملانة.
– من بنود اتفاق السرية أن لهم الحق فى زراعة الصحراء بالمكرونة الأسباجيتى،
– دخلت إيطاليا طرفا رابعا فى اتفاق.
– فلتعش صوفيا لورين.
–..وانا وانت،
– ولورين وهاردى.

ثم موجة أخرى من الضحك السالف الذكر، أين أنت يا إبراهيم يا طيب حتى تسمى هذا الشئ باسمه يا حامى حمى الإحساس الفطرى يا غبى.

أواصل سحب الأنفاس، فتنتفخ عضلات وجهى وتتباعد ملامحى وتخرج منى أصوات مقهقهة، ليس لى أدنى علاقة بها.

قال أحدهم دون مناسبة:

المشكلة الأولى، نحن إما نعيش ونحن نحس ببعضنا البعض أو يأكل بعضنا بعضا

– هيا نلعب قطرا.

رد آخر فى سعادة خاصة:

– قطر الندى خالة أفندينا.

تصورت أن أحسن ميتة □براهيم الطيب هو الرجم بالقباقيب، ألم يقل أن الحل هو الإحساس: يا قاتل يا مقتول، فليمت وهو فى غاية الإحساس بضرب القباقيب، ولتتعلم عظامه معنى السحق، وبذلك يكون قد أحس حتى النخاع، قهقه الجميع وهم ينظرون إلى فخشيت أن يكونوا قد سمعونى وأنا أفكر مع أنى لم أفتح فمى.

أطلّ علىّ وجه "بسمة" فجأة ولكن لحقه على مسافة وجه إبراهيم وهو ينظر إلى من ركن الحجرة فى سخرية صعبة، وجدتنى قادرا على أن أرد عليه بنفس عدوانه المغلف بكلام الحب الجسور: "سوف أريك معنى الإحساس يارائق يا إبن الكلب، سوف أومن بجهنم خصيصا لأراك فيها وبئس المصير، أنا سوف أدخل الجنة فى الحالتين يا أبو خليل: لن أحدد لك الحالتين حتى □ تفلسفها وأنت لست فاهما حاجة، يطل علىّ وجه "بسمة" من بين ضلفتى خيمة من الحرير، أخطفها على حصان أبيض من رعايا كنيسة العذارء، نطير إلى جنة عمنا ماركس وهى تذكرنى أنها □ تحب اللون الأحمر.

أنظر إلى ملكة بعد مزيد من الأنفاس فأرى ملامح وجهها تتضخم، أتسحب فى هدوء النملة فوق أنفها الجبلى محاو□ أن أتجسس على جهاز المخابرات المركزية الذى تخبئه فى تجويف أنفها لصالح الطبقة التى □نعرف عنها شيئا، أختفى وراء صخرة من الجرانيت على الجبل الشرقى، قبل أن أتبين أنها وحمة الزبيبة التى تظن أنها سر أنوثتها، صحت فى استغاثة.

– يا سيدنا توما ا□كوينى... مدد.

رد الجالس بجوارى،

– إكوينى مرة، واكوينى تانى....

المظاهرات تملأ الشوارع وأنباء تقول أنها لا تهدأ بمرور الوقت، لم أشعر أن الله تخلى عنى تماما مثلما شعرت ذلك اليوم، حقيقة أنى تخليت عنه من سنين ولكنه هو لم يتخل عنى بهذا الوضوح والصراحة مثلما حدث هذا اليوم

انطلقت دفعة جديدة من الطلقات السريعة المقهقهة حتى كدت أصاب بشظايا مختلفة الأحجام، أتلفت حوالى لأبحث عن جحر فأر أختبى فيه، ولكنى أفضل الاختباء فى ثقب المفتاح لأمنعهم من الخروج حتى يواجهوا مصيرهم المختار، أغلبهم يتعاطى المنزول بدرجة ثائر، بعضهم من هواة الثقافة وهم يعمقون إحساسهم يا إبراهيم بموسيقى السيمياء الصامتة، قعدة أرخص من جلسة طبيبك المأفون، أقترب من اكتشاف السر تحت تأثير هذا العقار الساحر، نجاح قانون البقاء يتوقف على نوع المخدرات وعمرها الافتراضى، الأفيون الحديث تخطى أجراس الكنائس وأعالى المآذن إلى الكتب والعقائد، ثم إلى عيادات الأطباء، العاقل هو من يبحث عن أقصر السبل وأرخصها، ! تستجاب دعوة مسطول ثورى إلا بإذن كتابى من جماعة الثوار المثقفين الموسيقيين العرب، لولاك يا ملكة يا بنت أبو مناع ياربة العفاف والجدل، لكنت الآن فى السجن او فى السرايا الصفراء، بفضل حساباتك وثورتك البيتية التى تلفينها فى محشى ورق العنب: هأنذا أمارس الاشتراكية الزرقاء تمهيدا للثورة الحمراء بعد الانقلاب السكلاما المخطط تكتيكيا دون مساس باستراتيجية الهرب المستمر.

قالت لى ملكة ونحن على الباب.

– رأيتك هائصا مثل زمان.

= وسيلة أسرع لإيقاظ الإحساس، مادام الإحساس هو السبيل إلى الثورة الحقيقية

– ! تردد كلام شيخ المجانين، هنا أصل السعى إلى الحقيقة.

= أنت الحقيقة الوحيدة فى حياتى يا ملكة لأنى ألمسك بيدى، وكله زائل إلا وجهك.

بدت على وجهها سعادة مختلطة بخوف، وحذر، ورفض وكأنى أعنى ما أقول.

****

رحت أهتف فى وحدتى "ياربى"، رغم يقينى بأنه غير موجود، كنت أحتج عليه آملا أن يحمينى من هجوم زوجتى الشامت وكأنها هى التى قامت بهذه الاضطرابات لصالح إثنائى عن العلاج، أحاول أن أخفى عنها هربى إليه وهو غير موجود.

دون إنذار، انفجرتُ باكيا فى التاكسى فزعا قبل أن ألحظ نظرة زوجتى الملتاعة الزاجرة الملتزمة، سيطرت على نفسى بسرعة، وخطر بعقلى بيت من الشعر أذكره.

-5-

المظاهرات تملأ الشوارع وأنباء تقول أنها تهدأ بمرور الوقت، لم أشعر أن الله تخلى عنى تماما مثلما شعرت ذلك اليوم، حقيقة أنى تخليت عنه من سنين ولكنه هو لم يتخل عنى بهذا الوضوح والصراحة مثلما حدث هذا اليوم، انتهزت ملكة فرصة الضطراب والتحطيم وأخذت تهاجمنى بلا هوادة، شعرت بالعجز والحيرة والرفض بطريقة أحسست معها أن الموت هو الحل، رحت أهتف فى وحدتى "يارب"، رغم يقينى بأنه غير موجود، كنت أحتج عليه آملا أن يحمينى من هجوم زوجتى الشامت وكأنها هى التى قامت بهذه الضطرابات لصالح إثنائى عن العلاج، أحاول أن أخفى عنها هربى إليه وهو غير موجود.

– غالى، هل اكتفيت بالتدريبات الداخلية فى مصنع العواطف المستوردة؟

= أحتقر نفسى و أعرف كيف أشارك الناس حقيقة مشاعرهم؟

–....

–....

– مفر من المشاركة، هذا هو الحل الحقيقى، الشارع يغلى.

=.... دعينى أفكر.

– أفسدك العلاج.

= أحسن.

طرقت باب السماء فإذا بها مازالت بلا أبواب، مجرد انعكاس الضوء على ذرات تُرى، ليس للسماء باب كما أنه ليس للأرض قاع، كل شئ قبيح خادع ولسوف تنتهى المظاهرات إلى شئ، سوف تعتبرين نفسك بطلة التحرير وتأخذين نيشان الصياح الأعلى، ثم تعود الحياة كما كانت، نخدع أنفسنا بأحلام

تتكلمون عن الحب "هنا والآن" وأنا لم أعد أفهم أى معنى لأى كلمة بعد أن انهارت كلمات المسرة والمحبة والسلام، ثم انهارت كلمات المساواة والعدل والكفاح

ليست أسعد و أقرب من أحلام الجنة المفقودة وعفو الأب فى الأعالى، المسرة ليست بالناس و بالجان، المسرة خدعة الأفيون القديم، والسلام حجة العاجز، وها هو ذا الأفيون الحديث يتضاءل تأثيره مع استمرارالإدمان.

آخر صيحة فى المخدرات الأحدث هو ما وجدته عندك يا دكتور عبد الحكيم، تتكلمون عن الحب "هنا والآن" وأنا لم أعد أفهم أى معنى لأى كلمة بعد أن انهارت كلمات المسرة والمحبة والسلام، ثم انهارت كلمات المساواة والعدل والكفاح.... لعبة الثلاث ورقات بشكلين مختلفين، فأين أخفيت البنت القلب يا ملكة يابنة مناع؟

= إذن ماذا؟ ما هذا الحب يا إبراهيم الذى تتحدثون عنه؟

– هو الحياة.

= سئمت التعاريف الشعرية، أنا جاد.

– وأنا أمزح، أنا أراه فى كل حركة من أول طنين ذبابة حتى ذروة الشهوة بين ذراعى امرأة مؤمنة.

= مؤمنة؟ مرة واحدة؟ ما لك جاهز بهذه الألفاظ يا إبراهيم بهذه البساطة؟

– أنت خائف يا غالى من كل شئ؟

= لقد فترت تجاه زوجتى بعد أن اكتشفت أننا كنا نكذب طوال هذه السنين، وأنها كانت تتصنع ا□ستجابة لى لمجرد إرضائى.

– ثم ها أنت تحاول طرق أبوابها.

= أية أبواب؟ ربى القديم تخلى عنى، وأبوابهم تفصل إ بين الفراغ والظلام.

– أنت الذى تخليت عنه، عاود الطرق يا غالى، وسوف تستجيب الأبواب أسرع.

= أنا الطارق؟ وأنا المجيب معا؟

– نعم؟ .. نعم؟

لقد فترت تجاه زوجتى بعد أن اكتشفت أننا كنا نكذب طوال هذه السنين، وأنها كانت تتصنع الاستجابة لى لمجرد إرضائى

= هذا ما خشيته حين قررت أن أحادثك، توقعت أنك سوف تضيعنى فى ألفاظك الحالمة الغامضة، يلوح لى أن الحل عندك، ثم تتركنى كما كنت وألعن، أنت أعظم كذاب فينا، بل فى الدنيا كلها، يا إبراهيم.

–.... لكل واحد حله الخاص، مهما تشابهت البدايات فالمصير هو نتيجة ما نختار،

= مصيرى يقترب من النهاية أسرع مما تحسبون.

– بل إنى أراك تتقدم للأمام رغم بطئك.

= سأقترح على جلالة مولانا نور الدين أن يعيّنك حامل أختامه، تقسم الناس إلى متقدم ومتأخر، لو أنك تعرف ماذا تقول أو تدرك معنى للحياة لرأيت كيف أنى فى مصيبة أعرف لها بداية ولا نهاية.

– أعرف ذلك وأنتظرك.

= مصيبتى هى أنى كفرت مجانا، وحين عدت أطرق بابه لم أجد أحدا يرد.

– ولكنك فى طريقك للإيمان.

= تتشفى فىّ يا إبراهيم أم تبشرنى بدينك فى حظيرة الأغلبية؟

– ماذا تقول يا غالى؟

= يراودنى خاطر ملح أن أرجع إلى دين أهلى بإصرار، أحتمى به منكم ومنهم، حتى لو عادت معه مشاعر الاضطهاد والنبذ، فهى أفضل من الضياع والوحدة.

يراودنى خاطر ملح أن أرجع إلى دين أهلى بإصرار، أحتمى به منكم ومنهم، حتى لو عادت معه مشاعر الاضطهاد والنبذ، فهى أفضل من الضياع والوحدة

– وهل تستطيع أن ترجع؟

= لم ؟

– جرب.

= تسخر منى؟

–... أنا أحترمك يا غالى، وأحترم استمرار محاولة صدقك.

=...كلما رأيت طمأنينتك يا إبراهيم ازددت عدوانا عليك، كدت أقتلك فى خيالى ضربا بالقباقيب.

– طمأنينتى أنا تنفعك، لن يطمئنك إ استمرارك، استمرارى ليس لحسابك، لكنه يصب فيك، وفينا.

= ردودك تخترق عظامى وتغرينى باتهامك، أو احتقارك، أو تكذيبك.

– الصدق فى المحاولة، توجد آراء صادقة، وإنما محاو ت صادقة.

= صدق مؤلم، يكاد يعجّزنى.

– من يَعْجَزُ فى النهاية هو الخاسر.

= إذن لماذا تساهم فى العمل السياسى، معنا؟

– ما هذا الذى نعمله ليل نهار؟ أليس عملا سياسيا؟

= أعنى تنظيمنا تحديداً.

– كل الطرق الجادة تؤدى إلى "وجهه".

= وجهه أم وجه الناس؟

– وهل يوجد فرق؟

= ... هذه هى مصيبتى معك، كلما تحدثت بمثل هذا الكلام مادت الأرض تحت قدمى ولم أعد أفهم شيئا.

– بل تفهم، ولكنك تأخذ بالك.

= تحيرنى وتزيد الأمور إلغازا، قل بصراحة هل أنت معنا؟

– طبعا، رغم أنفك.

= أنفى أنا؟ رغم أنف ذاك المسئول عن انهيارى.... مُلْتَهِمُ العذارى المشويات.

– تهرب من مسئوليتك يا غالى... حكيت لك أن امرأتى فى أحضان من يعرف اسمها، ووجدانى يصطلى بآ م الوحدة والهجر، ومع ذلك تصر على تبرير انسحابك لأن فردا هوى تحت وطأة نزوة.

ماذا أريد منها على وجه التحديد، ليست على دينى ولا فى سنى، ولم أتجاذب معها الحديث إلا مرات قليلة، ومع ذلك فهى تشغل بالى هذه الأيام بطريقة مخبلة، ومضحكة، وأحيانا ممتعة

= المسألة ليست مسألة فرد، بل ما أثاره هذا الفرد من تساؤل حول طبيعة مَنْ مِنْ الثوار يستلم السلطة.

– يا أخى... ! يا أخى... ! قانون البقاء سيلفظ هذه الفقاقيع على الجانبين.

= وإلى أن يلفظهم ، كم عدد الضاحايا الذين سنقدمهم قرابين ونحن ننتظر؟

– هذه هى ضريبة المحاولة.

= حيرتنى يا ابراهيم، أنت بعيد قريب، تدافع عنهم وأنت غريب عنا، أخشى أن أكتشف فيك أكبر كذبة..

– يا أخى أطلع كذابا، أذهب فى ستين داهية، كل هذا يبرر ضياعك أو انسحابك.

= إبراهيم: صورة ملكة تخايلنى، وأنا خائف،

– معك حق.

-6-

حين فترت عاطفتى تجاه، زوجتى تفتحت بشكل مخجل نحو "بسمة"، لا بد من حب حقيقى جدا، وخاص جدا، حب يملؤ حياتى ولا يدع لى مجالا للتفكير فى أى شئ لا قبل الموت ولا بعد الموت، لم أعد أثق فى الأصل،.... ولا أقبل الهروب الجماعى تحت أى عنوان ولسوف أفعل ما أريد.

. ماذا تريد؟

= ....أن أعيش بأى ثمن.

. أنت حر.

= ياليت،

ماذا أريد منها على وجه التحديد، ليست على دينى ولا فى سنى، ولم أتجاذب معها الحديث إلا مرات قليلة، ومع ذلك فهى تشغل بالى هذه الأيام بطريقة مخجلة، ومضحكة، وأحيانا ممتعة، لا أنكر أن خيالى سرح بضع مرات فى مناظر جنسية مع نجوى مصباح، أما هذه العصفورة فهى لا تثير فىّ الحيوان

حين تتكلمون عن حب كل الناس لكل الناس، تعيشون فى الكذب ليل نهار وأنتم تدورون حول أنفسكم فى عيادة طبية مثل دورات هذا الخطاب فى قاع الماء القذر،

وحده بل تعيدنى إلى دنيا ذات طابع خاص ، خيا□تى الجنسية معها لها رائحة عطرة، حبات عرقى الجنسى تتفتح فيها زهور بيضاء وينطلق من أكمامها عصافير منتشية.أليس هناك سبيل إلى ا□تصال بها دون أن تنهار أحلامى أو أُقْتَلُ رميا برصاص ملكة مناع زوجتى العزيزة، سوف أكتب لها خطابا أعبر فيه عن كل ذلك، هذا هو الطريق الأسلم.

"حبيبتى بسمه...

□ تتعجبى من ندائى لك بحبيبتى، هذا قدرى، أقولها دون لف أو دوران، أنا على غير دينك، لكنى بلا دين، فلا تضعى العوائق بيننا بلا مبرر، السن لن يحول بيننا لأنى □ أريد منك شيئا له دخل بالسن، لقد جئت هنا بلا عقيدة و□ مستقبل فما الذى جاء بك فى هذه الساعات المبكرة من العمر؟ هل نسعى جميعا إلى هدف مشترك □ نعرفه؟ نحن نقترب بعضنا من بعض دون قصدٍ معين، الذى يهمنى أنى اقترب منك أنت على وجه الخصوص، أنا أحبك يا بسمه، أنا لم أحب أحدا أبدا، أحلم بك و□ أشوهك بالجنس حتى فى الحلم، أرفض لك حزنك، هذا الحزن مؤلم فى هذه السن الحلوة، أريد أن أتسحب تحت ملامح وجهك لأرى حقيقتك، فرحتك، ألقى بين عينيك بقشرة ترمسه ونحن نسير سويا فى صمت على شاطئ النيل فتضحكين مثل رضيع يتعرف على صوته لأول مرة .... حبيبتى بسمة.

ربما أنت الوحيدة التى تستطعين مساعدتى فى محنتى التى ورطت نفسى فيها دون مبرر، كيف تساعدينى؟ لست أدرى؟ ولكنى أحبك.

توقيع: "غالى جوهر".

راجعت الخطاب مرتين ولم أصدق أنى أنا "غالى جوهر" الذى كتبته، نظرت إلى وجه امرأتى وهى نائمة تجز على أسنانها فى تنَمُّر، تسحبت إلى الحمام وكومت ورقة الخطاب فى إصرار وخوف وألقيت بها فى الماء وأخذت أشاهدها وهى تدور حول نفسها مع تيار الماء المتدفق، ثم تنسحب بقوة إلى مكان عام حيث يختلط كل شئ بكل شئ.

ما أبشع الكذب حين يسمى بغير اسمه، حين يسمى الأفيون الحديث مُنَبِّهاً للوعى

هل هذا هو ما تفعلونه بالحب الخاص يا إبراهيم يا طيب؟ حين تتكلمون عن حب كل الناس لكل الناس، تعيشون فى الكذب ليل نهار وأنتم تدورون حول أنفسكم فى عيادة طبية مثل دورات هذا الخطاب فى قاع الماء القذر، الناس تتساوى إ فى مكان عام مثل مصير هذه الورقة المطوية، ما أبشع خيالى ولكنى أحاول الصدق حسب وصاياكم العشره.

ما أبشع الكذب حين يسمى بغير اسمه، حين يسمى الأفيون الحديث مُنَبِّهاً للوعى... إسمع يا إبراهيم:

أنا ذاهب غدا إلى الكنيسة دون أن أقول لكم، وسأعترف بكل ما كان.

-7-

"جوهر غالى جوهر"، هل هذه هى نهاية المطاف؟ أو لعلها بدايته.

ماذا بعد أن قبل أبونا اعترافى وانتصرتْ ملكة على خوفنا، فأهدانا الرب هذه الجوهرة الغالية النادرة؟ ولد ليس كمثل الأو د، نتاج المعاناة والصبر، زهرة العمر "جوهر غالى جوهر" ما هذا الذى كان قد حدث بعقلى حتى أحرم ملكة وأحرم نفسى من هذه النعمة التى ستزيد عدد شعبنا المظلوم على أرضنا التليدة، نحن الأصل، ما أغباك يا نجوى حين تركت طفلتك إلى هذا الضياع الذى كاد يطير بصوابى، ولكنك تراجعت فى آخر لحظة حين قبلت ا رتباط بإبراهيم، هذا هو عين العقل، سوف تعرف معنى الحب يا إبراهيم من الآن فصاعدا.

من الغرور والغباء والأنانية يا كمال يا نعمان أن نحاول أن نحقق فى حياتنا ما ينبغى أن يحققه أو دنا وأو د أو دنا، قال أبونا فى موعظة الأحد الماضى كما كان يقول دائما: "الْمَجْدُ للهِ فِى الأَعَالِى....."، فهمتها ربما لأول مرة على كثرة ما ترددت على أذنى، كيف تحاول أيها العبد الحكيم – متخفيا تحت ستار العلم والطب – أن تجعل المجد للإنسان فى عيادتك القذرة، أمّا أنت يا ملكة، فلو صبرك علىّ هذا الصبر لضاعت الأرض والسماء والأصول والفروع.

ولكن لماذا يفارقنى النوم بالليالى الطوال – ومتى ينتهى الواجب الزوجى الأسبوعى الثقيل..؟

يستحيل علىّ أن أهدم المعبد على رأس الجميع لأنى ضبطت حارسه يتبول بجوار جداره..، أستطيع أن أنساكم أو أنسى الناس، "جوهر" إبنى ليس سوى الناس رغم أن ملكة أمّة تزداد بُعْدا يوما بعد يوم..... خائف خائف خائف أنا، مع أنى متأكد أنى على حق.... أننا على حق مهما تعثر بعضنا.

مازالت شهادتك بصدق محاولتى تطمئننى يا إبراهيم، أنا لم أفهمك أبدا وأنت تصر على ابتغاء "وجهه"، أنا خائف يا إبراهيم، مضت شهور ولم أركم فيها، كم أنا مشتاق لرنين صوتك يا أخى، ولغمازتا بسمه.

"جوهر" يا إبنى هل تكون لى بديلا عن الناس؟

أو أنك سوف تكون طريقا إليهم؟

[1] – يحيى الرخاوى: رواية "مدرسة العراة" الجزء الثانى من ثلاثية "المشى على الصراط" الرواية الحائزة على جائزة الدولة التشجيعية سنة 1980 (الطبعة الأولى 1978، الطبعة الثانية 2008، الطبعة الثالثة 2018 تحت الطبع)، والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط www.rakhawy.net (طبعاً هذه الصورة ليست للشخصية الحقيقية).

الإثنيـــن 2018-07-02

العدد: 3957 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل السادس "كمال نعمان" رواية "مدرسة العراة"

لا بد أن يعرف هؤلاء الناس ماذا أقول، ومن يقول ماذا، فعلا، أو حتى تقريبا؟ هل حقا أريد أن أقول شيئا أم أنه تفريغ والسلام؟

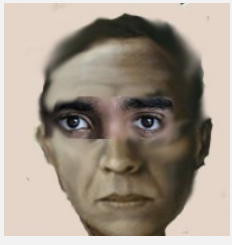

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية" مدرسة العراة [1] "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثانى :من ثلاثية" المشى على الصراط."

وهذا هو الفصل السادس

"كمال نعمان"

-1-

اقتربتُ من اللوحة، وابتعدت عنها، ملأنى الزهو بنفسى وبالريشة وبالألوان، أتذكر كلام صديقى أمس: "تُواصِل الصعود إلى القمة بسرعة يا كمال! الآن فقط أحس أنك كنت محقا حين تركت الشعر"، صديقى هذا ناقد فنى يجامل، هزنى إلى الأعماق، هذه لوحة ستكون صرخة العصر لإعلان مرحلة جديدة، لم يبق على إنهائها إ لمسات يسيرة.

أتراجع أكثر حتى أتملى من ألوانها، جاءت وقفتى بجوار النافذة، لمحت الأتوبيس وقد خرج من كل فتحاته عجينة مختلطة من البشر "المصريين"، شعرت بوخز عنيف فى صدرى سرعان مازال ليحل محله هاتف قديم، هاتف كنت قد

نسيته بعد أن استغرقنى العمل والنجاح، تردد بصرى بين اللوحة وبين الأتوبيس"هؤ ء البشر مصريون! وأنا ؟ " رجعت أشاهد اللوحة، هذا العمل يدل على أنى منهم، هل هذا صحيح؟ منهم يعنى ماذا؟ عدت إلى اللوحة، أحسست أنها تقف حائلا بينى وبينهم، لم أستطع أن أطرد ما يدور بعقلى، يوجد شئ مشترك بينى وبين هؤ ء الناس، من حق صاحب هذا العمل الحقيقى أن يحس به الناس الحقيقيون، أرفض أ يحس بى إ ناقد متحذلق، ترى هل يفهم الناقد نبضى أم أنه يتفرج ليحكم علىّ، بد أن يعرف هؤ ء الناس ماذا أقول، ومن يقول ماذا، فعلا، أو حتى تقريبا؟ هل حقا أريد أن أقول شيئا أم أنه تفريغ والسلام؟ تُرى ماذا أريد أن أقول، يتردد السؤال على لسان هاتف شديد الوضوح، ليس تفكيرا داخليا، صوت كأنه أنا، لكنه مازال بداخلى والحمد لله، يكرر السؤال بحدة أكثر مما خطر ببالى.

تُرى ماذا أريد أن أقول، يتردد السؤال على لسان هاتف شديد الوضوح، ليس تفكيرا داخليا، صوت كأنه أنا، لكنه مازال بداخلى والحمد لله، يكرر السؤال بحدة أكثر مما خطر ببالى.

– ماذ تريد أن تقول فعلا؟

= أعرف.

– ولماذا تريد أن تقول ما تعرف؟

= لأنه يلزم أن يقال .

– من أين أتيت بهذا اللزوم؟

= ماذا أفعل لو لم أقله؟

– وماذا تفعل لو قلته؟

لأول مرة أقف أمام عملى بهذا الوضوح أراجع قيمته ومعناه، كان يخطر ببالى مثل هذا الخاطر، وخاصة حين تثار المناقشات مع أصدقائى القدامى، الثوار منهم والأدعياء، حول قضية الفن والحياة، أو الفن والشعب، أو الفن والناس، كنت أرفض دائما منطقهم، أكثرهم لم يكونوا يعرفون عن ماذا يتكلمون، عن الفن و عن الحياة و عن الشعب،

فى عز وحدتى، ودون تدخل من إرهاب فكرى أو تشويه تشنجى، أواجه المشكلة بشكل شخصى محض، المسائل الشخصية تموع حين تصبح عامة، والمسائل العامة تلح حين تصبح شخصية، متأكد أنا من زيف أغلبهم وادعائهم وإ ما تركتُهم، زيف بعضهم يعنى فساد دعوتهم، كنت دائما أرفض أن يوضع بجوار العمل الفنى أية علامة استفهام، الفن كيان قائم بذاته لذاته يحتاج إلى "لماذا" أو حتى "لمن" فماذا جرى لى بحيث أستطيع أن أرى اللوحة إ فيها الأتوبيس وعليه الناس بعضهم فوق بعض؟ ما هى هذه العلاقة الجديدة التى تفرض نفسها على؟

" الفن لغة خاصة غير قابلة للترجمة، وعلى من يريد أن يتفاهم بها أن يتعلمها، هذا كل ما هناك".

ما هذا؟

بد أن أكمل اللوحة أو، ربما احتاج الأمر أن يمضى عليها اثنان من موظفى الدرجة الرابعة الفنية قبل أن يسمح لى بدخول التاريخ، ربما أصبح الفن يحتاج إلى مكتب تنسيق بعد آن تزاحم المدعون على أبوابه، عجزت تماما عن إكمالها، أجلت المحاولة بضعة أيام، ثم بضعة أسابيع، بدأت أتأكد أن المسألة ليست وقفة عابرة، الديالوج الساخر المتصل يملأ عقلى، أنتقى من ألبوم الذكريات صور أصحابى القدامى الكذابين لأؤكد خواءهم وزيفهم، أستطيع أن أنكر صدق آخرين وكفاحهم.

تركتهم، هؤ ء وأولئك، حين تصورت أن السياسة مهرب خبيث، وهأنذا أكتشف أنه إذا كانوا هم قد هربوا جماعة فأنا هارب "صولو"، هل من وسيلة أخرى للتعبير عن هذه المشاعر الغامرة؟

غيرت مسيرتى قبل ذلك، و أعرف وسيلة أخرى حاليا غير اللفظ واللون، كل الناس كانت تتساءل فى تعجب حين تركت الشعر إلى الرسم؟ هل أرجع إلى الألفاظ لعلها تكون أكثركفاءة وطيبة فتحمل مشاعرى إلى الناس فوق الأتوبيس؟

لأول مرة أقف أمام عملى بهذا الوضوح أراجع قيمته ومعناه، كان يخطر ببالى مثل هذا الخاطر، وخاصة حين تثار المناقشات مع أصدقائى القدامى، الثوار منهم والأدعياء، حول قضية الفن والحياة، أو الفن والشعب، أو الفن والناس، كنت أرفض دائما منطقهم

كانت الألفاظ صديقتى ورهن إشارتى، تطاوعنى حين أصالح بينها وأعيد تنظيمها راقصة أو متماوجة أو مشرعة مثل السيف فى وجه العدم واللامبا□ة، حاولت جادا أن أمسك القلم وأن أدعو الألفاظ للرقص من جديد، استعصت علىّ هى الأخرى وكأنها تعاتبنى لأنى هجرتها إلى الريشة دون إنذار ، كل مرة كنت أهرب فيها من السجن إلى الخلاء، كنت أجرى هنا وهناك طويلا قبل أن أتبين أسوار الخلاء، السجن أرحب لأن أسواره محددة، إ□ أنه سجن على أى حال، انتقلت من الحبس ا□نفرادى فى زنزانة المدرسة إلى فناء فى الجامعة، ثم إلى ملاعب الشعر حيث حققت ما يعرفه الجميع، ضاق بى اللفظ وضقت به، لم يعد يسعف خيالى، كنت أحس أن حروفه تنوء بما أحملها من مشاعر وأحاسيس، عجزت عن كتابة الشعر فتسللت من بين القضبان إلى حديقة الرسم الممتدة إلى غابة الدنيا الواسعة، دنيا الألوان والمساحات عامرة بالحركة والحرية، ظللت أؤلف بينها فى تناغم أرضانى بعض الوقت، أجد نفسى الآن فى وسط الصحراء الكبرى، الأخرى الكبرى، □ شجر و□ ماء، □ ألوان و□ وأصوات، خواء ا□ستغاثة الصامتة أصعب من كل صياح.

أكثرهم لم يكونوا يعرفون عن ماذا يتكلمون، لا عن الفن ولا عن الحياة ولا عن الشعب.

كيف أواصل سعيى؟

قبل ذلك وبعد ذلك:

إلى أين؟

-2-

شتان بين السمع والمعاينة، كنت قد قرأت له بعض ما كتب حتى حسبت أنى أعرفه، يكتب عن الناس الناس، ويهوّن الآمر وكأن الجنون يمكن أن يكون فاتحة عهد آخر، كأنه رحلة اختيارية سعيدة، كنت شغوفا أن أعرف "كيف"؟ هاهى الفرصة تتيحها لى هواجسى التى □ترحم، الواقع الحى أبلغ من كل مقال، □ أنكر أنى أتمتع بالتجربة حتى النخاع، فرصة نادرة للنزهة داخل الإنسان دون استئذان، عادت إلىّ مشاعرى الفنية المتدفقة، لكنها تتجه إلى الداخل، تستوعب كل همسة

أو إشارة، لتكن فترة استقبال وتمثّل من تجارب البشر وهم يتعرون فى غفلة من الزمان فى عيادة طبيب مغامر، هذا الرجل فنان كما قلت لغريب، يعيد صياغة الحياة بطريقة فنية بحتة، خطورة فنه أن مادته من لحم حى، أى لذة تجدها فى هذه اللعبة تجعلك تصبر عليها هذا الصبر، أكاد أعرفك يا عمنا أكثر من نفسك، ما أروعك وأنت تستخرج المشاعر من جوف أصحابها وكأنك تفرغ جراب الحاوى الذى تعرف محتوياته تماما، يا لهفتى عليك حين تفشل مثلى، أعرف أنك فاشل محالة، نحن السابقون، إياك أن تقترب منى فنحن أدرى ببعض، دع وجودى الجسدى واستمرارى فى الحضور يطمئنانك من بعيد، أصفق لك فى السر بعد إخراج كل لقطة تقوم بها، أثنى على لوحاتك الحية بابتسامة خفية، يسر خاطرك حين تبلغك رسالتى فتواصل عملك وأنا أحسدك وأنتظر دورى.

فى عز وحدتى، ودون تدخل من إرهاب فكرى أو تشويه تشنجى، أواجه المشكلة بشكل شخصى محض

سألنى غريب مرة "لماذا أحضر" ، أجبته "إنى أعرف ما أشكو منه" ولم أقل له السر الحقيقى، يستحيل أن أقول له أنى أشكو "منى" أو أنى أعجبت باللعبة وأريد مزيدا من النمر والمفاجآت، أنا فعلا أعرف مالى، ياليتك تعرف يا عمنا، يا أبى أنت وأمى، من بعيد لبعيد، يا ليت.

ياليتك تقول لى ما بى دون أن تدعى علاجى، سوف أظل المشاهد الأمين لك وللوحاتك وتماثيلك طالما أنت تتركنى فى حالى، إياك أن تتخطى وتحاول هذه اللعبة معى وإ فقدتنى وأنت تعلم قيمة وجودى "هنالك"، أنا المتفرج المتميز لمحاولتك المستمرة، كلهم لهم أدوار يلعبونها بمهارة توجيهك يا رجل،.... إ أنا، حتى غريب أتقنت استدراجه من خلال فيضان مشاعر صديقنا إبراهيم الطبيب، كم أحب النظر إلى ملامح هذا الإبراهيم، ضخم فطرىّ فى كل شئ، ملامحه، وعواطفه، وشعر صدره، وكفه المفلطحة وأصابعه المتزاحمة، لم أتوقع أبدا أن يتنازل غريب عن ذاته ولو ثانية واحدة، فما بالك بنصف ساعة ، هذه واحدة "لك"، حسدتك عليها، كدت أصفق حينذاك، حتى عبد السميع ظل مثل جبل

الجليد حتى أغمدت فيه سيفك عن طريق كلمة من بسمة، انطلق صاروخ النار من داخل جبل الجليد وقذف البركان بالحمم فى كل مكان، لو أنى اشتركت فى الإمساك به بيدى هاتين ما صدقت، أخافك أحيانا رغم إعجابى بك، وكثيرا ما حسدتك وحقدت عليك، أوْلى بى أن أرفضك وأرفض تلاعبك بالبشر فى سبيل إرضاء فنك الذى تدعى أنه طب، أنا عجزت عن مثل هذا التلاعب بالكلمة واللون ولم تعجز أنت رغم أن مادتك من البشر الأحياء، تستغرقك قدرتك الفنية فتتلاعب بمادتك الحية فى براعة ويسر، تتحدى عنادها وجمودها وتصنع بها الأفاعيل ولكنك تضيف إليها من عندك إ ما بداخلها، "مِنِّه فِيهْ

"أنا فعلا أحسدك، أحس برغبة فى قتلك حين تبلغ بك النشوة الفنية أن تنحت بأزميلك فى براعم غضة لم تتفتح بعد فترغمها على التفتح قسرا، كدت أصفعك وأنت تلغى ابتسامة "بسمة" الخجلة لتظهر ما وراءها من حزن مُر، دعها يا أخى تنسى بعض الوقت، أتذكر كيف هزمنى اللفظ واللون فى حين تهزمك البلادة و الخوف، أراقبك فى غيظ، هل علمتنى كيف أطوّع مادتى ثانية لأرجع إلى قلمى ومرسمى ثم نكون أصدقاء بعد ذلك؟ لك علىّ أ أفشى سرك، سوف يظل الناس يحسبون أنك طبيب عالم، وسوف أكون تحت أمرك لأشاهد بعض مسرحياتك الحية، ساعدنى الآن حتى أعاود الإمساك بالقلم أو بالريشة ولن أنسى لك فضلك أبدا، النار المجنونة تحرقنى وأنا عاجز، أخشى أ تتركنى إ رمادا يصلح لشئ، أنا أصلح حتى لأتفه دور كومبارس فى لعبتك، نظراتك المغرية المتفائلة تكاد تقسم لى أن هذا ممكن، لماذا تفعل شيئا لى مثل الآخرين، هل تعرف أننى الأصعب؟ هل تريد إذ لى لأطلب أنا؟ أنت تعلم أنى سأموت قبل أن أفعلها، تتركنى الأسابيع الطوال أنتظر تعليقا منك أو ألتقط مفتاحا أعاود به فك الألغاز ولكنك أنانى بخيل، ، لن أخضع لشروطك ولو انطبقت السماء على الأرض، فلألزم مقعدى هذا ولو مدى الحياة دون أن أُمَكِّنُك من أن أنطلق لحسابك، أريد أن أسألك لماذاكل هذا؟ كيف تستمر وعملك محدود بمن يقبل

متأكد أنا من زيف أغلبهم وادعائهم وإلا ما تركتهم، زيف بعضهم لا يعنى فساد دعوتهم

ويتحمل؟ كيف تتحمل تكرار فشلك وهو معلن صريح؟ ، تظل رغم هذا وذاك تحاول بلا تراخ، أنا أحسدك.

أنا توقفت حين سألت نفسى"لماذا"؟ و"لمن"، أمّا سألت نفسك أنت أيضا "لماذا" أو "لمن" ، كيف نجحت أن تهرب من هذه المواجهة، كدت أنفجر ضحكا لما سمعتك تجيب على "ملكة" حين سألتك "لماذا" "فقلت: لأكسب نقودا، ما هذا الكلام يا رجل؟ هل هذا هو الطريق لكسب النقود؟ إصرارك يجعلك تعتقد أنك تعمل شيئا ذا بال، ليكن، هذا ما منحنى هذه الفرصة على الأقل للفرجة على مسرح حى، شكرا، تعيش فى أتيليه البشر العرايا والمعوّقين، تنحت فيهم تجاعيد الألم على وجوه ملساء من الخوف وا□ختباء فى البلادة، أزميلك يحفر فى الوجوه وأنت تتقن تنسيق نسب التضاريس فى الجلود الميته، أكاد ألمحك وأنت تفرح حين تراها تدمى بالرغم من موتها بفعل أزميلك الخشن، أنت □ تبالى وتستمر فى جريمتك "الفنية" القذرة لتفجر من قطرات الدم المتناثرة طاقة هوجاء، لست متأكدا إن كنت تدرى أو □ تدرى ماذا يفعل بها من تفجرت فيه دون استعداد، تظل الطاقة تدفعهم لمواصلة الرقص على المسرح، فقط على المسرح، لم أفهم معنى رقصة الطير المذبوح إ□ فى عيادتك، أعترف أننى لم أرصد فيك قسوة للقسوة، رأيتك وأنت تكاد تموت ألما حين تهمد حركة الطائر بعد ذبحه فيصمت والدماء تتناثر من حوله فى كل مكان، رأيتك تحاول أن تجمع أشلاء الطير المذبوح لتنفخ فيها من روح أحلامك، ماأبشع هذا وأروعه.

يقول غريب عنك أنك نصاب مجنون، حاستى الفنية تعجب بك على شرط أ□ تقترب منى، الخيوط بين أصابعك والمسرح بلا نص، والهدف غامض، وأنا كل جمهورك، أحيانا، بل كثيرا أضبطه يتفرج مثلى، غريب، أنت □ تكف عن المحاولة والسعى إلى □ شئ، الشئ الذى تسعى إليه هو ما يحافظ على استمرارك ، لكنك □ تعرفه، فكرت أحيانا أن هذا هو معنى حياتك، ولكن هل

" الفن لغة خاصة غير قابلة للترجمة، وعلى من يريد أن يتفاهم بها أن يتعلمها، هذا كل ما هناك".

فكرت أنت ماذا تفعل بنا لتحيا؟ ربما عذرك أما نفسك هو أنهم يجيئون بأنفسهم، بمحض اختيارهم، هم يتحملون بذلك مسئوليتهم، □ تنس أنك مازلت تكتب على □فتتك لفظ "عيادة" □ "أتيليه" و□ "مسرح تجريبي"، أنت تشارك فى الخدعة، فلا توهم نفسك أنهم أحرار فى اختيارهم، جاؤوك على أنك طبيب فاعْلِنْ لهم حقيقة موقفك من باب الأمانة إن كنت شجاعا، أنت أغرب وأجرم وأعظم فنان سرى، □ تتحدث من فضلك بكل هذا اليقين عن ا□ختيار إ□ فى غيابى، نضحك على بعض؟ اختيار ماذا يا عزيزى؟ أنا □ أستطيع وقف الإعجاب بك فى كل حال، □ أعرف أين سيذهب إعجابى هذا لو حاولت ا□قتراب منى مثلما تفعل مع الآخرين؟ كل ما يخطر لى الآن هو أنى سأخدعك أول مرة، ثم أنصرف بهدوء إلى غير رجعه حين أشك أننى لم أخدعك بدرجة كافية، أو أنك لم تهمد بدرجة كافية، تعليق الحيرة فأحاوِرُنِي:

–من أنت؟

= أنا أنت.

– لن تستطيع بدون موافقتى.

= سوف أفعلها بعد هذه الإجازة الطويلة،

– جرِّب.

قبلت التحدى، سوف أعود اليوم وأبدأ فى إكمال اللوحة بلا إبطاء، ما هذا الذى يجرى داخلى؟ ليس هاتفا مثل الهواتف العابرة، هو كيان قائم كما يحاول هذا الطبيب أن يصوره ويظهره ويشرحه ويعيد ويزيد حتى يحدده، لو علم أنه جاهز عندى بهذا الحضور □ستعملنى ليبين للآخرين كيف يبحثون فى داخلهم عن مثل ما عندى، أنا متأكد أنه يعرف أنى جاهز، لكنه □ يتعجل لأنه يعرف أنه لن يجدنى / يجدنا بعد أول جولة، أخشى أن أتورط فى المشاركة عند أول إعلان عما بداخلى، لذا فأنا حريص على الفُرْجة طول الوقت، تعلمت مما يجرى أ□ أخاف الحديث مع داخلى فلا أسارع بتسمية حضوره فكرا، أستطيع أن

عجزت عن كتابة الشعر فتسللت من بين القضبان إلى حديقة الرسم الممتدة إلى غابة الدنيا الواسعة، دنيا الألوان والمساحات عامرة بالحركة والحرية، ظللت أؤلف بينها فى تناغم أرضانى بعض الوقت، أجد نفسى الآن فى وسط الصحراء الكبرى، الأخرى الكبرى، لا شجر ولا ماء، لا ألوان ولا وأصوات، خواء الاستغاثة الصامتة أصعب من كل صياح.

أسمح وأشطح وأقبل التحدى دون أن أتهم بالجنون، قد أتعلم كيف أصلح ذات بينى، لو حدث، سوف أنصرف من الباب الخلفى فى أمان و أحد رأى، و أحد درى.

– بعيد عن شنبك كل هذا ما لم تشركنى وتأخذ رأيى.

= ملعون أبوك.

–3–

حاولت فى تحد خطير، عجزت تماما، ظلت اللوحة ناقصة ميتة مشوشة، أمسكت بالقلم أستعيد به أصدقائى القدامى من الألفاظ، أصالحها، أتوسل إليها، أبى القلم وراح يخلط بينها فصنع طبقا من السلطة المبعثرة على ظهر ظرف خطاب وصلنى من الخارج ولم أفتحه، خجلت من نفسى، لعل الذين يكتبون الشعر هذه الأيام يفعلون مثلما فعلت الآن، لو اضطلع أحدهم على ما فعلت لتصور أننى أخلط الشعر بالنحت بالتصوير، العجز له لغته الخاصة فلماذا يأخذونه مأخذ الجد.

لم تسعفنى الفرشاة، وتوقف فى حلق وعيى الشعر، ليكن، سوف أكتب رواية، سوف أكتب ما أعيشه الآن، هذه رواية تستأهل، مادتها جاهزة حاضرة وكل تفاصيلها بين يدى، بدأت فعلا ثلاثة أسطر بالتمام، ثقُلَ القلم فى يدى وكأنه بقايا لغم من رصاص قبيح، نظرت إلى صفحتى البيضاء (لم تكن مسطرة بالصدفة) فشعرت بأنها صحرائى القاحلة، وأنها حريتى المخادِعة، وأنها سجنى السرى، وأنها طريقى إلى المطلق معا.

= المطلق؟ هل حصلت عليه فعلا يا "مختار"؟

– نعم، بلا أدنى شك.... والعقبى لك يا كمال، أنت أقربهم إلى.

= أتأكد الآن من عبث التزام وخداعه.

– أنا حر تماما.

عادت إلىّ مشاعرى الفنية المتدفقة، لكنها تتجه إلى الداخل، تستوعب كل همسة أو إشارة، لتكن فترة استقبال وتَمَثُّل من تجارب البشر وهم يتعرون فى غفلة من الزمان فى عيادة طبيب مغامر

= بلا شكل و أبعاد و وظيفة، و هدف؟!.

– تلقائيتى تعطينى ملامحى.

= من أين تعيش؟

– عندى ما يكفينى.

= وثورتك الداخلية، أين تذهب نارها؟

– ماذا؟!!

= ثورتك الداخلية؟

– الثورة ضد ماذا؟

= ضد الأسوار، والعوائق، والخوف والوحدة.

– ألغيت الأسوار والعوائق، بلا خوف و وحدة.

= وماذا تفعل بالألم؟

– إذا لم تعد تحتاج لشئ، فلا ألم و ثورة.

= ألغيت احتياجك يا مختار؟

– بل استغنيتُ عنه.

= يا سبحان الله.

– هذا ما حدث.

= ولكنك ترسل إشعاعاتك الجنسية تثيرهن بلا تمييز.

– هذا هو اختيارهن، وهذه هى حريتى.

= وهو احتياجك أيضا.

– هو وجودى التلقائى بلا تحفظات.

= ثم ماذا؟

– توجد فى حياتى "ثَمَّ"، كما يوجد "مَاذَا"؟

= يا نهار أسود.

– هذا أنا.

أخافك أحيانا رغم إعجابى بك، وكثيرا ما حسدتك وحقدت عليك، أولى بى أن أرفضك وأرفض تلاعبك بالبشر فى سبيل إرضاء فنك الذى تدعى أنه طب

= وهل يمكن تعميم ذلك على كل الناس؟

– □ يهمنى إ□ نفسى.

= ولماذا أنت هنا؟

– أتأكد من طريقى.

= إذن، أنت تشك فيه.

– لن أغيّره حتى ولو كان هو الهلاك نفسه.

= لم تتكر أنك تشك فيه؟

– ليكن.

= إحذر يا مختار.

– لم أصل إلى هذا بالساهل.

□ أصدق أيا من هذا، لو كان الأمر كذلك فلماذا يحضرمختار؟ شئ ما يطل من داخله يقول □ تصدقنى فلا حرية بلا قيود؟ أنهى مختار القضية قبل أن تبدأ، صدق أنه تخلى عن كل شئ، يعلن إقباله على الحياة بلا شروط.

"غريب" يعلن إدباره عنها بلا أمل، ا□ثنان يشبهان بعضهما البعض بشكل ما، تجنَّبا المعركة بذكاء منطقى، خيبتى أننى يئست من الفن وفى نفس الوقت لم أحصل على الحرية.

أشاهد صراع ملكة وغالى وأشترك فيه أحيانا بحق الزمالة القديمة، أتعجب من العمى الكامل تحت ستار الثورية أو الإخلاص الزوجى أيهما أكذب، □ شئ يغرى بحل بديل، لماذا جاءا إلى هنا دون غيرهما، هل ليؤكدان منطقهما الهارب؟ لماذا لم يأت هنا ثوار حقيقيون يقنعونى بإمكانية الحياة بالصورة التى يلوحون بها للناس؟ أعرف الرد فهم هناك فى الصفوف الأمامية □ وقت لديهم للمرض أو لغيره، نحن الذين نقبع فى الصفوف الخلفيه بعد أن تركنا، أو قفزنا من، قطارالثورة، نحن □ نعرف شيئا عن الصفوف الأمامية وإلى أى مدى وصل بهم القطار، هل يوجد أحد فى المقدمة فعلا أم أن القطار يواصل السير دون ركاب

أنا توقفت حين سألت نفسى"لماذا"؟ و"لمن"، أما سألت نفسك أنت أيضا "لماذا" أو "لمن" ، كيف نجحت أن تهرب من هذه المواجهة

وربما دون سائق بعد أن قفز منه الجميع الواحد تلو الآخر دون أن يعرف أين ولماذا قفز الآخرون؟ أحسن شئ أننى أعرف جوابا.

وجودكما بالذات يا ملكة ويا غالى يشككنى أنه ما زال فى القطار مَنْ صَبَرَ على ما كنا نحلم به، قفزت بعيدا حين شككت فى يقظة السائق وبرمجة الرحلة، تصورت أننى سوف أنشغل بالقلم والريشة لألحق بكم فى القطار التالى، لم يأت قطار تال وانتهيت إلى حيث التقيتكما، يا ليتنى ما التقيتكما، كان أفضل لى اليأس التام أو الموت الزؤام مثل "غريب" وأكثر، حين تختلط مرارة اليأس بخدر ا ستسلام يتخلق ترياق يشفى أمراض الثورة واضطرابات المستقبل.أنت أنْصَحُنا يا غريب، تواظب على تناول جرعات وحدتك المرة بانتظام حتى نسيت مرارتها ، يعادل نصاحتك إ مخدرات "مختار" اللذية، لست متأكدا من مدة صلاحية دواء كل منكما، رؤيتى أحدٌ من كل المخدرات، وثورتى هى التى أصدرت قرار "وقفى عن العمل".

لو أفهم معنى رقصة الطير المذبوح إلا فى عيادتك، أعترف أننى لم أرصد فيك قسوة للقسوة، رأيتك وأنت تكاد تموت ألما حين تهمد حركة الطائر بعد ذبحه فيصمت والدماء تتناثر من حوله فى كل مكان، رأيتك تحاول أن تجمع أشلاء الطير المذبوح لتنفخ فيها من روح أحلامك، ماأبشع هذا وأروعه

حالة مستعصية باختيارى.

على الرغم من كل شئ فإن هذه المسرحية الحية مازالت تبهرنى، لو قدر لى فى يوم من الأيام أن أكتب، فسوف أكتبها بالتفصيل، يخطر على بالى أحيانا أن أحضر جهاز تسجيل أحتفظ عليه بكل ما يجرى، أكتفى بالتسجيل الدائر داخلى، المفاجآت رائعة تهز كيانى وتزودنى بمادة مثيل لها، لم أكن أتصور أن غريبا المتحفز الحذر يمكن أن يسمح لنفسه بهذا ا ستسلام ولو جزءا من لحظة، ولكنه استطاع – بملاحقة إبراهيم وفى حضن المجموعة – أن يتخلى عن يأسه وعدمه وسخريته، استطاع أو اضطر النتيجة واحدة، كان رائعا مرعبا ما حدث، كأن الدنيا يمكن أن تتغير فى لحظات، لماذا رجع غريب بعد كل هذا التفجر المضىء أكثر يأسا وشكّا وابتعادا؟ لم يبق له من التجربة إ نظراته الملهوفة إلى إبراهيم، وإلىّ أحيانا،

غريب هو الذى حاول أن يفتح معى حديثا يشككنى به فيما يجرى ولم يدر أنى أكثر منه توجسا، وأن رفضى أكبر من رفضه ألف مرة؟ لم أفهمه حين تكلم معى عن إحساسه الفج الذى يميز رغم يأسه وضياعه، لم ألتقط موضوعه، كان غامضا فاستوضحته حتى دعانى إلى بيته.

أفكر جادا فى زيارته.

-4-

التراب والظلام والكتب، بيت هذا أم كهف أثرى؟

= نفتح النافذة قليلا يا غريب؟

– لماذا؟

= أ تحب النور؟

– هذا الضوء أقرب إلى الواقع، ومع ذلك كما تشاء، أنا اليوم ملكك.

= ماذا تعنى؟

– أحبك يا كمال، هذا هو.

= شكرا، ولكن نظراتك غريبة ولهجتك لم أتعودها، أكاد أنكر أنك زميلنا هناك.

– هل تعرف الحب الذى أتحدث عنه؟

= كلنا نتحدث عن الحب بمعان جديدة وخاصة تماما، هذه بضاعة صاحبنا.

–.....أشعر بالسعادة فعلا بجوارك.

= أسمعك تستعمل كلمة السعادة لأول مرة.

– أنت تفهمنى وتقدر يأسى وحذرى أمامهم هناك، أما هنا.

= كنت أود أن أفهمك أكثر ولكنى الآن متردد تماما، ومرتبك أيضا.

– منذ ذلك اليوم، يوم أن خرجت أتجول من سجنى بينكم وأنا أحاول أن أطفئ النار التى اشتعلت، نجحت فى إخماد كل الجمرات التى نفختم فيها إ جمرة واحدة تدفعنى إليك وإلى إبراهيم.

لا تنس أنك مازلت تكتب على لافتتك لفظ "عيادة" لا "أتيليه" ولا "مسرح تجريبي"، أنت تشارك فى الخدعة، فلا توهم نفسك أنهم أحرار فى اختيارهم، جاؤوك على أنك طبيب فاعْلِن لهم حقيقة موقفك من باب الأمانة إن كنت شجاعا.

=...أنا أثق فى إبراهيم.

– ولكنى قدرت أنه لن يفهم مشاعرى هذه.

= لعلك اكتشفت الآن أنى مثله أكاد أفهم ما تقصد أو تريد.

– ترددت ألف مرة قبل أن أفاتحك بحبى.

= .... حبك هذا، "هكذا" يربكنى.

– أريد أن تجرب السعادة معى فالصدق هنا أضمن، أريد أن أقدم لك شيئا.

طرق الباب طرقة منغمة فارتاع "غريب" وأنطفأ وجهه وصمت فيما يشبه اليأس ثم التفت برأسه سائلا، وأنا مازلت مرتبكا:

= هل أفتح؟

– لم ...؟ هذا شأنك

= إنها "صفية" أعرف طريقة نقرها الباب، هل تريدنى أن أفتح؟

– تتحدث عنها وكأنى أعرفها، هذا شأنك، يا غريب.... تفتح، تفتح، أنت حر.

قام متثاقلا يجر خطاه دون أن أفهم ماذا يريد على وجه التحديد، على أنى كنت قد بدأت أحس برائحة الخطر من خلال نظراته الجائعة المستجدية، أواجه تحديا بد وأن أكسره، دخلتْ صفيه تطرقع باللبانه، قدمنى "غريب" لها على أننا أصدقاء.

قالت وهى ماضية إلى الحجرة الداخلية وكأنها تسير فى بيتها ونحن الضيوف

– نادرا ما أرى عندك أصدقاء يا غريب وهذا ما يشجعنى على الحضور دون إنذار، لم أقابل عندك أحدا منذ لقائى بجارك عبد السلام الذى كان يبحث عن الله وكأنه نسيه عندك بالأمس، كان دمه خفيفا وإن كان لم يحبنى كما يجب.

استمرت فى حديثها وصوتها يعلو كلما ابتعدت حتى اختفت فى الحجرة مع صوتها.

قال غريب فى ود يخفى ضياع فرصة ما:

تعلمت مما يجرى ألا أخافه الحديث مع داخلى فلا أسارع بتسمية حضوره فكرا، أستطيع أن أسمع وأشطح وأقبل التحدى دون أن أتهم بالجنون، قد أتعلم كيف أصلح ذات بينى، لو حدث، سوف أنصرف من الباب الخلفى فى أمان ولا أحد رأى، ولا أحد درى

= صديقة حقيقية، أصدق من شلة المخدوعين الذين يتلمسون مبررا لعجزهم عند صاحبنا شيخ الطريقة.

– حضورها أتاح لى الفرصة لأعرفك أكثر.

= .... بل هى فرصة لتجهل ما بى أكثر، هى إنسانة بحق، قلبها كبير وتحب كل الناس، هذه هى مهنتها الشريفة بلا أسماء طبية زئفة.

= كنت أحسبك تهتم بهذه الأشياء.

–... لى طريقتى الخاصة، ولكنى أجرؤ على الحديث عنها.

= تبدو صاحبتك رقيقة رغم فجورها المصطنع.

– أنت تفهمنى، لعلك تريدها الآن، هى لك إن شئت.

= شهيتى ضعفت هذه الأيام، وإن كان حب المغامرة يتحرك فى داخلى من جديد، ثم إنها تبدو أرق مما تقول.

– ليس فى الأمر مغامرة، المغامرة هى أن تستمر فى شىء، أما هذه العلاقات المؤقته فهى من أصدق العلاقات الموجودة فى عصرنا المظلم الكئيب.

= أ تجد فى ذلك جرحا لإحساسك، أو إحساسها.

– يسعدنى أن تسعد معها، أو أن تسعدها، هذا يعوضنى أيضا خيبة أملى.

= ... مازلت غير فاهم.

– ما عليك، هذا شأنى، أنا أعرف طريقى.

أُبْعِدُ فكرة الشذوذ متى خطرت ببالى رغم وضوح الرؤية بعد هذا النقاش الذى اقترب من الصراحة المباشرة، حضرت صفية ففرحت حتى أتمادى فى الشك، ربما استغرقتنى المغامرة الجديدة، كانت تلبس إحدى بيجاماته المخططة فبدت شهية فعلا دون تصنع، تَرَكنَا غريب فى هدوء سعيد غامض.

= إسمى كمال.

– ذاكرتى قوية، أستعملها فى الكلام الفارغ.

= ماذا تعنين؟

أمسكت بالقلم أستعيد به أصدقائى القدامى من الألفاظ، أصالحها، أتوسل إليها، أبى القلم وراح يخلط بينها فصنع طبقا من السلطة المبعثرة على ظهر ظرف خطاب وصلنى من الخارج ولم أفتحه

– مازلت أذكر عبد السلام جاره، وأذكر تساؤ□ته، هل تعرفه؟

= نعم.

– أمره عجيب هذا الرجل ، هل أنت مثله؟

= هناك تشابه دائما، فى بعض الأمور على الأقل.

– أحب مهنتى هذه لأننى أعرف من خلالهاالناس ظهرا لبطن.

=... صفية! فيلسوفة أنت؟

– فى ماذا؟ اسم الله عليك.

= حدثينى.

– يا عينى عليهم، أمر الرجال هذه الأيام عجيب، يحلون شئون الكون من فوق إلى تحت مع أن الطريق السليم هو البدء من تحت لفوق، يبدو أن هذه الشقلبة المزعجة هى التى أوصلت غريب إلى الخيبة التى هو فيها.

= أية خيبة؟

– لن أتركه لشقائه.... أنا وراءه والزمن طويل.

= أنا أصدقك، هل أشكرك؟

–... أنا أحبه..

= وهو.؟ هل يحبك؟

– طبعا.

= آسف □جترائى على التواجد بعد ذلك،

– عندك، إكرام الضيف واجب، □ تفعل مثل جاره "عبد السلام" الباحث عن الله فى صرة الكون.

= وغريب؟

– غريب يتشاجر معى إذا فشلت مع ضيوفه، يقول إن فشلى يضاعف فشله.

= الأمور تعقدت.

أتعجب من العمى الكامل تحت ستار الثورية أو الإخلاص الزوجى أيهما أكذب

– بل هى أبسط مما تتصور، هيا بنا.

= أخجل من رغبتى هنا هكذا رغم أنها موجودة.

– □ تكن مثل العيال المبتدئين.

-5-

انقطع غريب عن الحضور إلى المجموعة بعد عدة مرات وحسنا فعل، لم يفاتحنى بعد الزيارة فيما حدث، ولم يعاود دعوتى أو الحديث معى حتى أحسست بعبء حقيقى، كان يتعمد الجلوس بحيث □ تلتقى عيوننا، بدا يائسا، منهكا خائفا وحيدا، أنا متأكد أنه بابتعاده سوف يجمع شتات نفسه كما اختار ورضى، تجربتى مع صفيه أنارت فىّ مشاعر جديدة لم أعهدها من قبل، كانت صادقة واضحة طيبة، أصرت على أ□ تعطينى عنوانها رغم إلحاحى، فكرت فى الذهاب إلى غريب لعلى أقابلها مصادفة من جديد، ولكنى خفت أن يسئ فهم ذهابى لأسباب أخرى تتعلق برغبته فى شخصيا، ثم إنها □ تذهب هناك إ□ مصادفة كما قال، أعادتنى تجربتى معها من إجازتى العاطفية وبدأت حواسى تتحرك وإن كانت بشكل مختلف، نجوى تتفتح كل يوم أكثر وأكثر، وفردوس تذكرنى بالحريم المتخصص لشئون السرير حتى أكتم ضحكى وهى تتحدث عن التطور، وأحيانا ما تردد كلمة الثورة وكأنها تتكلم عن السكر والليمون اللازمين لصنع الحلاوة اياها، أما "بسمة" فإنى □ أراها إ□ ويضع خيالى فى يدها كوب شاى باللبن، إصلاح فاضل .... تلميذة شيخنا المجتهدة، استحوذت على فكرى وحسى أغلب الوقت منذ لقائى "بصفية"، هى دائمة الصمت والنظر والتأمل، جادة ا□ستجابة إذا أشار لها أستاذها بالمشاركة، تلميذة ومريدة ومساعدة من الدرجة الأولى، أشعر أنها تقدِّس أستاذها رغم اختلافها عنه وشجارها معه فى كثير من الأحيان، لماذا تذكرنى بصفية باستمرار، ترى هل هى السمرة أو الملامح المحدودة أم شئ آخر، ترى هل عندها قدرة عطاء صفية، إنهما تشتركان فى البساطة والوضوح، صفية تبيع بضاعتها بشجاعة نادرة، ولكن ما هى بضاعة إصلاح على وجه التحديد؟

لماذا لم يأت هنا ثوار حقيقيون يقنعونى بإمكانية الحياة بالصورة التى يلوحون بها للناس؟ أعرف الرد فهم هناك فى الصفوف الأمامية لا وقت لديهم للمرض أو لغيره

– نعم.

= تأخر الأستاذ، فهل تسمحين أن نتبادل الحديث حتى يحضر.

– طبعا.

= أبحث عن الطب فيما يجرى فلا أرى إ فنا مسرحيا من الدرجة الأولى.

– الطب فن على أى حال.

= نعم؟ ... ولكن.

– المناقشات النظرية تبعدك عن ذاتك.

= أشاهد أستاذك وهو يشرِّح اللحم الحى، وأحس أنى أمام نحات عظيم.

– ريشتك الساخرة تعطلك.

= نعم؟ ، نعم؟

– أتابع فرجتك وسخريتك طول الوقت.

= الرد خالص، أنا أيضا لى القدرة على متابعة ما يجرى فى الداخل.

– أعرف ذلك.

= أرفض أن أكون صخرة فى أتيليه جاهزة للتشكيل على مزاج طبيب قلق وحيد.

– هذا يتوقف على التزام الطبيب.... وليس فقط على مزاجه.

= فماذا عن التزامك أنت؟

– التزامى؟ التزامى هو بعالم عادل سعيد.

= هذا حلم مستحيل، كيف تسوِّقانه مع أنكم مختصون بعلاج الإفراط فى الحلم.

– أحلم إ بقدر ما أستطيع، وإن كان الأستاذ يقول إنى أبالغ فى أحلامى وفى تقدير قدراتى، هذا من أهم نقاط الخلاف بيننا.

= أستاذك غامض ومتناقض، هذه بعض صفات الفنان القدير على كل حال.

نحن الذين نقبع فى الصفوف الخلفيه بعد أن تركنا، أو قفزنا من، قطارالثورة، نحن لا نعرف شيئا عن الصفوف الأمامية وإلى أى مدى وصل بهم القطار، هل يوجد أحد فى المقدمة فعلا أم أن القطار يواصل السير دون ركاب وربما دون سائق بعد أن قفز منه الجميع الواحد تلو الآخر دون أن يعرف أين ولماذا قفز الآخرون؟

– يحاول أن يجذب أقدامى إلى الأرض باستمرار، وحين أقاومه أكاد أتمزق من قسوة واقعيته.

= تكملينه.

– نتشاجر كثيرا.

= وتحبينه؟

– أستاذى.

= بل أكثر.

– أحبه، وأحبك.

....=على ما قُسِمْ.

– أعنى ما أقول.

....=والباقين؟

....–والباقين كذلك.

= سبيل للعطاشى؟ لعل هذا هو وجه الشبه بينك وبين صفيه.

– مَنْ صفيه؟

= صديقة قابلتها عند غريب، بضاعتها جاهزة، وذاكرتها ضعيفة، و تحب كثرة الكلام.

– كلامك يغرينى باحترامها.

= ... صِدْقُها بد وأن يرعبك.

– هل غامرت فنظرت فى عمق آمها.

= هل تعرفينها؟

– أراها فى عينيك وأنت تتحدث.

= جسدها أصدق من ألفاظكم.

... –صرخة احتجاج تنبهنا إلى ضياعنا فى الكذب.

قفزت بعيدا حين شككت فى يقظة السائق وبرمجة الرحلة، تصورت أننى سوف أنشغل بالقلم والريشة لألحق بكم فى القطار التالى، لم يأت قطار تال وانتهيت إلى حيث التقيتكما

=.... صدقها يوقظ إحساس أى ميت.

– ... أرجوا أ تخنقه جرعات الألم التى تكتمها.

= تلميذة مجتهدة أنت، تعيدين كلام أستاذك ، أتقنتِ الحدْس مثله، كأنك رأيتها.

هذه المرأة حكمتها مخيفة، عالمها الفاضل مرعب، تتحدث عن ألم صفية وتنسى ألمها هى، سأحافظ على علاقتى بها عن بعد، ملكة وغالى يتركانى فى حالى، غالى يتهم ملكة بكذب إدعاءاتها الثورية، وفى نفس الوقت يحاول أن يقنعنى بالعودة إلى هذه الشعارات، ثم هو يرجع إلى حضنها مستسلما بعد كل جولة، حاولت أن أقنعها أن تركز على المحافظة على بيتها، كنت قاسيا، يبدو أنها أذكى منى، تعلم أن هذه المبادئ هى السبيل الأقرب إلى قلبه، زمان كان الطريق إلى قلب الرجل هو معدته فأصبح الطريق إليه: مجلات الحائط وتبادل نياشين الثقافة، سمعت ملكة مرة وهى تشير إلى عنوان مقال فلسفى بطريقة ذكرتنى بقيس وهو يشير إلى القمر حتى تراه ليلى، الصور تختلف، والمصيبة واحدة، والعاقبة فى المسرات.

حين تختلط مرارة اليأس بخدر الاستسلام يتخلق ترياق يشفى أمراض الثورة واضطرابات المستقبل.

أين أنت يا صفيه يا أصدق الجميع؟ لو عرفك غالى لغير رأيه فى المبادئ والنساء، غالى يحاول أن يسترجعنى بأن يذكرنى بفشلى فيما ذهبت إليه، كنت قد تركتهم معلنا أن الفن هو الحل الحقيقى الذى سيوقظ الناس دون كذب، وها أنذا أحس برائحة الشماته، غالى يتابع توقفى وعجزى.

– هل رأيت كيف توقفت حين واجهتَ حقيقة هربك؟ هل صدَّقت أن الفن ليس حلا؟

= ولكنه قد يمهد للحل يا غالى.

– إذن لماذا توقفت؟

= أعيد النظر.

– لعلك تفكر فى الرجوع إلى النضال معنا.

= غالى، تذكر ما تقوله لزوجتك ليل نهار.

– فشل حلك الفنى يجعلنى أتمسك بالحل الواقعى مهما كانت عيوبه، وأنت تعرف أنى غير مقتنع بما أقوله لملكه، أنا أحمى نفسى من الصوت العالى.... ولكنى مُصرّ.

= إصرارك يا غالى يطمئننى... قد يكون هربا من المواجهة الحقيقية.

– والفن أيضا هرب.

= الفن زم لصنع الثورة.

– ولكنه قد يؤجلها أو يجهضها.

=.... بل يمهد لها ويرسمها.

– فلماذا توقفت؟ ، إن توقفك هذا يدل على أن الفن لم يستوعب طاقتك، الفن رمز بديل عن الحياة، وهو يفرغ الطاقة فى نشاط جانبى... فهو مرحلة بد أن نتخطاها.

= أين تريدنى أن أفرغ طاقتى إذن؟ صفية تعرف الجواب أكثر منك ومني.

– مَنْ صفية؟

= عليك، ماذا تقترح؟

– الثورة.

= ثورة... بلا ثوار؟ الثوار يصنعون الثورة، لكن الثورة تصنع الثوار.

– تتخلى عن ثوريتك، ثم تسأل فى سخرية عن الثوار.

= كنت أتصور أنى أساهم فى صناعتهم بالفن.

– وهأنت قد فشلت.

= فى إجازة يا أخى.

– إجازة قد تطول بلا نهاية،

= إسمع يا غالى، أذكّرك مرة أخرى بما تقوله لملكة،

– أحاول أن أقنع نفسى من خلال إقناعك.

يا عينى عليهم، أمر الرجال هذه الأيام عجيب، يحلون شئون الكون من فوق إلى تحت مع أن الطريق السليم هو البدء من تحت لفوق

= أنا لم أذهب عنكم وعن المكافحين المزعومين إ حين تأكدت أنها لعبة مضحكة، نهرب فيها من ذواتنا،

– ماذا تقترح؟

= نبدأ من جديد؟

– مثلما يتصور هذا الطبيب أنه يجدد البدايات ليطلق لتطورنا العنان.

= هو ملبوس بحكاية التطور هذه، دعه جانبا فكل فضله أنه جمعنا تحت مظلة وهمه، أما ما يخرج من ذلك فهو اللاشئ نفسه، حتى الإشراقات الجادة، هى تضئ وتنطفئ مثل الألعاب النارية.

– تيأس يا كمال مثل غريب.

= لست يائسا ولكنى أتابع ما يجرى هنا، وما تتكشف عنه النفوس، جزع بشع، أحد "يريد" أو "يستطيع" أن يقترب من نفسه لتحمل مسئوليته ومسئولية الآخرين.

أرفض أن أكون صخرة فى أتيليه جاهزة للتشكيل على مزاج طبيب قلق وحيد

– هنا نوع خاص من البشر، مرضى يحضرون للعلاج.

= أحلم بمصنع للثوار أفضل من هذا، ومع ذلك فها أنت ترى صعوبة العملية.

– لأنها حل فردى.

= الثورة هى إطلاق الإحساس الصادق على أرض الواقع، دون هرب أو التواء، وأظن أن بعضا من هذا يجرى هنا.

– بدأت تؤمن بالعلاج؟ هذا مهرب فردى واضح، وأنت سيد العارفين.

= الحل الجماعى يصلح لمن ليس على خشبة المسرح، ويا ويل من يلبس "المزيكة".

****

غالى يحاول أن يستيقظ.

ملكة تقف له بالمرصاد.

خوفها يحيطه من كل جانب، وهى تصر على أن تقطع أى نقاش جانبى ليست هى طرفا فيه.

يأسه يتزايد وتسليمه أصبح وشيكا.

***

– يبدو أنه حل ياكمال.

= نهتف بحياة غريب إذن، وننصبه زعيما لفرقة العدم.

– أحيانا يخيل إلى أن قوانين الدنيا ستختل لو وجدنا الحل.

= سر الحياة أنه ليس هناك حل.

– لو سمعتنا ملكة لأغمى عليها جزعا وكمدا.

= طيب، وأنا.... ماذا أفعل لو لم أرجع لفنى؟ قد ترجع أنت لملكة أما أنا فأين أذهب؟

– على فكرة ملكة حامل.

= هكذا تعودان إلى الصف يا باشوات، وسوف تعيشان فى التبات والنبات، وتخلفان "صبيان وبنات".

– فكرت فيك وأنا أعاود نشاطى الأزرق مع بسى القمصان الموسيقيين العرب على أنغام صديقنا الشيخ وصاحبه.

= تنصحنى بالبحث عن الحل فى غيبوبة الدخان الأزرق.

– أنت فنان، وإن كان ثمة نهاية فلتكن سرية ولذيذة.

= هرب رشيق، ياه!!!.

– فرق بين الهرب الرشيق والهرب البشع.

يبدو أن استمرارى فى الذهاب سيصبح مبررا لتوقفى النهائى عن كل نشاط، شيخ المخرجين هذا يدعو إلى مواجهة مرة قاسية، فأزداد يقينا أن الفن فى هذه المرحلة يبعدنى عن الناس، ولكن اقتراب من الناس هكذا مغامرة غير محسوبة، لو كان كل الناس مثل صفية لهان الأمر، ولكن من يدرينى كيف تتغير لو

فلماذا توقفت؟ ، إن توقفك هذا يدل على أن الفن لو يستوعب طاقتك، الفن رمز بديل عن الحياة، وهو يفرغ الطاقة فى نشاط جانبى... فهو مرحلة لا بد أن نتخطاها

استمرت علاقتها بواحد فقط فترة كافية؟ إصلاح تزعم أن ألم صفية هائل، وأن صدقها يفيد، فما الذى يفيد إذن يا حضرة التلميذه المجتهدة، لم تعطنى أى ضمان، أنت – برغم أنى أحبك– و أستاذك، رغم أنى أنحنى لمهارته ولعبه بالبيضة والحجر.

****

انقطعت عن الذهاب منذ شهور وقررت أن أواجه مصيرى دون مسكنات أو خداع، ليكن ما يكون ، أندم أشد الندم على ذهابى هناك من أصله.... علمت وتعلمت ورأيت وفهمت وأحسست، كل ذلك كان أكثر مما ينبغى، ماذا ينبغى؟ لم أعد أستطيع أن أتصنع الحيرة أو أتمتع بالضياع، فما بالك لو أكملت الرؤية فعرفت كل شئ؟ ياخبر أسود.... إذن سوف يموت فىّ كل شئ تحت دعوى الصحة "آخر موديل".

بداخلى بركان هائج لم أسمح له بأن يرى الخارج إ من خلال ثقب إبرة الفن، أفتح هذا الثقب ليصبح بوابة تنفذ منها الصور والألحان، حين زاد الثقب ليهدد بأن يكون بوابة رأيت الوضوح واليقين فى متناول يدى فأصابنى الشلل، حضرت إليه على أمل أن نتفاهم فإذا به يحاول أن ينحتنى فى مرسمه بما يراه مناسبا، الله يخرب بيتك أيها الحرفى المجرم، النحت فى كيان البشر فاق كل محاو تى السابقة، تغرينى مهارتك وحيوية مادتك أحيانا أن أتمنى أن أمتهن مهنتك؟ هل يكون هذا هو السبيل الباقى أمامى؟

ما فائدة الرؤية إن كانت تزيدنى عجزا؟ كيف أغلق الآن هذه البوابة المفتوحة؟

 أومن– ياسيدنا الشيخ – بحل تعرضه من عندك، حل أظن أنك أنت شخصيا تعرفه، ومع ذلك تغرينا به.

ليس لدىّ شخصيا حل، وأرفض أن أعايش الحيرة القديمة بعدما رأيت.

بداخلى بركان هائج لم أسمح له بأن يرى الخارج إلا من خلال ثقب إبرة الفن، أفتح هذا الثقب ليصبح بوابة تنفذ منها الصور والألحان، حين زاد الثقب ليهدد بأن يكون بوابة رأيت الوضوح واليقين فى متناول يدى فأصابنى الشلل

ثورة... بلا ثوار؟ الثوار يصنعون الثورة، لكن الثورة لا تصنع الثوار.

تغمرنى أجوبتك الجاهزة التى تضعها على ألسنتهم دون أن تنطق، تغمرنى مثل خراطيم المطافئ فتموت النار وأفرغ من الطاقة.

ألعن اليوم الذى رأيت فيه وجهك.

 يا إصلاح يا فاضل، لن أرجع خوفا منك أنت بالذات.

خربتَ بيتى يا رجل.

ماذا أفعل الآن؟

السبـــت 07-07-2018

العدد: 3962 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل السابع "عبد السميع الأشرم" رواية "مدرسة العراة"

العمر يتسرب من بين يدى وأنا أريد أن أكمل نصف دينى وأتزوج، أمعائى تثور على أكثر كلما فكرت فى الزواج

أنا مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره، هذا الذى تسميه استسلاما هو الإيمان بالقدر.

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" (1) تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط".

وهذا هو الفصل السابعصورة عبد السميع الأشرم "عبد السميع الأشرم"

-1-

سألت الممرض وأنا خارج هذه المرة: فأجابت:

= هل أحضر أيضا المرة القادمة؟".

- مثلما قال الدكتور.

= لم يقل شيئا.

- تحضر حتى يقول.

= فى نفس الميعاد؟

- فى نفس الميعاد.

= حاضر،

ما دخل "اضطراب أمعائى" بما يجرى هنا وما يقال؟، لو أن الطبيب

الباطنى هو الذى نصحنى بالحضور نصرفت من أول مرة، هذه زحمة ألفاظ، وفرقعات مشاعر، وتمثيل، وأنا فيها مثل الأطرش فى الزفة، يصل إلىّ إ هرجلة متداخلة، أنتظر أن يأتى علىّ الدور، وهو يأتى ابدا، أحضر باستمرار، وفى نفس الميعاد حسب التعليمات.

العمر يتسرب من بين يدى وأنا أريد أن أكمل نصف دينى وأتزوج، أمعائى تثور على أكثر كلما فكرت فى الزواج، حين عجز الأطباء الباطنيون عن مداواتها أرسلونى إلى هنا وأنا أعرف ماهو نصيبى من هذا الذى يجرى، ما هو ذنبى أنا فى ذلك كله، أواظب على الحضور فى انتظار تعليمات الطبيب، وفوق كل ذى علم عليم، الوحيد الذى يمكن أن أفتح له قلبى هو إبراهيم الطيب، أنا مؤمن أن لله حكمة فى كل هذا، والمؤمن مصاب، إبراهيم يذكر الإيمان فى حديثه بين الحين والحين، هو ابن حلال، أشعر أنه يعرف أكثر مما يقول.

= سمعتك مرة تقول يا إبراهيم إن الإيمان هو الحل.

– بلا شك.

= أظن أن ما يجرى هنا ليس له علاقة بالدين.

– أى دين؟

= إن الدين عند الله ا سلام، هل تشك فى هذا؟

– ا سلام هو دين الفطرة، والفطرة فى كل دين.

= ما علاقة ما يجرى هنا با سلام؟

– نحن نبحث هنا عن حقيقة الفطرة السليمة.

= لم أحظ أن أحدا يبحث عن ذلك أمامى.

– أنت تريد أن تلاحظ أى شئ يا عبد السميع، أنت تنتظر الوحى من الطبيب، من الله، و منك.

= أنا مؤمن، ومع ذلك فإن أمعائى تؤلمنى وتنغص على عيشتى، وتحول دون أى متعة، هى تمنعنى حتى من الزواج.

يعجبنى فيك أنك تحفظ كلام الله وتستشهد به.

– كلام الله ليس للاستشهاد، هو فعل ماثل، أنت مسؤول عما أنت فيه

لا إله إلا الله يا أخي!!.

– التوحيد الحقيقى مدخل الحرية الحقيقية

– لستَ مؤمنا كلك يا عبد السميع.

= استغفر الله، من كَفَّر مسلما فهو كافر.

– أنا أكفرك، ربما أكفر أمعاءك.

= تسخر منى، أنت تعلم ما بى، كيف تكون الأمعاء كافرة يا أخى بالله عليك؟

– إسألها.

هذه مسخرة، كيف يكون المرض كفرا؟، المرض ابتلاء، ماذا يقول هذا الإبراهيم؟، حسبته قانتا جادا فإذا به يتندر على دين الله، أستغفرك ربى وأتوب إليك، ما الذى أوقعنى هنا؟، وما الذى يمنعنى من التوقف عن المجئ مادامت أمعائى تتحسن، وما دام الطبيب يسأل فى؟ من أسأل؟ هل أستشير طبيبا آخر؟ أحيانا يخيل إلى أن أمعائى تتكلم بهذا الألم فإذا سكتت أحسست أن دوامة تدور فى عقلى حتى أكاد أفقد توازنى، بد أن هناك علاقة ما بين هذا وذاك، رضيت أن أحضر رغم عدم اقتناعى الظاهرى، شئ ما يدفعنى للحضور غير أمعائى، أحس بالرغم من كل شئ أن لى دورا آخر فى هذه الحياة يحول بينى وبينه إ هذا الألم المستمر، أعتقد أحيانا أن هذا الدور هو "الزواج" لأزيد من ذرية المسلمين حتى يتباهى بهم الرسول صلوات الله عليه يوم القيامة، من يضمن لى أن ينشأوا مسلمين والفساد مستشرٍ هكذا؟ بد أن يزول الفساد أو، علىّ أن أساهم فى أن يزول الفساد حتى ينشأ أو دى مسلمين، كيف؟ بد من أن يخبرنى الطبيب كيف أتخلص من هذه الآ م حتى أتفرغ لتنفيذ ما أعتقده، أمعائى تمنعنى، ليس أمامى إ الصبر، حتى الممرض يرد على أسئلتى بنفس الطريقة.

= لم يقل لى الطبيب شيئا هذه المرة.

– سوف يقول عندما تحين الفرصة.

= نفس الميعاد؟

– نفس الميعاد.

.... وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء.

= من أين لك كل هذا؟

– من كتاب الله.

= كأنك تحفظه

هل تعرف معنى إحساس شاب طفل وحيد ضائع ضائع ضائع؟، يرفض كل المسلمات ويرفض كل التقليد ويرفض التصريح ويرفض العبث ويرفض الرفض، تريدنى أن أوقظ إحساسى لأرجع إلى هذا العهد القاسى الظالم الساحق، إحساسى الآن مستقر آمن

= حاضر.

– 2 –

– حاضر حاضر؟، ما هى الحكاية يا عبد السميع، ألن تتعلم كيف تقول ولو مرة واحدة، أين إيمانك الذى تختبئ وراءه؟، أين أنت؟

= ماذا تريد ياإبراهيم؟

– تتحدث عن الدين و أرى إ شحوبك وخوفك.

= أفهمك.

– أحس أنك تذل نفسك بلا مناسبة، أحس بامتهان الإنسان فيك وأنا أراك مرتعدا فى انتظار أى لفتة أو تعليق.

= أنا لست خائفا، أنا مريض والطبيب يعالجنى وأنا رهن تعليماته.

–..... نسيت نفسك يا عبد السميع بشكل بشع.

= ماذا تعنى؟

– أعنى ما قلت.

= ماذا تريد منى؟

– أكره مذلتك، كأنك تذلنى أنا أيضا، تذل نفسك فقط.

= مالك أنت؟ ثم بأى حق؟

– بحق حبى لك.

= هذا من فضل الله.

– أنت تعرف فضل الله .

= عندك يا رجل، أنا مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره، هذا الذى تسميه استسلاما هو الإيمان بالقدر.

– لم يخلقنا الله آ ت خرساء، أنتَ لستَ هنا من أصله يا عبد السميع.

= لماذا أنت عنيف هكذا يا إبراهيم؟ أنا أخاف منك، أخشى اقتحامك.

– أستأذن الناس لأحاول معهم.

خوفه كصيب من السماء يا إبراهيم، ما دمت تتكلم بالكتاب والحكمة، فيه ظلمات ورعد وبرق، لمّا أظلم على لم أقم من كبوتى، وضعت رأسى تحت جناحى مثل مالك الحزين حتى لا أرى شيئا ونسيت كل ما كان

سوف أشنق بحبل من أمعائى على منصة الضلال الذى تعيشون فيه جميعا، جئت أشكو من أمعائى فإذا بى وسط جماعة من المنحلين الكفرة.

= تحاول ماذا يا رجل؟، كفَّرت أمعائى، وتكاد تكفرنى، وتقول تحاول، هل بيدك مفاتيح جنة خاصة؟، بأى حق يا ابراهيم؟

– بحق غيظى منك وحبى لك، أنت أعمى يا عبد السميع، أعمى ؟، بل على قلوب أقفالها.

= يعجبنى فيك أنك تحفظ كلام الله وتستشهد به.

– كلام الله ليس للاستشهاد، هو فعل ماثل، أنت مسؤول عما أنت فيه.

= أنا لم أمرض بخاطرى،

– إنى أخجل من امتهانك لما كرمك الله به.

= □ إله إ□ الله يا أخي!!.

– التوحيد الحقيقى مدخل الحرية الحقيقية،

= □ راد لقضاء الله وأنا صابر.

– رجعنا للاستسلام.

= أنت تئِسُنى يا إبراهيم.

–.... وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء.

= من أين لك كل هذا؟

– من كتاب الله.

= كأنك تحفظه.

– لونك كالموتى يا عبد السميع

= وهل أنا مسؤول عن لونى الميّت أيضا؟

– نعم.

= دلنى على الطريق يا أخى إن كنت تعرفه بهذا الوضوح.

– □ يموت إنسان مِثْلك بالصدفة.

= أنا □ أفهم شيئا سوى أنى مريض.

– فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا.

رجعت إلىّ هواجس المراهقة دون إنذار، كنت قد استرحت بعد تلك الخبرة التى أجابتنى عن كل الأسئلة

أتانى اليقين لحما ودما؟، سوف أذهب لأزداد إيمانا حين أواجههم واحدا واحدا بكل أسلحة الدين والحرام والحلال

= كأنى متهم بـالمرض!!

– بصراحة أنا أشك أنك تقرأ القرآن مهما ردده لسانك.

= ترعبنى يا ابراهيم.

– تخشانى والله أحق أن تخشاه.

= والله العظيم أنا غير فاهم،

– إن شا الله ما فهمت.

-3-

لو أن أى واحد آخر منهم قال لى ما قاله إبراهيم لرفضته واحتقرته وتركته، إبراهيم كاد ينزع جذورى دون هوادة أو تردد، من أين له بهذا اليقين وهذه القوة؟، ثم ما معنى هذه اللغة المحيرة التى يستعملها؟، يرجع بى إلى أيام زمان ويسألنى متى... خفت حتى مت؟، من ذا يستطيع أن يتحمل ما تحملته من خوف وحيرة وألم ووحدة؟، تدعونى يا إبراهيم أن أوقظ إحساسى من جديد؟، قيام القيامة أهون من هذا، لو علمت ما كان ما عملت فىّ ما عملت، أنت تتكلم فى خلو بلادك، مَنْ علَى البر شاطر، هل تعرف معنى إحساس شاب طفل وحيد ضائع ضائع ضائع؟، يرفض كل المسلمات ويرفض كل التقليد ويرفض التهريج ويرفض العبث ويرفض الرفض، تريدنى أن أوقظ إحساسى لأرجع إلى هذا العهد القاسى الظالم الساحق، إحساسى الآن مستقر آمن، تسألنى عن الخوف الذى أماتنى وكأنك تعرفه، لو كنتَ تعرفه لَمَا سألتنى، خوف كصيب من السماء يا إبراهيم، ما دمت تتكلم بالكتاب والحكمة، فيه ظلمات ورعد وبرق، لَمَا أظلم على لم أقم من كبوتى، وضعت رأسى تحت جناحى مثل مالك الحزين حتى أرى شيئا ونسيت كل ما كان، أخشى أن أخرج رأسى وأنت وغيرك تتربصون بى كالثعالب، لن أرى ولن أفهم إ ما ما أرى وأفهم، هذا آمن.

فُتحت علىّ أبواب الماضى، دخلت الذكريات تصفعنى بلا رحمة، أعيش مشاعر المراهقة بلا استئذان

الأدهى والأمرّ أن خلايا جسدى قد استيقظت مع عودة أفكارى القديمة وتساؤلاتى الحيرى، عدت أتأمل النساء فى الشوارع وأحس بطراوة أجسادهن فى الأتوبيسات فلا أتشنج

منذ صدْر الشباب لم أسمع صوتى الداخلى هذا أبدا، ما الذى أيقظه هكذا؟، أنت يا إبراهيم أم أمعائى؟، بداخلى شئ كان يحاورك يا إبراهيم من ورائى، أهذا هو نهاية المطاف؟، سوف أشنق بحبل من أمعائى على منصة الضلال الذى تعيشون فيه جميعا، جئت أشكو من أمعائى فإذا بى وسط جماعة من المنحلين الكفرة، صبرت على مسخرتهم على أمل أن أجد علاجى، والتمست لهم الأعذار، ليس على المريض حرج، ولمًا أنست فى إبراهيم خيرا قلبَها على رأسى وأيقظ هواجسى، لماذا الحيرة وكل شئ وارد فى كتاب الله.

– ولكنه يعرف كتاب الله ويتكلم به أكثر منك.

– يتكلم به فى غير مواضعه.

– وهل أنت وصى على مواضعه.

رجعت إلىّ هواجس المراهقة دون إنذار، كنت قد استرحت بعد تلك الخبرة التى أجابتنى عن كل الأسئلة، هذا هو إبراهيم، الله يجازيه، يقلبها على رأسى فيثور فكرى وكأنى لم أحل شيئا ولم أر شيئا ولم أسمع شيئا، مصيبة وحلت بى، ولا أدرى السبيل إلى التخلص منها، هل أكف عن الذهاب حتى لو احتفظت بفضلات أمعائى حتى الموت؟، هل أراجع طبيبا باطنيا آخر لعلى أجد دواء حديثا غير ما تناولته قبل ذلك؟

أخذت أراجع علاقتى بالكون – وأحمد الله أن الطب النفسى ساعتها لم يكن قد انتشر بهذا الشكل وإلا لحكموا علىّ بالجنون دون استئناف

أحسست أيامها بقدرة حواسى أن تُخَلِّقَ حواسا جديدة لها قدرة الميكروسكوب على رؤية ما لا يرى بالحواس القديمة العاجزة

المشكلة لم تعد مشكلة بطنى وأمعائى، هذا الوسواس الخناس حل محلها، من الذى أرجعه بعد أن أتانى اليقين لحما ودما؟، سوف أذهب لأزداد إيمانا حين أواجههم واحدا واحدا بكل أسلحة الدين والحرام والحلال، لن تذلنى أمعائى هذه، ولسوف ترى يا إبراهيم أى مصيبة ستلحق بك إذا تعرَّضت لى مرة أخرى، إذا ما حاولت أن تجعلنى "أفكر" ثانية، لولا أن أَمَرَنَا الله بالأخذ فى الأسباب لذهبت إلى غير رجعة.

-4-

فُتحت علىّ أبواب الماضى، دخلت الذكريات تصفعنى بلا رحمة، أعيش

مشاعر المراهقة بلا استئذان وأريد أن أنتقم من إبراهيم، كلما اقترب منى تحرك فىّ غول الانتقام وأنا لا أستطيع أن أستغنى عنه، الأدهى والأمرّ أن خلايا جسدى قد استيقظت مع عودة أفكارى القديمة وتساؤلاتى الحيرى، عدت أتأمل النساء فى الشوارع وأحس بطراوة أجسادهن فى الأتوبيسات فلا أتشنج، هل هذا هو الإحساس الموصل للإيمان الذى تتحدث عنه يا إبراهيم؟، الله يخيبك، هذا وحده دليل على أن ما تقوله، وما نحن فيه، إنما يوقظ الشيطان فىّ يا أخى، أنظرُ إلى بطاقتى الشخصية ولا أصدق أن هذا تاريخ ميلادى، كأنى توقفت عند سن السابعة عشر فى إجازة طويلة، أمانى الوحيد كان فى ثقتى بحواسى الخمس، كانت عندى الشجاعة أن أظل واضحا عنيدا لا أتصرف إلا بما أعتقد، ولا أرضخ إلا لمنطقى الخاص، لا يمكن أن تتصور يا إبراهيم معنى أن تجعل العقل سيدك وهاديك الأوحد فى هذه السن المبكرة فى بلد ريفى وسط عائلة تقرر أعظم قراراتها حسب نصيحة عرّافة أو بمحض الصدفة، مع ذلك ظللت أقول.."لا" بكل مسئوليتها وعنفها، وحدة قاسية وخطيرة لا يحتملها إنسان "يحس" كما تقولون، احتملتها سنوات وحدى، سنوات طويلة طويلة طويلة، اكتشفت عجز الحواس بالمصادفة وأنا أنظر فى الميكرسكوب فى حصة الأحياء، ماذا لو كانت حقيقة الوجود تحتاج إلى ميكروسكوب أدق من هذا الميكروسكوب ولكنه لم يُخترع بعد؟ أخذت أراجع علاقتى بالكون – وأحمد الله أن الطب النفسى ساعتها لم يكن قد انتشر بهذا الشكل وإلا لحكموا علىّ بالجنون دون استئناف، تريد أن تعيدنى إلى الجنون يا إبراهيم؟، أنت لا تعرف ما كان، أحسست أيامها بقدرة حواسى أن تُخَلِّقَ حواسا جديدة لها قدرة الميكروسكوب على رؤية ما لا يرى بالحواس القديمة العاجزة، مضيت وحدى أطرق أبواب الوجود أبحث عن اليقين بهذه الحواس الجديدة الغامضة دون أن أهرب إلى الحل الأسهل أو أرضى بالإيمان بشئ جاهز، ضيعتُ سن البهجة والمغامرة فى سعى جاد وحيد، هل تريد منى يا إبراهيم أن أرجع إلى هذا الألم وتلك الحيرة، سرت عاريا حافيا ضائعا تغوص

مضيت وحدى أطرق أبواب الوجود أبحث عن اليقين بهذه الحواس الجديدة الغامضة دون أن أهرب إلى الحل الأسهل أو أرضى بالإيمان بشئ جاهز

سرت عاريا حافيا ضائعا تغوص قدماى فى أرض رخوة بلا قاع، كنت أغوص فى رخاوتها واختلاط معالمها ولكنى لا أشك فى بوصلة توجهى

قدماى فى أرض رخوة بلا قاع، كنت أغوص فى رخاوتها واختلاط معالمها ولكنى أشك فى بوصلة توجهى، سنوات طوال يا إبراهيم عشت فيها حياتين إحداهما سرية وليست مظلمة كما تتصور، ليس كل ما فى السر هو مظلم، أنت وأمثالك تعرف ثمن رفض المسلمات فى هذه السن، الوحيدة التى كانت تشاركنى الحيرة وتقبلنى دون شروط كانت هنية: خادمة سمراء ذات شعر أجعد، كانت تعانى من نوبات يقولون عنها لمسة أرضية، أحبتنى وسمحت لى أن أفرغ حيرتى بين ذراعيها، أن أضع رأسى على صدرها دون صفقات مذلة، أن أتعرف على جسدى فى حضنها.

لابد أنك تعرف كم هو ساحق ألم الوحدة .

تفتح على يا إبراهيم بابا صفقته ورائى حتى صار جزءا من حوائطي، قل لى بربك مَنْ على الأرض كان يستطيع أن يتحمل كل ذلك وحده دون أن يجن؟ أنقذنى حضن هنية من الجنون صغيرا فأين الحضن الذى يحتوينى الآن إذا أنا سمعت كلامك؟، بد أنك تعرف كم هو ساحق ألم الوحدة .

ذهب كل شئ فجأة ، وذهبت هنية أيضا إلى سيد آخر يدفع ربع جنيه أكثر مما يدفع أبى، مع أنها كانت الوحيدة التى لم تقبل مقابلا لما أعطتنى، أعطتنى نفسى وأنا فى حضنها، أجَّلت ضياعى واستسلامى معا، كانت أثناء نوباتها تتكلم عن رفيق لها تحت الأرض، نصرانى الديانة، كنت أصدقها وأشعر أن داخلها قد تصالحت فيه الأديان مع بعضها البعض أصدق وأعمق، كانت هنية تسمع لى وتفهمنى وتسمح لى بجسدها الظاهرىّ بين الحين والحين دون هواجس الذنب أو وعيد الجحيم، ثم ذهبتْ لسيد آخر رغم أننى كنت أحتاجها أكثر منه، سيد كل ميزته أنه يدفع ربع جنيه أكثر، تركتنى وحيدا أبحث عنى من جديد، سنين طويلة وأنا أتقلب بين الكتب والوحدة والمساجد والكنائس والضياع، سنين طويلة أطرق كل باب يا إبراهيم بكل أحاسيس اليقظة الجياشة وليس لى من خبرة صادقة مع مخلوق إ مع هنية، أبى و أمى و أصدقاء فى سنى، و أحد، أذهب إلى المقابر وأنام تحت شجرة التوتة وأركب النورج وأجنى القطن، رغم كل ذلك لم أكن

كانت هنية تسمع لى وتفهمنى وتسمح لى بجسدها الظاهرىّ بين الحين والحين دون هواجس الذنب أو وعيد الجحيم

مثل العيال و مثل الشباب، يحسبوننى معهم وأنا لست معهم، دائم البحث والصبر واليقظة، ظللت أحافظ على أحاسيسى لى خشية أن يحبسوها فى صندوق مغلق ليس له مفتاح، سنين طويلة طويلة كأنى أعيش الدهر أعيشه عدة مرات، كيف تريدنى أن أعود اليها ثانية بعد أن وجدت إجابتى – فجأة – على كل الأسئلة؟، سكنت كل هواجسى على أرض ملساء صلبة بلا معالم، سلَّمت الدهشة والتفكير والحيرة والرغبة إلى صاحب مجهول، وجدت الإجابات الواضحة الجاهزة على كل الأسئلة دون استثناء.

ذهبت لسيد آخر رغم أننى كنت أحتاجها أكثر منه، سيد كل ميزته أنه يدفع ربع جنيه أكثر، تركتنى وحيدا أبحث عنى من جديد، سنين طويلة وأنا أتقلب بين الكتب والوحدة والمساجد والكنائس والضياع

– كل الأسئلة؟

= كل الأسئلة.

– كل الإجابات؟

= كل الإجابات.

– فما الذى أتى بك إلى سوق الأسئلة هذا من جديد؟

– أمعائى.

خذ من القرآن ما شئت لما شئت، كل الأسئلة يا ابراهيم يمكن أن تجد لها جوابا فى هذا الكتاب، فلماذا الحيرة؟، ولماذا البحث؟، ولماذا الجرى والضياع؟ ولماذا أنا هنا؟ ما الداعى لأن تتحدانى وتحاول إرجاعى إلى غرور الشباب لمجرد أن أمعائى تؤلمنى و أستطيع تنظيم عملها، لو أنك مررت بما مررت به يا إبراهيم ورأيتهم حقيقة واضحة تُمْسَك باليد وتُسْمع بالأذن وتُرَى بالعين لعرفت مصدر اليقين الذى أنا فيه، ولكففت عن ضربى بسياط سخريتك التى تغلف بها نصيحتك وتقلب بها وجدانى.

– 5 –

هى المصادفة ، كانت مجرد مصادفة ، ذهبت إلى "هؤ ء الناس" أتحدى خداعهم، أقفلنا الأبواب والنوافذ وأحكمنا الستائر وأحضرنا البطاطين وسددنا بها أى منفذ أو شبهة منفذ حتى يخالج أى منا شك فى حقيقة ما يجرى و يتصور

أنه وهم أو إيحاء، أخذنا نقرأ فى كتاب الله، ◻ طلاسم و◻ طقوس غريبة، وضع الأكل ثم أطفئت الأنوار، أخذ الأكل ينتقل من على المائدة إلى أفواهنا مباشرة – مباشرة يا إبراهيم دون استعمال الأيدى، الصحاف ◻ تفرغ مما بها مهما أكلنا، شبعنا دون أن ننقص من الأكل شيئا ثم رفعت الصحاف دون أن نقوم من مجالسنا.

يحسبوننى معهم وأنا لست معهم، دائم البحث والصبر واليقظة، ظللت أحافظ على أحاسيسى لى خشية أن يحبسوها فى صندوق مغلق ليس له مفتاح

أخذنا نذكر اسم الله حتى حضر خادم ا◻سم بصوته الإنسانى العادى ورعبت يا إبراهيم رعب الأولين والآخرين، لكننى علمت فى نفس الوقت أنه قد آن الأوان لزوال حيرتى إلى غير رجعة، هذه أشياء ◻ جدال فيها و◻ خيال و◻ أحلام، جاءنى اليقين حتى ملمس يدى، هاهو ذا يتكلم ويرد على الأسئلة دون الحاجة إلى العناء والبحث والحيرة وإعادة البناء كما تقولون، جاءنى جاهزا وكلمنى كما أسمعك تماما مازلت أذكر حوارنا:

– هداك الله يا عبد العاصى.

= أنا عبد السميع.

– هذا اسمك على الأرض، أما اسمك عندنا فهو عبد العاصى.

= لم أعص أحدا ، أنا أبحث عن يقين من داخلى،

– أنت عاص من يومك، وقد آن الأوان.

= من أنت؟ من أين جئت؟ كيف جئت؟

– ◻ نظهر إ◻ بناء على طلب الناس الصالحين، منا المؤمنون ومنا الكافرون ،

= ماذا تريد....

– أريد هدايتك ◻نصرف عنك.

= يا ليت ...

سكنت كل هواجسى على أرض ملساء صلبة بلا معالم، سلّمت الدهشة والتفكير والحيرة والرغبة إلى صاحب مجهول، وجدت الإجابات الواضحة الجاهزة على كل الأسئلة دون استثناء.

مددت يدى يا ابراهيم وسلمت يدى عليه، لحما ودما مثلك تماما، سلمت على يده مثلما أسلم على يدك، من يومها وأنا فى حال من الطمأنينة والسكينة، مثلما ترانى.

– أين السكينة يا عبد السميع، إنه العمى.

= سمه ما شئت لكننى مرتاح.

– وأمعاؤك؟

= ما لها أمعائى، مرض مثل كل الأمراض.

– لكن أطباؤك الذين أرسلوك إلى هنا لم يجدوا بها أى مرض مما يعرفون.

= وما ذنبى أنا أتحمل نتيجة جهلهم.

– أنت أطعتهم وسمعت كلامهم .

= لم يكن أمامى بديل.

– إذن فلنأخذ الفرصة ونتعرف على خلقة ربنا.

= لست فاهما.

– سوف تعرف بنفسك، متى خرجت من مخبئك، لقد اختبأت فى جحر حرباء وتلفعت بأمعائك هربا من مواجهة ذاتك ومعايشة إحساسك.

= ما فائدة الإحساس وهو الجحيم ذاته؟

– الجحيم هو الضياع والعدم.

= أشعر أننى لو نجحت فى أن أكف عن المجئ هنا فلسوف أهنأ بما أنا فيه تماما.

– أمعاؤك أصدق منك، سوف تأتى بك قسرا...

= خائف.

– وذليل.

= كفى يا إبراهيم.

– عبد السميع يا أشرم.

= نعم.

– أنت حر.

= □ أعرف معنى لهذه الكلمة.

خذ من القرآن ما شئت لما شئت، كل الأسئلة يا ابراهيم يمكن أن تجد لها جوابا فى هذا الكتاب، فلماذا الحيرة؟، ولماذا البحث؟، ولماذا الجرى والضياع؟ ولماذا أنا هنا؟

سوف تعرف بنفسك، متى خرجت من مخبئك، لقد اختبأت فى جحر حرباء وتلفعت بأمعائك هربا من مواجهة ذاتك ومعايشة إحساسك

-6-

لو أن الطبيب هو الذى قال لى ما قاله إبراهيم لشككت فى نواياه، لو أنه كان نقاشا عقليا مع كمال أو غالى أو ملكة لقلت ملحدين كفرة، أو على أقل تقدير خائفين ضالين، إبراهيم الطيب هزنى من جذورى، شدها فانخلعت من أرض الجان، ثم إنها لم تجد طريقا إلى أرض الإنس بعد، ﷺ أستطيع أن أرجع إليهم بعد أن أفشيت السر فوقع المحظور، و ﷺ أستطيع أن أواصل معكم لأنى ﷺ أطمئن لأى منكم و ﷺ لأى مخلوق، من أنتم يا إبراهيم وماذا تفعلون وإلى أين؟، هل تؤمنون أم تكفرون؟، أنا ﷺ أعرف شيئا من كل ما يجرى أنت الذى أثرت الحكاية دون مناسبة، نكأت الجرح القديم، ماذا عندك تقدمه لى حتى أستطيع أن أعيش؟

أقر واعترف أننى بدأت أقبل أن الموضوع لم يعد موضوع أمعائى، هذا من فضلكم وهو هو مصيبتى، حسبت أن إخواننا من عالم النار سوف يوصلوننى إلى عالم النور، ولكن أمعائى ساقتنى إليكم و ﷺ حول و ﷺ قوة إ ﷺ بالله، اندفعت شوطا فى جماعة الحكم بما أنزل الله، كنت أؤمن أن من ﷺ يفعلها فهو الظالم الفاسق الكافر، وكنت أنتظر مرور الأيام حتى يشتد عودى فأقتل الظلمة الكفرة الفسقة بلا تردد، ولما قامت الثورة ولوحت بالدين شعارا بين الشعارات فرحت فرحا شديدا ولم أكن قد تخطيت الصبا، تراجعتُ شخصيا قبل أن تتراجع الثورة، دهمتنى المراهقة بكل تساؤلاتها وعبئها وحيرتها، عشت السنين الطويلة أعانى وحدى و ﷺ يخفف عنى إ ﷺ حضن هنية بين الحين والحين.

= هل أنت مؤمن يا إبراهيم.

– الحمد لله.

= ماذا تعنى؟

– وجدت أننى ﷺ أستطيع إ ﷺ أن أكون مؤمنا.

= نعم؟ نعم؟

– صدقنى يا عبد السميع – المسألة أبسط من كل ما تتصور.

أقر واعترف أننى بدأت أقبل أن الموضوع لم يعد موضوع أمعائى، هذا من فضلكم وهو هو مصيبتى، حسبت أن إخواننا من عالم النار سوف يوصلوننى إلى عالم النور، ولكن أمعائى ساقتنى إليكم ولا حول ولا قوة إلا بالله

اندفعت شوطا فى جماعة الحكم بما أنزل الله، كنت أؤمن أن من لا يفعلها فهو الظالم الفاسق الكافر، وكنت أنتظر مرور الأيام حتى يشتد عودى فأقتل الظلمة الكفرة الفسقة بلا تردد

= والمسيحيون والبوذيون والشيوعيون؟

– فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فيهم وفيهم..

= يذهبون إلى النار؟

– من يؤمن فهو فى النار، يحتاج الأمر أن ينتظر حتى يذهب إليها..

= ترجعنى إلى ما هربت منه.

– بل إلى نفسك.

.....

****

منذ حدث ما حدث وأنا أنام، كيف حدث ما حدث.

عقب تعليق بسمة بعد توجيه السؤال من إبراهيم، انفجرتُ كالبركان فى ثورة هائلة، كانت بسمة فى ثورة غضب ساخط، التفتت إلىّ فجأة وصاحت.

– فعلا ذليل أعمى وجبان، تريد أن ترى أو تحس، أنت تجعلنى أشمئز أنى من مثل جنسك.

هكذا يا بسمة؟ حتى أنت يا بسمة؟، أنت الصغيرة الرقيقة الجميلة؟ أنتم تعلمون شيئا ولسوف ترون ياأغبياء من الذى يحس، أنا أحبس إحساسى وراء أسمك الجدران حتى أقتلكم، هاكم أنا.

.....

مطروح على الأرض، يمسك بأطرافى خمسة، منهم إبراهيم وبسمة، أنظر حوالىّ أشاهد آثار ثورة الإحساس، لمحت صورتين كانتا على الحائط وقد تحطمتا تماما، كراسى مقلوبة، قميصى ممزق وجسمى كله يتصبب عرقا.

ماذا حدث؟ كنت مازلت فى كامل وعيى، هذا البركان الذى ثار كان نائما فى قمقم الخوف والتسليم، كنت محقا حين تحكمت فيه بكل ما أوتيت من قدرة على الهرب والتأجيل، كيف كنت أجرؤ أن أسمح بهذا وأنا وحدى، هذا هو إحساسى: فج كما خلقه الله، فماذا تريدون؟ أنتم تسمحون لإحساسكم بالتجول لأنه ليس

لما قامت الثورة ولوحت بالدين شعارا بين الشعارات فرحت فرحا شديدا ولم أكن قد تخطيت الصبا، تراجعتُ شخصيا قبل أن تتراجع الثورة، دهمتنى المراهقة بكل تساؤلاتها وعبئها وحيرتها، عشت السنين الطويلة أعانى وحدى ولا يخفف عنى إلا حضن هنية بين الحين والحين.

بداخلكم هذا العملاق، أنتم لستم مضطرين أن تحبسوه فى قمقم، ليس عندكم مثله، هل عرفتم لماذا كنت بعيدا متهما باللامبا□ة والجبن ؟

الآن؟، كيف أُدْخِله ثانية إلى القمقم؟، ها هو ذا أمامكم □ يقدر عليه أربعة رجال أشداء وطفلة، أنت يا بسمة السبب ولعلك الآن تقدرين لماذا كنت جبانا وذليلا وأعمى، عندك حق، وأنا أيضا عندى حق، لو أطلقته يا بسمة لحطمت العالم وحطمت نفسى، لو أحسست لصافحتُ النساء بالإمساك بأثدائهن مباشرة، لو سمحت بما يعتمل بداخلى من أحاسيس □ أعرفها، فسوف أقتل بلا رحمة.

= هذا أنا فماذا تريدون..؟

– □، ليس أنت، هذا نصفك السجين وقد انطلق بعد طول نسيان وهوان.

= هذا هو إحساسى الذى تطلبونه.

– هذا انفجار وليس إحساسا.

= □ أعرف غيره.

– هذا جنون يا عبد السميع.

= إحساسى هو الجنون يا أخى، ماذا تريدون ؟ إحساس على مقاسكم، لم يعجبكم عقلى وحكمتى ودينى، و□ يعجبكم الآن إحساسى، تسمون العقل بلادة وتسمون الإحساس جنونا، ماذا تريدون ؟

– أنت تتفجر لتخيفنا حتى نبتعد كى تبرر هربك القادم وموتك الجديد.

= ... أنا أتفجر،... أموت.أذهب فى ستين مصيبة، ماذا تفعلون أنتم؟

– □ تمهد لإلغاء إحساسك من جديد هربا من انفجار أنت مسؤول عنه.

= ليس عندى إ□ هذا، تقبلوه أو تتركونى فى حالى.

– تفرض علينا أحد نصفيك.

= نصف، ثلث، ربع، □ شأن لى بشئ، عليكم أن تختاروا، ليس عندى شئ آخر.

– أنت الذى تختار.

أنتم لا تعلمون شيئا ولسوف ترون ياأغبياء من الذى يحس، أنا أحبس إحساسى وراء أسمك الجدران حتى لا أقتلكم، هاكم أنا

هذا البركان الذى ثار كان نائما فى قمقم الخوف والتسليم، كنت محقا حين تحكمت فيه بكل ما أوتيت من قدرة على الصبر والتأجيل

= أستطيع، لم أستطع، لن أستطيع، لملمونى ثانية حتى أنصرف فى أمان.

-7-

جننتُ والحمد لله، هذا هو آخر المطاف بك يا عبد السميع يا ابن الأشرم، حضرت أشكو من ألم أمعائى فشككونى فى وجوده، ثم جننونى أخيرا، نهايتى السراى الصفراء مثل عمى وابن عمتى، رأيت خيا تهم فى حلم أمس، عمى يفتح ذراعيه ستقبالى فى مدينة مسحورة تحت الأرض، صُنعت بيوتها من إفرازات البشر، وابن عمتى يزفّنى زفّة العوالم برق كبير مصنوع من جلد إنسان يجيد الإحساس، عريس بلا عروس، ذهبت إلى الطبيب أتخلص من ألم أمعائى حتى أتزوج، وهأنذا أتزوج الجنون وأزف بلا عروس فى مدينة فضلات المشاعر وأنقاض الفن، هل هذا هو العلاج الحديث يا سيدى يا صاحب صولجان العلم ولبس عباءة الطب؟، هل هذا هو الإيمان الذى تدعوننى إليه يا إبراهيم؟، هل هذه هى نهاية المطاف؟

– .... ليست نهايته بل بدايته يا عبد السميع.

= أنت يا إبراهيم مسئول عن كل ماحدث مِنْ صاحبك هذا الغشاش مدعى الطب.

– وأنت؟

= سلمتكم نفسى يا إبراهيم، وسأنتهى مثل عمى وإبن عمتى فى السراية الصفراء.

– تنتهى حيث تريد.

= يا أخى كفى سخفا، أريد!!..أريد!!..أريد!!... أنا أستطيع أن أريد أصلا.

– لعلها بداية الطريق إلى الله، إن شئت.

= كفى سخرية يا إبراهيم وخداعا، إياك أن تخلط فى الكلام.

– ما حدث حدث بإرادتك وفى وسطنا وفى كامل وعيك،

أنتم تسمحون لإحساسكم بالتجول لأنه ليس بداخلكم هذا العملاق، أنتم لستم مضطرين أن تحبسوه فى قمقم، ليس عندكم مثله، هل عرفتم لماذا كنت بعيدا متهما باللامبالاة والجبن ؟

= إرادتى؟ مازلتَ تقول إرادتى؟

– مجيئك هنا وإصرارك، هو الذى أحدث كل ذلك، مجيئك وانتظامك هما إرادتك.

= إرادتى... أن أجن؟، طول عمرى أخاف من جنون أهلى.

– لن تستطيع أن تخدع نفسك ثانية يا عبد السميع.

= أستطيع، أستطيع.... ماذا أستطيع؟، لم أعد أعرف.

–.... أن تعيش.... وتؤمن.

= إياك أن تأتى بهذه السيرة من جديد.أنا مجنون فاحذرنى، قد أقتلك فى أى لحظة.

– معك حق.

= إسمع، إما أن أنتحر أو أقتلك، أنت السبب فى كل شئ.

– أحمد الله أنى ساهمت فى عمل الخير.

= تحطمونى... وتشمتون بى... ثم تسمون ا□نتحار عمل الخير.

– ما رأيك فى انتحار مبتكر.

= بماذا اتخرف أيضا يا إبراهيم؟ ما هذا الذى تقوله؟ هل يوجد موديل "أحدث للانتحار"؟

– أن تقتل القديم فيك، فتولد من جديد "ربى كما خلقتنى"

= إذا مات القديم فماذا يتبقى....

– يتبقى الجديد: الأصل.

= غير فاهم، من أين أبدأ؟

– تبدأ من حيث أنت، كما خلقك بارؤك

= قلت لك غير فاهم.

– أحسن، هذه أمور □ تفهم.

إحساسى هو الجنون يا أخى، ماذا تريدون ؟ إحساس على مقاسكم، لم يعجبكم عقلى وحكمتى ودينى، ولا يعجبكم الآن إحساسى، تسمون العقل بلادة وتسمون الإحساس جنونا، ماذا تريدون ؟

-8-

طريق صعب قاس رائع مرعب، يصر إبراهيم أن أعملها وحدى، لماذا؟، يقول أن هذا هو السبيل الوحيد لتجنب الشرك، ماذا لو ذهبت إلى شيخى القديم؟، هل يقتلنى أم يلفظنى؟، سوف أذهب ولو لأطلب منه العفو.

= جئت يا سيدنا أطلب المغفرة، لقد بحت بالسر، وهأنذا أدفع الثمن .

– يغفر الله لنا ولك يا بنى.

= ماذا أفعل الآن؟

– الله يهدى من يشاء .

= ولكنهم يقولون أن من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

– الله يهدى من يشاء أن يهتدى يا بنى .

= تحملنى أنت أيضا مسئولية ماكان.

– الإنسان حمل الأمانة من قديم ولابد أن يكمل حمل مسئوليتها إلى النهاية.

= أغلِقَتْ فى وجهى كل الأبواب.

– الله غفور رحيم، والقنوط من رحمته ألعن من الكفر به.

= هل تسمح لى أن أحضر الجلسات مع الإخوان، أستغفر وأتوب.

– الخير فى كل مكان.

= كيف حال الإخوان.

– يسلمون عليك،

= أ فائدة من العودة؟

– تكف عن السعى إليه.

= والطريق؟

– الطرق مختلفة والغاية واحدة .

= عميتُ عن كل الغايات يا سيدنا.

– غاية إ وجهه.

حضرت أشكو من ألم
أمعائى فشككونى فى
وجوده، ثم جننونى أخيرا

= أين وجهه؟

– أينما تولوا فثم وجه الله.

= أين هو؟

– الخير فى كل مكان،

= فقدت كل شئ، وأفكر فى الانتحار،

– هذا هو الكفر بعينه، وهو جبن إصلاح لعواقبه.

= أصبح الموت تحصيل حاصل، مات كل شئ فى، ولم يبق إ جسد متحجر.

– يُحْيى العظام وهى رميم.

= تتكلم مثل إبراهيم الطيب .

– إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، عليك بالنظر فى نفسك.

كأنه هو، الحلقة تضيق و مفر من الاستمرار.

كتب عليكم العلاج وهو كره لكم...

ليكن،

ولتصدق نبوءتك يا إبراهيم، هذا هو ما انتظرته من سنين إما الجنون وإما الولادة، إما الموت وإما الحياة.

أغلِقَتْ كل الأبواب وكتب على أن أرفض الحل الرمادى الوسط.

-9-

شهور طويلة مضت وأنا أعاند الهزيمة، أتلمس أرض الواقع محافظا على كل ذرة من عنف الإحساس وألم الرؤية، شهور طويلة وأنا أرقص فيها على حبل مثل شعرة الصلب يمتد ما بين موت القديم وصحوة حواسى، وبين أملى فى الحقيقة وهلعى من الاقتراب منها، الحبل مشدود فوق واد من نار الرؤية العارية، يجعل الرعب يتملكنى كل لحظة.

– هو أقرب فعلا يا إبراهيم من أى شئ.

ذهبت إلى الطبيب أتخلص من ألم أمعائى حتى أتزوج، وهأنذا أتزوج الجنون وأزف بلا عروس فى مدينة فضلات المشاعر وأنقاض الفن، هل هذا هو العلاج الحديث يا سيدى يا صاحب صولجان العلم ولابس عباءة الطب؟.

= أخيرا!!

– بل أو.

ليس سرا، ولكنه أقدس من السر، بساطته تستهوى البسطاء، وعمقه بلا وسيله قد يؤدى إلى الهاوية، ليس لى أن أقول، حتى لو أردت أعرف كيف أقوله، ليجاهد كل من يريده حتى يصل إليه بنفسه، وإ تعرض لخطر التبعية البلهاء كما فعلت ردحا من الزمن، ولكن كيف أحبسه فيبدو وكأنه أمر غامض ضخم مع أنه أرق من نسيم السحر، وأوضح من نور الشمس.

****

أزور إبراهيم وزوجته نجوى بين الحين والحين ونتبادل كلمات قليلة نتفاهم فى صمت أصدق، أوصيته وزوجته أن يبحثا لى عن زوجة طيبة .

– كم أخاف عليك يا عبد السميع.

= آن الأوان أن أنصحك أنا، ينبغى أن تخاف إ من العمى والضلال، وقد فات أوانهما.

– هب أنها لم تكن كما تريد .

= الله يفعل ما يريد، وأنا وسيلته على الأرض؟

– ماذا ستعمل معها يا عبد السميع لو كانت ليست هى؟

= مثلما فعلت أنت معى يا إبراهيم، أرد لك الجميل فيها.

– كم هو صعب.

= أنت تقول هذا وأنت سيد العارفين؟

– فى الزواج ... يختلف الأمر.

= وماذا فعلت أنت ونجوى؟

– نحاول باستمرار.

=.... لن يثنينى شئ عن الحياة .

– كتبت علينا الحياة ما دمنا أحياء.

لا غاية إلا وجهه.

= أين وجهه؟

– أينما تولوا فثم وجه الله

فقدت كل شئ، وأفكر فى الانتحار،

– هذا هو الكفر بعينه، وهو جبن لا إصلاح لعواقبه.

= أصبح الموت تحصيل حاصل، مات كل شئ فى، ولم يبق إلا جسد متحجر

= أعلم ذلك.... وسأصنعها.

– أشك فى ذلك، صنعت ما هو أصعب.

= الأصعب أسهل.

– تكاد تسبقنى.

= العين تعلو عن الحاجب.

– مِنْ العين ومن الحاجب؟، ألم تتب .

= ...أنا أختبرك.

– وهل نجحت؟

= أنت أدرى.

– يا ترى يا بن الأشرم!!!....

= يا ترى يا ابن الطيب.

إليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه، عليك
بالنظر فى نفسك.
كأنه هو، الحلقة تضيق ولا
مفر من الاستمرار

شهور طويلة مضت وأنا
أعاند الهزيمة، أتلمس أرض
الواقع محافظا على كل ذرة
من عنفه الإحساس وألم
الرؤية

الأحـــــد 2018-07-08

العدد: 3963 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثامن "بسمة قنديل" رواية "مدرسة العراة"

أمى هذه لم تسعد أبدا، كتلة من الشقاء تتحرك، ترشو أبى بالمديح والتأليه والطاعة طول النهار حتى يعفيها من متطلباته ليلا، وجهها مازال ينبض بالحياة بالرغم من كل شئ، وراء كل تجعيدة أخدود من الألم والحسرة، شعرها ناصع البياض يذكرها بالنهاية، ولكن مشيتها الريفية تمضى فى قفز مستمر تتحدى.

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" (1) تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط".

وهذا هو الفصل الثامن صورة بسمة قنديل

بسمة قنديل

"بسمة قنديل"

-1-

– ماله يا ابنتى؟، عريس لقطة.

= □ اعتراض لى عليه ولكنى □ أريد "هذا".

– هذا..ماذا؟، أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت، أنا صاحبة مرض، وأنت تعلمين.

= إطمئنى يا أمى، أنا أعرف طريقى.

– ما هذا الكلام يا ابنتى؟، أنت بنت متى؟، أنت □ تعجبينى هذه الأيام، كأنك تحملين هم الدنيا على رأسك يا روح قلب أمك.

= مادام فى الدنيا هم يا أمى، فلا بد أن يحمله أحد،

– ماذا تقولين يا ابنتى، خل الهم لأصحابه، أنت شابه، وأمامك العمر كله.

= وأنت يا أمى؟،

– أنا انتهيت والحمد لله،

= انتهيت من ماذا؟

– من واجبى نحوكم، أريد أن أطمئن عليك، بسمتى آخر العنقود، ثم يتذكرنى الذى ينسى .

= كلامك يقطر مرارة يا أمّى.

– استغفر الله ماذا بك يا ابنتى؟

= عاجزة عن مساعدتك.

– نعم؟، نعم؟، من الذى يساعد من؟، الله يسامحك، أنت بسمتى يا حبيبتى،

= أنا بسمتك، وأنت شقائى،

– اللهم اخزك يا شيطان، ماذا تقولين؟، كل هذا حتى تقبلى ذلك الشاب اللقطة.

= وأنت؟ ... لقد تزوجت زين الرجال،

– الحمد لله..... ربنا يطول عمره، ماذا جرى لك؟، هل يصل الأمر إلى لمز أبيك؟، .... لست أنت بسمة.

= أنا آسفة، ولكنى لن أقبل هذا أبدا.

– هذا ماذا؟، ماله يا ابنتى؟ شاب مستور، أعرف عمته منذ كنا فى مدرسة المعلمات معا، وهو من عائلة فاضلة تعرف الأصول،

= أتركينى الآن يا أمى ... الله يخليك،

– سبحان الله.... أنت حرة، سوف تندمين.

وأنت يا أمى أ تندمين؟، أنا أُشْبِهُك وأخاف منك، أخاف أن ينتهى أمرى إلى ما أنت فيه الآن، لم أرك فى حياتى تشعرين بشئ لك، لك أنت، أنت تقولين قو من داخلك أبدا، شقاؤك يتحرك فى كل مكان، يوهمك ويوهمنا أن

لماذا لم تستسلم بعد؟، لماذا تصر بالرغم من مقاومتها أن أكرر نفس مأساتها؟، هل تريد أن تطمئن على أنه ليس هناك حل آخر؟،

الحياة تسير، يارب ماذا أفعل لها، يارب لم جعلتنى أرى الآن هكذا،.... كان مجرد حديث عابر بينها وبين أختى المتزوجة، أمى هذه لم تسعد أبدا، كتلة من الشقاء تتحرك، ترشو أبى بالمديح والتأليه والطاعة طول النهار حتى يعفيها من متطلباته ليلا، وجهها مازال ينبض بالحياة بالرغم من كل شئ، وراء كل تجعيدة أخدود من الألم والحسرة، شعرها ناصع البياض يذكرها بالنهاية، ولكن مشيتها الريفية تمضى فى قفز مستمر تتحدى.

لماذ لم تستسلم بعد؟، لماذا تصر بالرغم من مقاومتها أن أكرر نفس مأساتها؟، هل تريد أن تطمئن على أنه ليس هناك حل آخر؟، إننى أعتقد أنها تعى تماما بؤسها وشقاءها فلماذا تصدّره إلى أعز الناس إليها على حد قولها، لماذ تصدّر ما فشلت فيه...؟، كل تصرفاتها وطريقة انتقائها تؤكد الفشل، سمعتك يا أمى وأنت تقولين لأختى فى صدق حكيم بائس إن المرأة هى الأول والبيت وراحة الزوج، وأن على أختى أن تقفل أذنيها ومشاعرها عما عدا ذلك، هل وظيفتك يا أمى بعد طول هذا الكفاح أن توزعين اليأس بالتساوى؟، ياليتك قلت هذا الكلام وأنت تلبسين قناع البلادة والستسلام مثل خالتى أم حسين، أو جارتنا الست جليلة، أو حتى مذيعات التليفزيون، أنت غير كل هؤلاء، أنت دائمة الحركة دائمة الحديث دائمة الشجار عظمية الشقاء، ثم تصرين على تكرار المسرحية بنفس فصولها، ترى هل يداعبك أمل ما.... لا أعرفه...؟

= هل هناك أى أمل يا أمى؟

– فى ماذا يا ابنتى..؟، الله يهديك، مازال العريس يرسل المراسيل .

= لا يشغلك إلا عريس الغفلة، أنت لست معى يا أمى أصلا.

– بل أنا معك ولا يشغلنى إلا هناؤك، فكرّى وهو مستعد لكل طلباتك.

= أفكر طول الوقت، ولكن فى شئ آخر.

– خير، هل هناك غيره يشغلك؟

إننى أعتقد أنها تعى تماما بؤسها وشقاءها فلماذا تصدّره إلى أعز الناس إليها على حد قولها، لماذ تصدّر ما فشلت فيه...؟،

= نعم .

– ليس لى إ راحتك، كلمينى عنه، من هو يا ابنتى؟

= أنتِ، أنتِ يا أمى.

– أنا؟، كفى الله الشر.

= أفكر فى إسعادك طول الوقت.

– ماذا جرى لعقلك يا حبيبتى، أنا سعيدة والحمد لله .

= تكذبين على كل الناس، ولكنك لن تكذبى على .

– ماذا تقولين يا بسمه..؟

= أحمل همك أكثر مما تحملين همى .

– إذا كنت حقيقة تحملين همى فلماذا رفضت العريس؟

= أمى.

– روح قلبى .

= لن أكرر مأساتك ولو أموت.

– مأساتي!!، عن ماذا تتحدثين؟

= عن شقائك، عن نسيانك لنفسك .

– منك لله، أفسدتك كثرة القراءة.

= تنسى أنى ابنتك، وأنى أعرف ماذا أريد، وماذا تريدين؟

–.... وبعد؟ ... ماذا بعد؟ إلى أين أنت ذاهبة بى؟ بنا؟

= تخفى الدموع التى تطل من عينيك، فأنت لم تفلحى أن تتبلد مشاعرك أبدا.

= بسمة، أتركينى فى حالى: فائدة .

– وهذا ما يقطع قلبى.

= عن إذنك، والدك ينادى.

****

كل شئ يهون إ أن أرى أمى هكذا.

لم أسمعك مرة تتحدثين مع أبى كما يتحدث الناس.

– ماذا تقولين؟، إذن كيف أتحدث معه؟

= لم أسمعك مرة تقولين له، كيف حالك مثلا

****

-2-

ذهبت إليه بعد أن سمعت من أختى عنه، كان أستاذها وتقول إنه يفهم ويحس، رحت أستشيره فى مشكلة أمى ولكنه كان غبيا صريحا وقاسيا، لو أنه اكتفى بأن قال فائدة مثلما قالتها أمى، لقلت طبيب عاجز وانتهى الأمر، قلبها على رأسى وقال إنى أهتم بها اهتماما حقيقيا وإنما أهتم بنفسى، ليكن، ماذا يضيرنى لو اهتم بنفسى؟، ثم إنه لوح لى بأنى أنا التى ينبغى أن أعالج، لم يقلها صريحة ولكنه ألقى بطعم الأمل بشكل ما، مهما يكن من أمر، فأنا أمامى الدنيا واسعة والعمر طويل، المهم ان تذوق هى طعم الحياة قبل أن ترحل بكل هذا الشقاء وهذا الألم الطاحن.

قلبى؟، إيش عرفك أنت بقلبى؟، إسمعى لا تدخلى أباك فى الأمر، أنا ليس لى فى هذه الدنيا إلا العمل على راحته ليل نهار

– مالك يا ابنتى كفى الله الشر؟

= أفكر فيك ليل نهار.

– ثانية ؟، هذا ما يمكن أن يستمر، بد أن بك شيئا هذه الأيام، ماذا جد على حتى تنصبى هذا المبكى ليل نهار، كلما سألتك عن أحوالك، قلت أفكر فيك،أفكر فيك، ماذا بك يا ابنتى يا حبيبتى؟

= أنا ليس بى شئ، ولكنه بك أنت.

– أستغفر الله العظيم، ، ، لقد أفرطت يا ابنتى، هذا أمر يمكن السكوت عليه، لعلها مصيبة من المصائب "الموضة" التى يقرفوننا بها هذه الأيام فى التليفزيون.

= أى مصيبة يا أمى..؟، هل عيب أن أنشغل بك؟

– لو الملام لذهبت بك إلى طبيب نفسانى؟

= ملام و يحزنون يا أمى... لقد ذهبت إلى واحد فعلا .

– يا حسرة قلبى، لقد كنت أمزح، لماذا ذهبت؟

= ذهبت من أجلك.

– نعم؟، نعم؟، تفضحيننى بتخريفك أمام الغرباء، هل شكوت لك من شئ.

= ..... لم تشتك وهذه هى المصيبة، كل ما قلته له أنك تشتكين من شئ.

– عقلى سيطير بحق، ذهبت تقولين للطبيب أن أمى تشتكى من شئ، حول الله يا ربى.

= ... هذا ما حدث .

– سبحان الله يا بسمه..سبحان الله ، وماذا قال لك؟

= قال، وانتِ مالك (؟!)

– عين العقل.

= ولكنه أضاف أنها مشكلتى أنا، وأنه على أن أتغير جوهريا لأتجنب مصيرك.

يبدو كأن هذا البرج الذى طار من منى له أبراج صديقة تشبهه، عندك مثلا وعند أبى،.... وعند كل الناس، وهو يستطيع أن يفهم لغتهم، وربما يحدثهم مباشرة من ورائى

– مصيرى؟، ماله مصيرى الله يسامحك ويسامحه.

= هذه ليست حياة يا أمى.

– وكيف تكون الحياة إذن يا ست بسمة...؟

= شئ آخر، أنتِ الأدرى.

– أنا؟، لماذا تتكلمين بلسانى، وتحسين بجلدى، وتتألمين بمشاعرى، أكاد أصدق الطبيب أنك بد أن تنتبهى لما أصابك أنت فجعلك بكل هذا البؤس فى هذه السن.

= كلما نظرت فى نفسى رأيتك أتعس.

– وما ذنبى أنا، تحشرينى بين عظمك وجلدك وتنعين حياتى قبل الهنا بسنة؟،

= أين الهناء الذى تتكلمين عنه؟

– الهناء فى الرضا والحمد لله.

= أنت غير راضية .

– أستغفر الله العظيم، هل ينقصنا هذا الهم الذى تطحنينه ليل نهار؟

= إن المصيبة أنه ينقصنا، ونحن نريد أن نواجهه.

– كيف نواجهه يا ابنتى؟ أنت صغيرة على هذا الكلام الكبير يا حبة عينى،

= لم أسمعك مرة تتحدثين مع أبى كما يتحدث الناس.

– ماذا تقولين؟، إذن كيف أتحدث معه؟

= لم أسمعك مرة تقولين له، كيف حالك مثلا.

– ماهذا الذى تقولينه؟، أنا ليس لى فى الدنيا إ حاله.

= لم تقوليها مرة واحدة من قلبك.

– قلبى؟، إيش عرفك أنت بقلبى؟، إسمعى تدخلى أباك فى الأمر، أنا ليس لى فى هذه الدنيا إ العمل على راحته ليل نهار.

= ولكنه لم يرتح وأنت خير من تعلمين ذلك.

– أنا عملت ما على، وهذا طبعه، و توجد امرأة فى الدنيا تستطيع أن تعمل مثلما عملت أو تضحى مثلما ضحيت.

= هذا هو.

– ما هذا الذى هو يا بسمه، برج من مخى سوف يطير.

= أنا برج من مخى قد طار فعلا.

– اسم الله "عليكى" وعلى "حواليكى"، ماذا جرى؟

= وياليته طار واختفى وأراحنى، إ أنه وقف على رأسى يضيف تعليقا ساخرا، على كل مايدور حولى .

– ، ... ، فى الأمر شئ خطير، أنا أفهم ما تقولينه ولكنه خطير.

= يا أمىّ .. يا أمىّ يبدو كأن هذا البرج الذى طار من مخى له أبراج صديقة تشبهه، عندك مثلا وعند أبى،.... وعند كل الناس، وهو يستطيع أن يفهم لغتهم، وربما يحدثهم مباشرة من ورائى.

– ما هذا كله؟ ... ما هذا كله؟، يا رب لطفك.

إذا قلت لأبى، "ربنا يخليك"، سمعت برجك يقول "حتى أتشفى بانتقام الأولاد منك جزاء ما فعلته بى".

إذا قلت له "أنت سيد العارفين" سمعت برجك يقول "يا جاهل يا غبى".

– أهذه آخر تربيتى فيك... يا بنت أنت، هل تمزحين أم أنك جننتِ؟

= استيقظت على شجارك مع أبى قبيل الفجر ذات صباح، وشعرت فجأة بما أحكيه لك الآن.

– ▯ تلصقيها بنا، نحن ▯ نتشاجر أبدا، كان تفاهما بصوت عال.

= سمه ما تشائين، من يومها وهذا البرج الذى طار استقل وراح يمارس هواية الترجمة الفورية لما تقوله أبراجكم.

– أبراجنا؟ ، ماذا تقول أبراجنا؟، هل لنا أبراج دون أن ندرى؟، ماذا تقول أبراجنا؟

إذا قلت "أنا تحت أمرك" سمعت برجك يقول "حتى أضمن سجنك فى خدماتى وتضحياتى".

= أخشى أن أقلب كيانك إذا قلت لك.

– لقد قلبته والذى كان قد كان.

=أسمع "برجك" يقول شيئا آخر غير ما تقولينه لأبى.

– شيئا آخر؟، ماذا يقول "برجى" من ورائى يا ست بسمة؟

= تصرين أن تعرفى.

– ماذا فى هذا؟، طبعا أحب أن أعرف ما يدور.... الله!!

= أخشى أن تختل الأمور، لو عرفتِ.

ما الذى دفع بسيل الألفاظ يجرف كل ما يقابله حتى تصدعت القوائم واختل الأساس

– قولى لى، وما يحدث يحدث.

= دعينى وشأنى، اعتبرى كل ذلك مداعبة ، كنت أضحك معك.

– ▯ يا شيخة !!... حدثينى الله يهديك.

= هل تتحملين و▯ تغضبين ؟

– طبعا، أريد أن أعرف.

= إذا قلت لأبى، "ربنا يخليك"، سمعت برجك يقول "حتى أتشفى بانتقام الأو▯د منك جزاء ما فعلته بي".

– يا نهار أسود.

= وإذا قلت له "أنت سيد العارفين" سمعت برجك يقول "يا جاهل يا غبى".

– أهذه آخر تربيتى فيك... يا بنت أنت، هل تمزحين أم أنك جننتِ؟

= وإذا قلت "أنا تحت أمرك" سمعت برجك يقول "حتى أضمن سجنك فى خدماتى وتضحياتى".

– كفى كفى كفى يا بسمة، سلامتك يا ابنتى ألف سلامة، هذا تخريف رسمى، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، اسم النبى حارسك وضامنك، لابد أن تذهبى إلى الطبيب فورا.، فورا.

= ولكنى لا أشكو من شئ يا أمى، كل ما فى الأمر أنى رأيت شقاءك رأى العين.

– شقائى، مالك أنت وشقائى؟، لقد حدث لعقلك شئ والذى كان قد كان، استغفر الله العظيم، إرحم يا من ترحم، لابد من الطبيب ، لا بد من طبيب.

= قلت لك أنى ذهبت، ولكن من أجلك أنت، وقد قال لى "إنه لا شأن لك بها، أنت التى تحتاجين للمساعدة".

– هذا هو؟، هذا طبيب ناصح، وعرف أنك أنت التى تخرفين،

= ... أمى يا حبيبتى؟

– حبيبة ماذا ونيلة ماذا، حاسبى على نفسك ولا تستمرى هكذا، بعيد الشر عنك ألف مرة.

= الشر ليس بعيدا يا أمى، الشر فى داخلنا يطحننا، الشر هو الجبن والنفاق، أنا لم أخلقه من عندى، أنا أعلنته ليس إلا.

– الله يسامحك، كان الله فى عونك، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

= كان الله فى عونى أنا؟

– من أين يارب أرسلت لنا كل هذا البلاء؟

= ....

– خير يا بسمة لماذا سكت؟

= ...

– بسمة يا ابنتى فيم سرحت..؟

ماذا أفعل لك يا حبيبتى يا أمى؟ لم أستطع أن أحتمل رؤية شقائك، وإذا بى أصبح سببا فى إذكاء نار جحيمك، لسانك يقطر مرارة وأنت تقولين لأختى أنك لا تعرفين المتعة أصلا، ولا مرة واحدة

= آسفة يا أمى آسفة، كنت أمزح فعلا وزادت منى حبتين، أرجو أن تنسى كل ما كان، هل هذا معقول أن أعرف شيئا من داخل أى بشر، كانت لعبة أثيرك بها وطالت منى بالرغم عنى، آسفة يا أمى آسفة، سأذهب من فورى.

-3-

ما هذا الذى فعلت؟ ما الذى دفع بسيل الألفاظ يجرف كل ما يقابله حتى تصدعت القوائم واختل الأساس، هذه أمى حبيبتى، ما هذا الذى فعلته بها؟ قلبت كيانها رأسا على عقب ولم تنفع كل تراجعاتى واعتذاراتي!! ماذا أفعل لك يا حبيبتى يا أمى؟ لم أستطع أن أحتمل رؤية شقائك، وإذا بى أصبح سببا فى إذكاء نار جحيمك، لسانك يقطر مرارة وأنت تقولين لأختى أنك تعرفين المتعة أصلا، و مرة واحدة، كنت تنصحينها أن تكون مثلك حتى تعيش وتتستر، هأنذا أنصحك أ تكونى مثلها، أنت مازلت أكثر حياة وإحساسا منها، أنا جئت أكحلها أعميتها، أنا مجرمة ولن أغفر لنفسى ما حييت، قال لى الطبيب فائدة، وقد قلتها أنت مرارا قبل ذلك، فما فائدة كل هذه الحمم التى ألقيتها عليك وكأنى كنت أنتقم من استسلامك وسلبيتى، لن يتكرر ما حدث ما حيت، سوف أعيش أكفر عنه بقية عمرى، يا رب، كيف أمحو ما قلته لها، كيف أرضيها، كيف أجعلها تنسى، هل أتمادى فى تصنع الخبل حتى تطمئن أن ما قلته يعدوا أن يكون مزاحا فعلا، أو تخريفا عابرا، ولكنها أذكى من أن تصدقنى، و ليس أمامى إ إعلان الهزيمة واتقان دورى المفروض فى هدوء وصبر أقتل أكفر عن ما فعلت فلأقبل عريس الغفلة، هذه قسمتى وقسمتها، إذا كنت أستطيع أن أرفع عنها الظلم، فلأشاركها فيه، ولتسقط كل محاو ت الحياة.

= أنا موافقة يا أمى.

- على ماذا يا ابنتى؟

= على الخطيب، ابن أخى صديقتك.

- أبدا، لن يكون ما دمتُ حية.

ما فائدة كل هذه الحمم التى ألقيتها عليك وكأنى كنت أنتقم من استسلامك وسلبيتى، لن يتكرر ما حدث ما حيت، سوف أعيش أكفر عنه بقية عمرى، يا رب، كيف أمحو ما قلته لها، كيف أرضيها، كيف أجعلها تنسى

= ماذا جرى لك يا أمى؟، كنت تلحين علىّ ليل نهار.

– غيرت رأيى.

= ماذا جرى يا أمى؟ أنا أطلب رضاك وأعلم أن هذا يسعدك.

– لم يعد يسعدنى.

= ماذا جرى؟ بالله عليك؟

– تُعالجين أو.

= أعالج مِنْ ماذا؟، لقد كنت أمزح وانتهى الأمر.

– حتى ولو كان حلما وليس مزاحا، فلن أتعسك بيدى، يمكن أن يحدث هذا ما دمت حية.

هل أتمادى فى تصنع الخبل حتى تطمئن أن ما قلته لا يعدوا أن يكون مزاحا فعلا، أو تخريفا عابرا، ولكنها أذكى من أن تصدقنى، و ليس أمامى إلا إعلان الهزيمة واتقان دورى المفروض فى هدوء وصبر أفتل أكفر عن ما فعلت فلأقبل عريس الغفلة

= تتعسيننى؟ تقولين إنه من أحسن الشباب.

– كان زمان.

= ماذا جرى له فى يومين، لقد كنت تعددين ميزاته أول أمس.

– أول أمس أصبح "زمانا" الآن، ونحن أبناء هذه اللحظة.

= تتقلب الأمور هذه الأيام بسرعة، حتى معك يا أمى.

– أدفع عمرى وتعالجين يا ابنتى.

= أعالج من ماذا بالله عليك؟

– لست أدرى.

= تحسبيننى مجنونة؟

– أبدا والله، خطر هذا الخاطر على عقلى فترة ولكنى تأكدت بعدها من خطئى،، هذه رؤية من حقك، والطبيب يمكن أن يساعدك.

=..... إذن مم أعالج؟، من صدق الرؤية؟ أعالج بحبوب "طمس الرؤية" ؟ ثم إنى أكرر لك أنى كنت أمزح.... ليس لدىّ ماأقوله إ ما قاله الطبيب

– يا بسمة، لقد أيقظتِ فىّ أملا لم أستطع أن أحققه، فلتحققيه أنت،... أنا أحس أن هذا الطبيب يعرف الطريق، هذا كل ما هنالك.

= وأنت يا أمى؟

– إسألى طبيبك.

= ليس طبيبى بعد، أنا لم أقرر الذهاب.

– أسأليه حين تذهبين، ولسوف تفعلين من أجل خاطرى، وإن أشار عليك أن أذهب فلسوف أذهب دون تردد.

= لقد قال إنه فائدة.

– فائدة من حالتى أنا وليس منك؟، هو طبيب ماهر ما فى ذلك شك، خذى فرصتك إذن.

= أنا يخير يا أمى، عليك.

– .... أنت تعرفين كل شئ يا ابنتى، تخدعى نفسك

= أخشى يا أمى أن يصحو فى نفسى أمل يشقينى، ويشقيك أكثر.

– لقد صحا والذى كان قد كان، فإما أن تحققيه وإما أن تقتليه، الطبيب سوف يساعدك فى كل حال.

= ومن أدراك؟

– إحساسى وكلامك عنه، يبدو أنه يعرف الطريق.

= المهم أن أعرف أنا الطريق.

-4-

أعالَجُ؟، أعالج من ماذا؟، من رؤية الحقيقة؟، من إحياء الأمل؟، لو كنت أسمع أصواتا أو أرى خيا ت، لو كنت أهذى أو أهيم على وجهى، كل ما هنالك أنى رأيت، ثم قلت ما رأيت وإذا بكيانها ينقلب بلا رحمة، ها هى ذى تتراجع حتى عن الخطوبة ذاتها، كانت خطوبتى هى سعادتها وسَتْرِى هو غاية أمانيها، ثم ها هو ذا علاجى يصبح أولى مطالبها، هل حالتى خطيرة إلى هذا الحد؟، أو أنها صدقت حقيقة رؤيتى؟، هل تريد أن أحقق ما عجزتْ هى عن تحقيقه كما تقول فيكون فيه سعادتى سعادتها؟

لقد أيقظتِ فىّ أملا لم أستطع أن أحققه، فلتحققيه أنتِ،... أنا أحس أن هذا الطبيب يعرف الطريق، هذا كل ما هنالك

أخشى يا أمى أن يصحو فى نفسى أمل يشقينى، ويشقيك أكثر.

– لقد صحا والذى كان قد كان، فإما أن تحققيه وإما أن تقتليه، الطبيب سوف يساعدك فى كل حال

مهما يكن من أمر فقد تورطت بالحديث معها، وتورطت أكثر بالذهاب إلى هذا الطبيب، لم أقاوم كثيرا وادعيت أنى أذهب إرضاء لها، ومازلت أواصل تعاطى الورطة.

إننى أفهم أن تكون مهمة الطبيب أن يستأصل الزوائد المرضية، أن يخفف من حدة الآ□م، هذا الرجل يزيد ما أصابنى من تضخم فى الرؤية، يريدنى أن أرى أكثر ويتركنى أتألم بلا رحمة، ثم أخيرا هو يحمّلنى مسئوليتها، هذا إجرام مستتِر، مع سبق الإصرار، الحزن يلفنى من كل جانب، عمرى ألف عام، لم أعد أستطيع مزيدا من التعرى، أحس أنه لم يبق فى كيانى خلية لم يفتضح أمرها، بل إن كيان الآخرين أصبح لدىّ صفحة مفتوحة، كنت أحسب أن المصيبة مقصورة على أمى وأبى وأختى وزوجها ولكن يبدو أنها مصيبة عامة، أصبح الكذب والنفاق هو الأصل، ما هذا الذى يجرى بين غالى وملكة طول الوقت، أسمع النقاش المضحك بينهما، وبرج عقلى الطائر يسمع حقيقة ما وراءه واضحا □ لبس فيه و□ غموض، يتكلمان عن ا□شتراكية وطحن الإنسان المصرى، برج عقلى الطائر يسمع أشياء أخرى؟، مرضى طريف يمارس الترجمة الفورية بشكل ساخر، يعرى كل الناس دون استئذان، يسمع الحوار "الآخر" بين أبراج عقول البشر، غالى وزوجته يتباد□ن الحب فيترجم حوارهما برج عقلى فوريا كما يلى:

[– كم أكرهك يا غالى.

= من القلب للقلب رسول، يا ملكة يا آكلة لحوم البشر.

– لن أتركك تتمتع بحريتك إ□ على جثتى.

= وأنا سأستغلك حتى الثماله.

– أنا التى أمتص وجودك وأسجنك فى آرائك التى حسبت أنك تفرضها علىّ.

= وأنا ألهيك فى مشاكل □ تخصك حتى أستمر فى العيش على حسابك.

– تضحك على نفسك وأنت مستسلم تماما.

= شكلك كالبومة يا بنت الكلب.

أعالِجُ؟، أعالج من ماذا؟، من رؤية الحقيقة؟، من إحياء الأمل؟، لو كنت أسمع أصواتا أو أرى خيالات، لو كنت أهذى أو أهيم على وجهى، كل ما هنالك أنى رأيت، ثم قلت ما رأيت وإذا بكيانها ينقلب بلا رحمة

– لن تتخلص منى حتى أزهق وحك].

ومع ذلك أصر أنى لم أجن، هى ليست أصواتا أسمعها، هى رؤية كاملة، أسمع أصواتهم الحقيقية كأنها تتحاور وأنا أرى هذه الصورة الأخرى وراء نقيق الضفادع الذى يتبادلونه، أصبحت قراءة القسمات والخلجات هواية مرعبة، نظرات فردوس الطبلاوى تهتف بى كل مرة أن أكف عن المجئ، امرأة طيبة متواضعة، ألغت شقاءها فى لحظة وانطلقت تتمتع بجسدها وزوجها "حسب التعليمات" كما تصورتها، يبدو أن عبد السلام يرفض هذا الذى حدث فجأة، يبدو أنه غير راض عن هذه السعادة الرخوة، يبدو أنه ليس على بالها الآن إ الدعة واللذة والمتعة، وتسميها تطورا، أمٌ طيبة مازالت، ترفض شقائى – وهى تناديني– صامتة أن أكف عن المجئ، أحس أنى أكبر منها عشرات السنين، التعرى فى هذه المجموعة يلهب كل خلية فى وجودى ثم يتركنى معلقة بين السماء والأرض،علاج يعمق التناقض ويشعل الألم، فردوس ذات الأربعين تعيش سعادة الأطفال وأنا أعجز من أهل الكف، لو علمتِ يا أمى مايجرى هنا لراجعتِ نفسك وعملت على أن أوقف هذا العلاج، ترى لو كنت جئتِ بد منى هنا، هل كانت براعمك ستتفتح من جديد مثل فردوس الطبلاوى، إذن لطلقك أبى بعد خمس دقائق، أو ربما سلمك للسراى الصفراء مع مخصوص، فردوس – رغم كل ذلك – ليست سعيدة كما ترسم نفسها، عبد السلام يأخذ منها وجه القشدة ثم يعيب عليها أن اللبن حامض، مختار لطفى يلتهمها على ما قُسِم فهو يدع أنثى إ وناداها نداءه الصامت، موقف عبد السلام يحيرنى، ماذا يريد منها بالضبط، سمعته يقول لها مرة "من يضمن ا ستمرار لو سلمنا لهذه السعادة السهلة، مازلنا على الأرض يا فردوس و بد للسعادة من أشواك تحميها حتى يقطفها عابر سبيل ثم يلقيها بعد بضعة خطوات"، يريد ضمانا مدى الحياة.

كانت خطوبتى هى سعادتها وستْرِى هو غاية أمانيها، ثم ها هو ذا علاجى يصبح أولى مطالبها

هل تريد أن أحقق ما عجزتْ هى عن تحقيقه كما تقول فيكون فيه سعادتى سعادتها؟

سمعهما برج عقلى الطائر يتحاوران ذات مرة، يقول عبد السلام:

"ا يمكن ا طمئنان لإنسان بلا أعماق".

ترد فردوس بحدّة:

"... من أين أشترى لى أعماقا حتى أعجبك" .

أمره عجيب ومحير عبد السلام هذا.... الظاهر أن الحق معك يا أمى، والدى أول من سيرفض سعادتك، الرجال يرفضون سعادة النساء التمليك، يخافون منها، عبد السلام مازال يواصل المسيرة، يبدو أنه مازال ينقصه شئ هام، شئ أساسى قد يسمح لعبد السلام أن يطمئن، ما أصعب كل هذا.

أقرأ نداء أمومة فردوس بسهولة مباشرة: "قلبى عليك يا بسمة يا حبة عينى".

ماذا تريدين منى يا خالة فردوس، يبدو أننا تبادلنا الأدوار، أنت طفلة سعيدة وأنا عجوز أصابنى داء الحكمة، برج عقلى الطائر هو السبب، المسكنات اللذية ليس لها عمر يا فردوس، تصورى أننى أنا الذى أقول لك هذا وليس العكس، هذا هو ما يخيف عبد السلام منك، أنت وأمى وجهان لعملة واحدة، أنت ضائعة فى السعادة الرخوة، وهى ضائعة فى الشقاء المر الجاف، أزعم أننى أواصل علاجى من أجل أمى، إلى متى ينجح هذا التلاعب؟ لست أدرى، قد تكون فائدة حضورى إلى هنا أن تعتقد أمى أنى مريضة فعلا، فتنسى ما قلته لها يوما فى لحظة تهور أعمى، لن يرحمها من حقيقتها إ إقناعها التدريجى بأن كل ذلك كان جنونا، أو تخريفا.

يا رب سامحنى، و تحرمها نعمة العمى.

-5-

احتد الديالوج المرئى بين غالى جوهر وزوجته المقدسة ملكة، حتى دخلت طرفا ثالثا دون أن يسمح لى أو يدعونى أحد منهما، نظرات غالى تتركنى منذ عدة أسابيع، ماذا يريد منى؟، أحيانا تنتقل نظراته بينى وبين زوجته وكأنه يستنجد بى منها، أنا أريد أن أقلب كيانه أو كيانها مثلما فعلت بأمى.

لو عملها عبد السلام وفردوس.... لو تم ما يجرى بين إبراهيم ونجوى، لو غامر كمال فتحمل مسئولية فنه دون جنون أو انتحار، لو حدث كل ذلك، أو شئ من ذلك، فسوف ألقى بنفسى إلى الأتون مباشرة، أنا الأصغر، عندى وقت كاف أغير فيه تاريخ البشرية، أكاد أحمد الله أن شيئا من ذلك يحدث.

هذا الرجل يزيد ما أصابنى من تضخم فى الرؤية، يريدنى أن أرى أكثر ويتركنى أتألم بلا رحمة، ثم أخيرا هو يحمّلنى مسئوليتها، هذا إجرام مستتر، مع سبق الإصرار

ماذا تريد منى يا أستاذ غالى؟، أنا أشفق عليك وأنت تضرب بجناحيك فى قفصها المحكم، أكاد أقضم منقارك وأنت تلتقط ما تلقيه لك من حب، هل تريدنى أن أفتح لك القفص؟، سوف تطير إلى قفص آخر فلقد نسيتَ قيمة الخلاء، أحيانا تطلق سراحك من قفص حبها إلى حظيرة مبادئ الحزب دون أى طيران خطر، جناحاك أثقلهما الخوف وريشك مندوف أو بأول، تحبنى يا غالى؟، أقرأ ذلك على وجهك ، كيف تصدق نفسك وأنت تعرف معنى الحب أصلا؟، المصيبة أنى أُعَدُّ من الجميلات، يحجزنى هذا الجمال وراء تقاطيعى المتناسقة، فإذا أضيف إلى شكلى ما يتصورونه من رقتى وذكائى المزعومين، ضعت أنا بلا أمل فى إنقاذ، أحد يعرفنى أنا، وخصوصا أنت يا غالى.

الحزن يلفنى من كل جانب، عمرى ألفى عام، لم أعد أستطيع مزيدا من التعرى، أحس أنه لم يبق فى كيانى خلية لم يفتضح أمرها، بل إن كيان الآخرين أصبح لدىّ صفحة مفتوحة.

عندك حق يا فردوس، ورطتى أكبر من كل تصور، كيف سأتزوج بعد كل هذه الرؤية، هل أنا التى ستتزوج أم برج عقلى الطائر؟، أنكر أنى أغلى بالرغبة، هذا الإلتحام مع آخر حتى الذوبان فى كتلة واحدة من اللحم الذى يغلى باليقظة والنشوة يتمثل أمامى فى كل لحظة، أعرف سبيلا إليه، البضاعة المعروضة كلها بيع وشراء مع احتفاظ بحق المنفعة، أخدع فى العلاقات الحرة المزعومة فهى أخبث من الزواج فى نظرى، علاقات تشبه حجز ليلة فى فندق عام، الزواج عقد إيجار مفروش.

استدرجت نادرا زميلى أمس إلى بوفيه الكلية لأقطع عليه أحلامه التى تتبعنى فى كل مكان فى الكلية، بد وأن يعرف أنى غير صالحة لما يدور فى ذهنه، عرض على الزواج فعلاً بسرعة ومباشرة ظانا أنى دعوته لذلك، ابتسمت وأنا أنظر إلى المنديل الورق الملقى بجوار فنجان الشاى، كانت بنود العقد التى كتبها برج عقله إياه، مكتوبة بوضوح عليه:

"عقد إيجار مفروش": يعرض الطرف الرجولى المدعو "نادر" أن يقوم بتأجير الجسد الأنثوى – الذى تحتله الآنسة بسمة قنديل – معظم ليالى الشتاء وبعض ليالى الصيف، وذلك على أن يظل محجوزا له بقية أيام العام لحسابه

الخاص، مقابل أن يقول أحبك ثلاث مرات يوميا لمدة ثلاثة شهور تتناقص بمرور الزمن ويمكن أن تزداد حسب الحاجة أو تنقص حسب الظروف، أو حسب التغيرات المناخية خاصة لو تعرض هذا الجسد للإتلاف أو العطب نتيجة لسوء الاستعمال."

– فيم تفكرين يا بسمة؟

= أقرأ شروط العقد يا نادر.

– أى عقد تعنين؟

= أُنْظُر إلى هذه النقوش على المفرش الورق.

– جميلة.

= خسارة أن نلقى به بعد استعماله.

– هومصنوع لذلك، أفضل من الغسيل والمكوى.

= اختراعات تتجه إلى استسهال، فتنتهك حرمة كل أصالة.

– حكمتك تخيفنى أحيانا يا بسمة.

= هل حاولت أن تقرأ معنى هذه النقوش يا نادر؟

أخذ منديله بين يديه يحاول أن يقرأ نقوشه فى بله عظيم، استمرت عيناى تتابع بقية بنود العقد فى صمت.

".... على أن تقوم هى بتكاليف أكلها وكسوتها من مرتبها الخاص، حسب القوانين الحديثة لتحرير المرأة".

– أفهم ما تعنين، أعرف فكرة قراءة الفنجان، ولكن هذه أول مرة أسمع عن قراءة مناديل الورق.... يبدو أن فى الأمر لغزا.

= لغز ولا يحزنون، هأنذا أقرأ أمامك فحاول وسوف تجد السر،

– سر ماذا، هذه نكتة، أنا أعرف سخريتك، هى أكبر من احتمالى الآن.

= حاول ودعنى أكمل.

– تكملين ماذا؟

كنت أحسب أن المصيبة مقصورة على أمى وأبى وأختى وزوجها ولكن يبدو أنها مصيبة عامة، أصبح الكذب والنفاق هو الأصل

= أكمل القراءة يا أخى.

– سأصبر عليك حتى أفهم، هات.

مضيت أقرأ بقية البنود فى صمت أيضا.

".... كما يقوم السيد نادر، دون اعتبار لدرجة غبائه، باستيلاء على روحها تدريجيا، ويشترط أن تكف هى عن التفكير نهائيا قبل مرور خمس سنوات من إبرام هذا العقد".

– ماذا وجدت يا بسمة؟، تبدين وكأنك تقرئين شيئا مكتوبا فعلا.

= فرصة عابرة أردت أن أسمح لنفسى أثناءها بالتفكير العميق فى عرضك الزواج.

– ولكنك كنت منهمكة جدا..حتى تفصد العرق من جبينك وأنت تبحلقين فى منديل الورق.

= كانت شروطا صعبة.

– أية شروط..؟

= والمصيبة أن كل النساء يتقبلنها بترحاب شديد.

– يتقبلن ماذا يا بسمة، ! تحيرينى.

= .... يبدو أنهن يتقنّ التحايل لقدرتهن على التنفيذ لصالحهن.

– ... هذا كثير..أكاد ! أتابعك.

= أعرف أنك ! تحتمل شطحاتى.

– للمزاح حدود، أنا ! أعرف عنك إ! الرقة والعقل والاتزان.

= ما رأيك أن تتزوجهم.

– أتزوج من ؟

= الرقة والعقل والاتزان.

–... أنا أحبك يا بسمة.

= أعلم ذلك، لكننى لست مستعدة للارتباط الآن، نظل أصدقاء إن شئت.

أنا التى أمتص وجودك وأسجنك فى آرائك التى حسبت أنك تفرضها علىّ.

= وأنا ألهيك فى مشاكل لا تخصك حتى أستمر فى العيش على حسابك

– أنا آسف إن كنت قد ضايقتك باعتراضاتى، ولكنى لم أفهم.

= لقد سرحت أكثر من اللازم وهذه غلطتى.

– هل أنت مصممة؟

= تماما.

– قرار نهائى.

= جدا.

–.... سأنتظرك ما حييت.

= ما حييت؟ تطل الانتظار يا نادر وإ فإننى سأتألم لك بلا داع .

– أنا حر أنتظر كما أشاء و أريد الضغط عليك، عن إذنك.

عندك حق يا فردوس، ورطتى فى هذه السن أكبر من كل تصور، بد أن أفقد الوعى قبل أن أوقع مثل هذا العقد، نجوى شعبان عجزت عن تنفيذ بنوده فهجرت زوجها وابنتها وها هى ذى تبدأ من جديد، يا ترى هل تستمر أم تعاود الكرة بوعى آخر يحميها من قراءة كل البنود بهذا الوضوح؟، نجح الأطباء فى إعادة الإبصار للعمى فلماذا يقوم طبيبنا هذا بإعادة العمى للمبصرين؟، مازلت أذكر حديث نجوى مصباح، وأذكر كيف كان برج مخى يقرأ النسخة الأصلية وهى تظهر مكتوبة على ناحية بجوار حديثها الظاهر كأنها مجلة ميكى.

– لماذا كل هذا الحزن يا بسمة؟

= (أنا فخورة بك وبشجاعتك).

–.....

أنت رقيقة، فهلا اكتفيت بذلك ومضيت تسعدين بشبابك.

= (إياك أن تصدقينى واستمرى فى طريقك).

.....

– أشفق عليك بصدق، أخشى أن تتسع رؤيتك أكثر

= (طريقك هو عين الحق.... صدقينى).

امرأة طيبة متواضعة، ألغت شقاءها فى لحظة وانطلقت تتمتع بجسدها وزوجها "حسب التعليمات" كما تصورتها.

كنت أقبل صدق نصائحها، لكن يصلنى فى نفس الوقت تحذيرها أن أصدقها، كما كنت أحذر أن أتمادى فى إخبارها عن حقيقة ما يسمعه برج عقلى الطائر من داخلها، لم أكن متأكدة إن كانت سترجع إلى زوجها وابنتها أم ستواصل رفع الحجر بكفيها الداميتين إلى أعلى الجبل، تعلمت منذ حكايتى مع أمى أ أقترب منهن أو أعلن محتوى الحوار المرئى أبدا.

كمال يفهمنى بلا حديث، يبدو أنه يستطيع أن يقرأ الديالوج المرئى مثلى، فنان تدرب على رؤية وتشكيل ما بعد الظاهر، أما عبد السميع، فالله يغفر لى إذ كدت أبصق عليه وهو يتشنج فى نقاش مع إبراهيم الطيب.

ما أصبرك يا إبراهيم وما أوسع صدرك.

-6-

= أنت معى يا كمال.

– بكل قلبى... وأنت تعلمين، مع أنك صغيرة، لكنك تعرفين كل شئ، أكثر من كل الذين هنا.

= اتفاقنا فى الرؤية يطمئننى، هل رؤيتنا هى الصحيحة؟

– صحيحة.... وصعبة.

= يعنى مستحيلة.

– ياليت.

= فائدة إذن.

– تقريبا.

= أنت فنان وتستطيع أن تصوغها فى رمز للمستقبل، أما أنا، أما نحن؟!

– لم أعد فنانا و يحزنون.

= هل كتب علينا أن نهيم على وجوهنا بغير هدف؟

– شئ يعين.

= هذا كلام مزعج، و أحسب أنك تصدقه على طول الخط.

يبدو أنه غير راض عن هذه السعادة الرخوة، يبدو أنه ليس على بالها الآن إلا الدعة واللذة والمتعة، وتسميها تطورا

– هو مزعج فى البداية ولكنه مريح بشكل ما.

= ولماذا لم تسترح؟

– فرشاتى جفت وسن قلمى قصف.

=.... وبعد؟

– أنا فى انتظار الفرج فى الفرشاة القلم.

=.... والحياة؟

– حياتى فيهما، أرسم المستقبل لمن يصنعه فيما بعد.... أرسمه لك يا بسمة.

=.... أنا؟

–..أى بسمة، هن كثيرات، أظن، دعينى أشك أنهن كثيرات.

= أنا فى أول الطريق.... أريد قدوة ، أتطلع إلى أى نجاح حتى أنجح مثله.

– تحملين عبئا، يا بسمة فى هذه السن، حرام عليك نفسك، الحمل ثقيل جدا.

= تتكلم يا كمال مثل الطبيب، على كل واحد أن يحمل مسئولية قراره،... ولكنك أرق منه، أتساءل أحيانا ماذا يعمل فينا هذا الرجل بكل هذا التخلى وهو يشير إلى أن يفعلها كل منا على مسئوليته.

– أنا مرتاح لهذا التخلى.

= أعلم ذلك.

– هو يتقدم بلا تردد لمن يقبل تدخله.

= أحيانا أراه يربط غالى فى عنق ملكة حين يحاول أن يطير منها.

– يبدو أنه يعرف أنها ندفت ريشه فلم يعد يستطيع الطيران، ربما هو يخشى عليه.

= ما رأيك فيه يا كمال؟

– فى من؟

= فى شيخنا هذا؟

التعرى فى هذه المجموعة يلهب كل خلية فى وجودى ثم يتركنى معلقة بين السماء والأرض،علاج يعمق التناقض ويشعل الألم

– أُعْجَبُ بمهارته أحيانا، أعتبره فنانا ليس له علاقة بالطب والحياة.

= تمنيت فى بعض الأحيان أنى ولدت ابنته.

– حذار من الاعتماد عليه، وإلا فقدت نفسك.

= حاولت الاعتماد فعلا ولكنه راقد فى الخط، هل يوجد سبيل للالتفاف من باب آخر.

– بل هو أخفى مما تظنين.

= إن كان ثمة حب، فأنا أحبه.

– حذار يا بسمة، أنت تعرفين كل شئ، قد يشكلك على مزاجه..

= لا أبيع نفسى ولو للإله نفسه، ولا أستطيع أن أعيش وحيدة، وأنت جبان يا كمال.

– حرصى على حريتى لا مثيل له.

= هل ندفع ثمن هذه الرؤية التى ابتلينا بها: وحدة حتى الموت.

– يبدو ذلك، ما هذا يا بسمة، أنت صغيرة، لماذا تتكلمين عن الوحدة، والموت هكذا؟

= الموت أهون يا كمال.

– وأشرف، ولكنك صغيرة على كل هذا، كيف عرفت؟ هل جننت؟

= جائز، غالباً...

– أنت خبيثة، صغيرة.... لكن خبيثه، ورائعة.

ياليتنى تعلمت فنا أفرغ فيه شحنات هذه الرؤية حتى أعفى نفسى من معاينة الفشل المر على أرض الواقع، كمال يفشل فى أن يواصل رسم المستقبل فيحاول أن يتخلص من أثقال الواقع ليجد نفسه متفرجا فى عيادة فنان أخطر، نقاش إبراهيم مع عبد السميع يجذب انتباهى أحيانا ولكننى أتقزز من تشنج عبد السميع.

= إبراهيم إنسان رائع يا كمال.

لابد للسعادة من أشواك تحميها حتى لا يقطفها عابر سبيل ثم يلقيها بعد بضعة خطوات"

أنت وأمى وجهان لعملة واحدة، أنت ضائعة فى السعادة الرخوة، وهى ضائعة فى الشقاء المر الجاف

– وعنيد، ولكن من يدرى حقيقته وراء كل ذلك.

= لو نجح مع نجوى، فسأعلم أن كل شئ ممكن.

– إنه يحاول النجاح مع كل واحد حتى مع عبد السميع.

= □ أطيق رؤية عبد السميع.

– إصراره على المجئ بانتظام يغفر له عماه.

= عبد السلام صبور ومثابر.

–.... ومناور كذلك.... ولكنه قد يستسلم أخيرا لطبق القشدة.

= □ أظن، لو تم نجاحه مع زوجته فهى المعجزة بعينها،

– أشفق عليه من أحلامه.

= ترى هل نستطيع أن نتكاتف لتحقيق نجاح واحد منا على الأقل.

– لن أخدع فى التماس الدفء باقتراب خائف.

= أرفض يأسك وسوف أعلن التحدى.

– تذكرى قول عمنا، القوة على أرض الواقع هى وحدها القادرة على قول "□".

أنا أشفق عليك وأنت تضرب بجناحيك فى قفصها المحكم، أكاد أقضم منقارك وأنت تلتقط ما تلقيه لك من حب

= تخاف يا كمال من نجاح أى آخر حتى تبرر عجزك.

– وراء رقتك نَمِرَة ذكية مفترسة يا بسمة.

= ووراء حكمتك ثعلب مراوغ عداء.

– نظل أصدقاء.

= لتكن صفقه أشرف من عقد إيجار مفروش.

– □ تبخلى على أحد بما يدور بخلدك.

= وماذا لو جرحته، فعلتها يوما مع أمى ومازلت نادمة.

– عندك حقك، لكنى عند رأيى.

= ما أمكن ذلك...، ربنا يستر.

-7-

لم أكد أعبر عن رأيى فى عبد السميع بصدق مباشر حتى كان ما كان، لست أدرى ما الذى دفعنى نحوه ثائرة مفترسة هكذا؟! كرهت وجهه وصفرته وهزة رأسه وإصراره على العمى وكلامه الشاحب عن الدين والطاعة بقدر ما شعرت بوحدته وحاجته لمن يكسره له، يبدو أنه لم يكن ينتظر ذلك، ومنى بوجه خاص.

لما انفجر كالبركان رُعِبْتُ وكأنى فجرته بنفسى، أحسست أنى أنا التى انطلقت من داخله أحطم كل شى، عاودتنى الشجاعة وساهمت فى ضبط حركته والحد من مضاعفات ثورته، نظر إلىّ فى عتاب وألم لم أر مثلهما فى حياتى، شئ ما اهتز فى كيانى حين أصر أن هذا هو كل ما يعرف من إحساس، رعبت رعبا هائلا من التمادى، تمنيت أن ترجع بى الساعة سنة كاملة إلى الوراء وأن يأتى هذا الخطيب الذى عرضته علىّ أمى وأن أقبله فورا، أحسست أنى على أبواب الجنون إن لم أكن قد جننت فعلا.

من يضمن أى شئ بعد ما حدث الذى حدث، عبد السميع الأشرم آخر من كنت أتصور أنه قادر على النطق بما فى داخله، فعلها كالنمر الهائج، لماذا أحِسُّ نحوه بكل هذا الحب الغامر بعد أن كنت أصاب بالغثيان بمجرد أن أسمع صوته؟ أخذت ألوم نفسى على سابق احتقارى له، حين تمادى فى هياجه كالثور الأعمى لم تعاودنى رغبة الهزء به أو النفور منه، كل أعمى مهما بلغ عماه هو بصير ولكنه عاجز، حتى أنتِ يا أمى، الوحيد الذى لم يهتز ولم يتراجع أمام ثورة عبد السميع هو إبراهيم الطيب، ظل يواصل معه الحوار، ويحمله مسئولية العجز والتحطيم فى آن واحد، كيف ذلك يا إبراهيم، إرحمه وارحمنا يرحمك الله، كان أقرب وأقوى وأقدر من شيخنا نفسه.

****

لن أذهب بعد اليوم..هذا فوق طاقتى وطاقة البشر أجمعين، وليذهب إبراهيم بإصراره إلى الجحيم...

هل تريدنى أن أفتح لك القفص؟، سوف تطير إلى قفص آخر فلقد نسيتَ قيمة الخلاء، أحيانا تطلق سراحك من قفص حبها إلى حظيرة مبادئ الحزب دون أى طيران خطر

المصيبة أنى أُعَدُّ من الجميلات، يحجزنى هذا الجمال وراء تقاطيعى المتناسقة، فإذا أضيف إلى شكلى ما يتصورونه من رقتى وذكائى المزعومين، ضعت أنا بلا أمل فى إنقاذ، لا أحد يعرفنى أنا

ورطتى أكبر من كل تصور، كيف سأتزوج بعد كل هذه الرؤية، هل أنا التى ستتزوج أم برج عقلى الطائر؟، لا أنكر أنى أغلى بالرغبة

****

– لم تذهبى للعلاج منذ أسابيع يا بسمة.

= شفيت يا أمى والحمد لله.

– قلبى دليلى يا ابنتى، مازال المشوار طويلا، هل حدث منهم ما يكدرك؟

= قلت لك شفيت، وعندى دروس و داعى لضياع الوقت.... كفى ما كان.

– هل هذا هو الشفاء؟

= لست أدرى، فأنا لم أدر ما هو المرض حتى أعرف ما هو الشفاء، أنت تعلمين أنى ما ذهبت إ إرضاء لك، وهأنذا قد شفيت والحمد لله.

– لهجتك تدل على ما تقولين.

= ماذا تريدين منى يا أمى؟ أنا ما طاوعتك أول الأمر إ تكفيرا عن تهورى.

– هل حدث شئ يا ابنتى؟

= طبعا تحدث أشياء.

– ماذا بالله عليك؟

= بالذمة هل هذا كلام؟ لم أحك لك عن أى شئ من قبل، فماذا أحكى الآن؟

هذا الإلتحام مع آخر حتى الذوبان فى كتلة واحدة من اللحم الذى يغلى باليقظة والنشوة يتمثل أمامى فى كل لحظة، لا أعرف سبيلا إليه

– أنا لم أسألك قبلا لأن الأمور كانت تسير.

= كانت تسير نحو الجنون.

– كفى الله الشر يا ابنتى، كان وجهك نضرا ونظراتك توحى بالأمل.

= ثم عقلت وتركت الأمل لأصحابه، وليس عندى مانع أن أتزوج اليوم قبل الغد.

– ظنى فى محله، دائما تذكرين حكاية الزواج هذه عند ما تسوء الأمور.

= تضطرينى يا أمى لما تعرفين، طاوعتك فى الأول حتى كان ما كان، فماذا تريدين الآن؟

= تتكلمين بالألغاز وأنا أعلم شيئا من هذا الذى كان، كل همى أن أراك سعيدة

– وكان همك قبل ذلك أيضا أن ترينى سعيدة حين جئت لى بعريس الغفلة.

= أعمل ما أراه مناسبا فى كل وقت.

– ما أسهل تمنيات السعادة وما أصعب الطريق إليها، □ فائدة يا أمى، □ فائدة.

= تذكرين أنى قلت لك عن نفسى □ فائدة"، وساعتها رفضتِ أنت استسلامى، وتريدين منى الآن أن أقبل هذا اليأس لكِ وأنت فى هذه السن يا ابنتى؟

– ماذا تريدين أن تقولى يا أمى، ماذا تريدين منى؟

= لن يكون مصيرك هو مصيرى.

– نعم؟، نعم؟، أنت تقولين ذلك يا أمى؟، الآن؟، ألم يكن هذا هو بداية اختلافنا منذ شهور، أنت يا أمى؟، ترفضين مصيرك في!

= قلت لك من الأول أدفع عمرى وتعالجين مما أنت فيه.

– مما نحن فيه..

****

لست وحيدة.

هذه العجوز بإصرارها وشجاعتها تخجلنى من نفسى، تخلت عن أنانيتها بعد أن □ح لها الأمل ولو كان سرابا، الناس □ تستسلم اختيارا ولكنهم يقتلون الأمل أو□، أمى يا حبيبتى سوف أذهب وأصنعها مهما طال الزمن.

= شئ ما فى داخلنا يظل ينبض بالحقيقة حتى طلوع الروح يا إبراهيم.

– عدت بالسلامة يا بسمة.

= عدتُ أطلب السلامة.

– كنت واثقا أنك ستعودين.

= عدت من أجل خاطر أمى، ربما بد□ عنها.

– بل من أجل خاطر ابنتك.

لا أخدع فى العلاقات الحرة المزعومة فهى أخبث من الزواج فى نظرى، علاقات تشبه حجز ليلة فى فندق عام، الزواج عقد إيجار مفروش

نجح الأطباء فى إعادة الإبصار للعمى فلماذا لا يقوم طبيبنا هذا بإعادة العمى للمبصرين؟.

= عنيد أنت مثل النيل يحفر طريقه فى الصحارى وبين الجبال عبر آ□ف السنين.

– □ جدوى من أى بطولة خارجك، إبحثى عن النيل والشمس والجبال تجدينها فى الداخل.

= أطمئن لإصرارك ووضوح رؤيتك.

– صِدْق أمك وشجاعتها يطمئن جيلا بأسره.

= اضطرابات الطلبة تغرينى بالمساهمة، ولتكن المسئولية فعلٌ يومى.

– على شرط أن تكتمل فى وعى شامل.

= خوفى من ثورة مثل ثورة عبد السميع ذلك اليوم حين انفجر كاللغم غير الموجه.

– يبدو أحيانا أنه □ مفر منها، أو مما هو مثلها، ربما تسمح بأن يراجع كل واحد قدرته وإحساسه معا، ربما يكون ذلك مكافئ لتاريخ الثورات بمضاعفاتها.

= □ ضوابط للجنون و□ حدود للتحطيم.

– أى شئ هو أفضل من الموت واليأس والضياع؟!

= تشجعنى على التشنج والصراخ.

– بل أحملك مسئولية التشنج والصراخ.

= حكمتك ترعبنى، تزيد طاقة شبابى ومسئولية شيخوختى فى ذات اللحظة.

– قانون الحياة واضح رائع.... لكنه كما تعلمين.

= □ سبيل غير ذلك، هربت من مسئولية أمى، ومسئولية بيت صغير هادئ، فوجدت نفسى أمام مسئولية الناس جميعا.

– دون نسيان مسئولية وجودك شخصيا بكل عبء العلاقات البسيطة العادية، لن أطمئن عليك حتى تتزوجى ويعلن انتصار الواقع جنبا إلى جنب مع استمرار الحلم.

= أنت كالصقر اليقظ، كيف أهرب منك؟

أنا فى أول الطريق.... أريد قدوة ، أتطلع إلى أى نجاح حتى أنجح مثله.

لا أبيع نفسى ولو للإله نفسه، ولا أستطيع أن أعيش وحيدة

هل ندفع ثمن هذه الرؤية التى ابتلينا بها: وحدة حتى الموت

– بل كيف تهربين من نفسك؟

= وأنت؟، أنت هارب بجلدك من بيتك وتلوح لنا طول الوقت بما فشلت فيه.

– ﷺ أنكر مصيبتى، و ﷺ أخدع أحدا.

= ماذا فعلت مع نجوى.

– تعرفين كل شئ...

= أقرأ الحوار الصامت.

– أعرف ذلك، وأطلب مساعدتك.

= ﷺ تَخَفْ منها.... ألمها يحميها من تفكك فردوس الرخو.

– لست وحيدا ما دمتِ ترينى بهذا الكشف.

= وأنا كذلك.

– من أين لك بكل هذه الحكمة فى هذه السن؟

= ومن أين لك أنت بها؟

– من الوحدة، والهجر، والدعارة، والجنون، والإيمان.

كل أعمى مهما بلغ عماه هو بصير ولكنه عاجز

ما أسهل تمنيات السعادة وما أصعب الطريق إليها

الإثنيـــن 09-07-2018

العدد: 3964 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الثامن "مختار لطفي" رواية "مدرسة العراة"

كل واحد وله مشكلة، أنا أرفض أن يكون لى مشكلة أصلا، أختبئ أحيانا فى إجابات عابرة لا تعنى شيئا، تموت قبل أن تولد فلا تفيد فى التخفيف من سخف سؤال لا معنى له

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية "مدرسة العراة" (1) تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط".

مختار لطفى

وهذا هو الفصل التاسع

"مختار لطفى"

-1-

"لماذا أنا هنا؟" "نفس السؤال"، قاله كمال فى صدق وحيد حائر، وقالته نجوى فى خوف، وقاله غريب دون أن ينطقها، وأراه فى عيونهم فردا فردا، وأسأل نفسى قبلهم وبعدهم: "لماذ أنا هنا؟".

كل واحد وله مشكلة، أنا أرفض أن يكون لى مشكلة أصلا، أختبئ أحيانا فى إجابات عابرة تعنى شيئا، تموت قبل أن تولد فلا تفيد فى التخفيف من سخف سؤال معنى له، عيونهم تريدنى كما أنا، وتتحدانى فى نفس الوقت،

وتحاول أن تخلق لى مشكلة من شئ، لعلى هنا لأتأكد أنه يوجد حل آخر، حرية إ بإلغاء كل قيد تماما، تماما، ألغيت ا رتباط والمبادئ والأهداف مرة واحدة، صنعت منها لفافة مثل بقايا وجبة سمك: الشوك مع القشر مع الأمعاء، يبدو أننى كنت فى عجلة من أمرى حتى نسيت أن أستخلص اللحم الأبيض، إما أنى ألقيته مع اللفافة أو أن قطة بشرية انتهزت الفرصة فسرقته منى دون أن أدرى، لعلى هنا أبحث عنه، أبحث عن لحمى الأبيض فى حلقة السمك البشرية فى عيادة طبيب مخرف يحاول أن يصدق نفسه، لن أحصل على ذاتى بلا خوف إ إذا تخلصت من كل شئ، كل شىء، حتى ذاتى نفسها، مفر من أن أتخلص منها، كيف أتخلص منها قبل أن أحصل عليها؟ أنا لست محاربا، أنا أرفض أن يكون لى قضية أحارب من أجلها، وجودى هو كل شئ من البداية إلى النهاية، هو ماهيتى وغايتى وقدرى، هل أنا بهذا أجعل منه قضية؟ ليكن، قضية قضية لكننى لن أدخل فى سبيلها معركة، المعارك تحدد وجهتى وأنا أريد أن أتحرك بلا وجهة، أريد أن أطير فى كل اتجاه.

"حريتى" هى زادى وسعادتى وثروتى وكيانى، علمنى والدى أ أتنازل عنها بأى ثمن، والدى اغتال كل من تنازل عن حريته وراح يمارسها هو بالنيابة عنه، كان سجانا ممتازا وقحا يتردد، ظلت والدتى نزيلة قفصه الذهبى حتى ماتت، لم أتعرف عليها أبدا إ من وراء قضبان، لم تتعرف على هى أبدا حتى داخل ذلك القفص الذى حبسها فيه والدى، كنت أتسحب داخلا خارجا منه لصغر حجمى دون أن يلحظنى أحد، هى لم تلحظ ذلك أبدا، نسيتنى تماما – أو هى لم تعرفنى أصلا – ربما نشغالها الدائم بالتقاط بقايا وجبات والدى الشهية، كانت تلملم نفسها كالمأخوذة فى سعادة غبية، ظللت أنتظر منها أن تفيق من هذا ا نجذاب بأى قدر لكنها كانت قد نسيت كل شئ، حتى أوقات إفاقتها كان أغلب كلامها متفجرات تطلق سيلا من الشتائم والتوتر الذى يهدأ إ بعودة التنويم وا نجذاب، كبرتُ وأنا أشاهد هذه التركيبة العجيبة وأتساءل عن حقيقة

لعلى هنا لأتأكد أنه لا يوجد حل آخر، لا حرية إلا بإلغاء كل قيد تماما، تماما، ألغيت الارتباط والمبادئ والأهداف مرة واحدة.

استسلامها، تجرأت، ذات مرة وفتحت لها القفص، وبد من أن تخرج منه كادت تقتلنى.

= لقد كبرت وأريد راحتك وسعادتك يا أمى.

– وهل اشتكيت لك يا أخى.

= أريد أن أعطيك بعض ما يمنحنى أبى من مال حتى تتصرفى فيه بما تريدين.

– "هو" يكفينى و حاجة لى بما تعرض على.

= كله من خيره، ولكنى أحس أنك تجرئين على الطلب منه يا أمى.

– أنت تعرفه، كبرتَ وكدت تفسد، ظفره برقبة كل الناس.

= فلتكفى إذن عن الأنين.

– أنين ماذا يا أصم ؟ مالك بى أنت..؟ تشطَّر على خيبتك.

وتشطرت على خيبتى وخاصة بعد أن ترك مشكورا ما أعاننى عليها، أعفائى بما ترك من مال من معركة لقمة العيش، أعطانى فى حياته دروسا فى الحرية التى نصبها شركا للآخرين والأخريات، ثم فرضها علىّ بعد موته، حاولت أن أطبق طريقته الخاصة فى ممارسة الحرية فلم أستطع، تأكدت أنه يمارسها حتى يستطيع أن يمارسها مَنْ حوله، حاولت أن أتزوج من شبيهة أمى وأن أمارس لها حريتها بالنيابة، فشلت فشلا ذريعا، شئ ما ثار فىّ حتى أفشلنى من البداية، عظمة أبى لن تتكرر، كان يطلق سراحهن فى الحجرة كما يشاء، (لم تكن أمى وحدها) ثم يرجعهن إلى القفص قبل أن يفتح الأبواب والنوافذ، أنا – بخيبتى – فتحت مرأتى القفص عنوة فطارت لفورها، طارت بغباء لم تتمتع به أمى، طارت بلا أجنحة فوقعت تتخبط، ما أبشع منظرها وقد اختلطت دماء الإصابة بطين الكذب بنفايات البشر، وقفت أتأمل جريمتى فى هدوء سعيد وأنا أوقع ورقة الطلاق.

هكذا فشلت أن أكون أبى.

لن أحصل على ذاتى بلا خوف إلا إذا تخلصت من كل شئ، كل شئ، حتى ذاتى نفسها

بدأت أسعى إلى حريتى بطريقتى الخاصة، حريتى هى وحدتى، جنتى هى سكونى، لا لغو فيها ولا تأثيم، كونى ينتهى عند أطراف أصابع قدمى، أسأل نفسى بعد كل ذلك "لماذا أنا هنا إذن"؟ يهتف بى صوت أبى فى حماس خبيث.

– أنت هنا لأنك تبحث عن الناس.

= جاءتك نيلة، تضحك على غيرى يا كذاب، أنت آخر من يتكلم عن الناس.

– كانت حياتى مليئة بالناس.

= العبيد ليسوا ناسا ولكنهم تكرار سمج لصورتك الأخرى.

– هذه الفلسفة ستحرمك من الحسنيين.

= إشبع بهما، لن أكونك أبدا، أسعى إلى حريتى بطريقتى، زوجتى طلقتها حتى لا تصبح مثل أمى المسكينة.

– أمك لم تكن مسكينة يا غبى.

= أنت لم تعرفها على طول ما عاشرتها.

– لن تحتمل الوحدة وستقع صريع خيالك الأحمق.

= بل أحتملها فهى أفضل من كذبك.

– تشترى ناسا بعض الوقت فى عيادة مجنون، يا خيبتك، إنتظر ما يجرى لك،

= إطمئن، أنا قادر أن أفشل أى محاولة للاقتراب، من أى نوع.

– أنت حر، خيبت أملى فيك.

= هذا يسعدنى... جنتى ليس لك مكان فيها.

– أنت لا تفعل شيئا إلا أن تواصل الهرب، فلا تكون إلا مقلوب صورتى.

= هذا أملك الذى لن يتحقق أبدا.

****

– قل لى بربك يا غريب لماذا أنا هنا؟

= تسألنى؟ وأنا متورط مثلك تماما.

أنا لست محاربا، أنا أرفض أن يكون لى قضية أحارب من أجلها، وجودى هو كل شئ من البداية إلى النهاية، هو ماهيتى وغايتى وقدرى

– إذن أنت تعرف مثلى؟

= بل أعرف مثلك!!!.

– إذن قل لى: لماذا نحن هنا؟

= نحن نتحدى محاولة مجهولة العواقب.

– يا شيخ !!؟

= محاولة فاشلة مسبقا، إ أن فشلها هو عين النجاح.

– كنت أجد فى الأنفاس العطرة الزرقاء والماء الأصفر وتهاويم الخيال خير ونيس، فلماذا أحضر إلى هنا.

= لتتأكد أن المخدرات الكيميائية لتعديل المزاج هى خير وأبقى.

– فلماذا نتوقف بعد أن تأكدنا.

= لكل شئ أوان، أخاف أن نذهب مبكرا فنخدع فى تصور أمل ما فى مكان ما، بد من التأكد من فشل كل البدائل، وبالنسبة لك، أمامك فرصة دائما لصيد ثمين.

– أعلم أنك تعنى إشعاعاتى الجنسية، أخفى عليك: إنه بالرغم من غمزات السنارة الأكيدة فإنها كثيرا ما تخرج خالية بعد أن يأكل السمك الطعم بنذالة.

=.....

– مفر من المثابرة حتى تنضج كل الثمار.

=.....

– ثم يقطفها غيرى، حتى "الحاجة" فردوس ترفل فى روض الشهوة فيقطفها زوجها عبد السلام فى متعة سرية، ثم هو يتصنع الرفض الكاذب.

= زوجها يا أخى.

– تنس يا غريب أننا فى الهوا سوا.

= يا ليت، أنت تعرفنى، وإن كنا نتفق فى أن هذا ا لتزام الزواجى أخبث وأنذل من أن نتحمله.

المعارك تحدد وجهتى وأنا أريد أن أتحرك بلا وجهة، أريد أن أطير فى كل اتجاه.

– جربته يا غريب، و أخفى عليك أنى أعيش لذة ال نعتاق حتى الآن، أحتفظ بصورة ورقة الطلاق فى حافظتى طول الوقت حتى أتأكد من حريتى بين الحين والحين، لم يبق إ أن أكَبّرُها وأعلقها على زجاج السيارة.

= فلماذا تحسد عبد السلام على "الحاجة" فردوس.

– أنا أحسده يا أخى، أنا أقرر أنه حتى هذه البضاعة الرخوة، التى تفتحت فى الزحمة هى ليست فى متناول من يعرفها ويقدرها حق قدرها.

= مازلت يا مختار تطمع فى صفقة سرية.

– أحسب إ أنك أيضا تتمناها.

= لى ظرفى الخاص.

– أنا بد وأن أوفّق بين حريتى وحقى فى حريم الدنيا.

= تريد امرأة من نوع خاص؟

– بلا زواج و ارتباط.

= لى صديقة، أشعر أنكما أقدر على التفاهم.

– ماذا تقول بحق الطب والأطباء؟ كيف تواتيك كل هذه الشجاعة.

= قلت لك لى ظرفى الخاص، وأحب أن أضع الأمور فى نصابها.

– أفهمك.

= الشخص المناسب للشخص المناسب.

– أفهمك.

= أعتنق آراءك يا مختار و أستطيع تنفيذها.

– ليس لى آراء يا غريب، وأنت سيد العارفين.

= وهذا هو ما أعجب به على وجه الخصوص.

– أحتاج إعجابك، فهو يذلنى.

= كذاب.

– غريب؟!؟

"حريتى" هى زادى وسعادتى وثروتى وكيانى، علمنى والدى ألا أتنازل عنها بأى ثمن، والدى اغتال كل من تنازل عن حريته وراح يمارسها هو بالنيابة عنه، كان سجانا ممتازا وقحا لا يتردد، ظلت والدتى نزيلة قفصه الذهبى حتى ماتت

ثم ماذا يا غريب، أنا كذاب وإبن كلب، ماذا تقترح حتى أكون صادقا؟ لو أنى أعرف أنك تستطيع إيذائى، و تحاول تغييرى، وأن خيبتك أكبر من خيبتى لخفت من رأيك فى؟ هل تريدنى صادقا لدرجة أن أعلن حاجتى لهمسة رضا أو لفته تقدير أو كلمة رغبة أدفع مقابلها كيانى وعمرى ووجودى؟ ما أمارسه ليس كذبا فحاجتى إلى تقديرك أو حتى حضنهم لن تذلنى ما حييت، الفرصة سانحة كما قلت وسوف أواصل البث حتى تلتقطنى محطات ا□ستقبال المناسبة، أقرب محطة جاهزة الآن تلوح لى فى عينى هى نجوى شعبان، تستمع إلىّ بشغف وأملى كبير فى شجاعتها التى حطمت بها عشها الصغير، □بد أن تكتمل هذه الشجاعة بأن تستقبل بثى الدافئ، مطلقه وجميلة وتحسن ا□ستماع وتعشق الحرية، ماذا تبقى لها لتكون ذلك الطير الخليق أن يحلق معى فى السماء الواسعة،

= يا نجوى أنت خسارة، قلت لك ألف مرة أنت خسارة.

– مازلت أفكرفى حديثنا آخر مرة عن الحرية والحيوانية.

= هل عرفت كم هو راق ذلك الحيوان المتناسق مع نفسه؟

– عرفت، إ□ّ أن...

= لزوم لإ□ّ، يقولون إنها مدخل الشيطان.

– هذا من صالحك.

= □.... شيطانى واقعى يحب "ا□ستثاء بإ□." يحب حروف العطف وعلامات الضم.

– يا مختار، أنت يعنيك فى هذه الدنيا إ□ هذا الشريط المعاد.

= هو أصل الحياة، و□بد من تعميق المعرفة من خلال التجربة.

– تجربة ماذا يا مختار؟

= تجربة معرفتك، "فى البدء كان الجنس".

– بإذن شيطانك الغبى؟

، كبرتُ وأنا أشاهد هذه التركيبة العجيبة وأتساءل عن حقيقة استسلامها، تجرأت، ذات مرة وفتحت لها القفص، وبدلا من أن تخرج منه كادت تقتلنى.

= جربى.

– إبراهيم عنده حق.

= إبراهيم موتور مكبوت مدّع، ◻ تغرك مساعداته ومبادراته، كلها لحسابه، كلها لتضميد جرحه بلا طائل.

– حتى هذا، لو صح، فهو ◻ يخفى حقيقتك.

= ماذا تعنين بحقيقتى يا نجوى؟ أفسدك هذا الغبى المعقد المدعو "إبراهيم،

– لماذا تخاف من مجرد ذكر اسمه؟

= أنا ◻ أخاف، المحتاج هو الذى يخاف، وأنا ألغيت احتياجى من زمن بعيد.

حاولت أن أتزوج من شبيهة أمى وأن أمارس لها حريتها بالنيابة، فشلت فشلا ذريعا.

– هلا نظرت فى نفسك قبل النوم وبعده.

= ماذا تعنين يا نجوى.

– أعنى أنك إن هربت من العالم كله فلن تستطيع الهرب من نفسك،

= ◻ تحاولى أن تخدعى نفسك بأن تختبئى فى الهجوم على الآخرين، هذه لعبة سخيفة ترددونها كالببغاوات.

– ماذا تريد، يا مختار.

= ◻ أريد شيئا.

– ◻ يا شيخ؟!!.

= أريد حريتك المقدسة.

– فى حضنك؟

= طبعا.

– اطمئن يا مختار، انطفأت حاجتى للرجال أمثالك و◻ أملك لك إ◻ ا◻حتقار.

= هذه بداية الطريق المبهج.

– يقززنى عماك ودناءتك، وأنت ◻ تحس بأى مخلوق،

= أنظرى فى عينى تعرفين أنى أحس بك، وبجسدك الفائر الذى تدعين موته وهو يدعونى ويبعث فىّ الحياة حتى قاع وجودى.

– مختار يالطفى.

= نعم.

– الله يخيبك.

****

أفسدهن ذلك الوغد المدعو إبراهيم، □ فائدة وهو واقف لى كاللقمة فى الزور، حامى حمى الحريم، جبان موتور.

= ما هى حكايتك ياابراهيم؟

– خيرا يا مختار.

= أنا الوحيد الذى يفهمك وأنت تعلم ذلك.

– يجوز,أنا أنتظر هذه اللحظة منذ سنين، أن يفهمنى أحد، قل لى يا مختار من أنا؟

= أنت مجرم جبان.

– فقط؟!!.

= تسخر أم تميع الموقف بخبثك.

– أبدا، ولكنى أريد رأيك كاملا.

= وقواد وحقود خبيث.

– صحيح، إ□ أنى أحاول فى المنطقة الأخرى أيضا.

= □ تخدع نفسك، فأنت تكبتهن لصالحك.

– هنّ؟ من "هنّ" يا مختار.

= كبتك وخوفك يحبس الأطفال فى مهودهم حتى تكاد تموت من الشلل والرعب.

عظمة أبى لن تتكرر، كان يطلق سراحهن فى الحجرة كما يشاء، (لم تكن أمى وحدها) ثم يرجعهن إلى القفص قبل أن يفتح الأبواب والنوافذ

– أنت تصور الأمر بمبالغة سخيفة، أنا لى أسبابى التى تخيفنى من الخيانة والغدر، وقد قلت لك إنى أحاول أن اخترق كل ذلك.

= أنت تستأهل إ الخيانة، أى طائر يطير بعيدا عن حظيرة جبنك تعتبره خائنا.

– جرحِى عميق يا مختار.

= تتكلم عن الجرح فكذبك يطاق ومسكنتك مزرية.

– الحياة صعبة يا مختار و أستطيع أن أعيش وحيدا حتى بعد أن كان الذى كان، أنا أعجب كيف تطيق أنت كل هذه الوحدة؟

= أنت مالك؟، ثم من قال لك إننى وحيد؟

– هل نجحت أنت أو غريب أو كمال فيما فشلتُ أنا فيه؟

= أرفض تقييمك لفشلى أو نجاحى، معاييرك ياابراهيم يا طيب تهمنى.

– أنا أسألك عن معاييرك أنت، هل نجحت يا مختار؟ علِّمنى يا أخى،

= كفى تخابُثًا واستعباطا.

– أتحملك لأنى أقدر صدق محاولتك ولو إيذاؤك لطفولة الآخرين لظللتُ بعيدا.

= حامى حمى العيال والحريم أنت، أليس كذلك؟

– منظرك وأنت تتوسل الرضا بالإثارة الجنسية يؤكد لى فشلك رغم ادعائك.

=راجع عجزك أو، وأصلح نفسك قبل أن تعلن وصايتك على رعايا مملكة الخوف.

– الضحايا تملأ الشوارع والبيوت، والمجتمع القاسى يضرب فى عمى فى كل اتجاه وأنا مثل كل الناس.

= أمور تخصنى أنا أعيش وأحقق رغباتى، والضحية تريد ذلك.

– هكذا!!... تلقائيا؟

بدأت أسعى إلى حريتى بطريقتى الخاصة، حريتى هى وحدتى، جنتى هى سكونى، لا لغو فيها ولا تأثيم، كونى ينتهى عند أطراف أصابع قدمى

= نعم تلقائيا، أى فعل غير تلقائى هو حقير دوام له، التلقائية هى الأصالة.

– عنيد يا مختار ومحير، يا ليتنى افهمك، لعل هذا هو الطريق، هل نجحت؟

= كفى تخابثا، خوفك يمنعك من أى فهم آخر.

– احتياجك يمنعك من أى فرصة للتفاهم.

= أقوالك تتردد كالحكمة على أفواههن أضعتَ علىّ فرصا رائعة، قرفتنى الله يقرفك.

– أقول ما عندى، لأتيح فرص اختيار حقيقية، أليست هذه هى الحرية.

= وأنت تستعمل ذكاءك فى تكبيل عقولهن وكبت حرياتهن، أنت وحيد يا إبراهيم أكثر منى.

لن أكونك أبدا، أسعى إلى حريتى بطريقتى، زوجتى طلقتها حتى لا تصبح مثل أمى المسكينة.

– صدقت، أنا وحيد يا مختار، وأسعى بكل جهدى لأكسر هذه الوحدة ليل نهار.

= بنشر تعليمات القمع ونشر أوهام أنت أول الواثقين من استحالة تحقيقها،

– سأظل فى المحاولة حتى النهاية.

= كلام فارغ.

.....

وغد لئيم، لن أتنازل عن حريتى حتى لو لم تنكسر وحدتى، الوحدة غذاء الحرية وبالعكس، أنت تعرف شيئا عن الحرية يا إبراهيم، ما أنت إ مكبوت تكبت الناس لحسابك.

– 2 –

– إسمى صفية، قادمة من طرف صديقك غريب الأناضولى.

= أهلا، وسهلا، لكن.

– ولكن ماذا؟ حدثنى عنك وقال إنك تحتاج إلى امرأة من نوع خاص، وأنا من نوع خاص، أ ترى ذلك؟

= هه.... لقد فهمنى غريب خطأ، لقد كان نقاشا لوجهات النظر.

–اعْتَبِرنى مجرد وجهة نظر من لحم ودم، جاءت تتفاهم معك مباشرة.

= تجربة مثيرة.

– أنت لم تر شيئا بعد.

ماذا فعلت يا غريب بالله عليك,؟ فكاهة؟ أم سخرية؟ أم تحد؟ أم تجربة؟ أم أنك تتغابى؟ ماذا تظن بى أيها الأبله؟ أنا أفهمك، ومع ذلك فلتكن التجربة والمصادفة أروع من الحقيقة والحسابات.

لم أضِعْ وقتا، وجدتها امرأة من نوع خاص فعلا، تفاهمنا بسرعة ولزم كل منا حدوده، تعودتْ على الحضور كلما ضاق بها الحال أو عز الصيد، ثم زادت فترات حضورها بل انتظمت تقريبا، ثم لم تعد تطلب منى نقودا ولكنها أصبحت تتصرف فى البيت كما لو كانت صاحبته، سألتها يوما لماذا كفت عن الذهاب إليك يا غريب؟

– أحسست بعجزى عن مساعدته تماما.

= مساعدته فى ماذا؟

– كان الألم يعتصره فى كل مرة وهو يواجه عجزه.

= هل يكون هذا هو السبب الذى دعاه لإرسالك هنا؟

– ربما.

=.... شكر الله سعيه..!.

– مجال للسخرية، هل أنت نادم على ذلك؟

= أبدا ولكنى أفكر فيه هو.

– أنا شخصيا ارتحت والشهادة لله.

= الحمد لله أنها راحة فحسب.

– ماذا تعنى؟

= كنت أخشى أن تدعى حبى.

ولا أخفى عليك أنى أعيش لذة الانعتاق حتى الآن، أحتفظ بصورة ورقة الطلاق فى حافظتى طول الوقت حتى أتأكد من حريتى بين الحين والحين، لم يبق إلا أن أكبّرها وأعلقها على زجاج السيارة.

– أنت تعلم أنى أحب غريب أو وأخيرا.

= هنيئا له من بعيد لبعيد.

– أما أنت فطريقتك فى الحياة تعجبنى.

= ليس لى "طريقة" فى الحياة.

– وكذبك هذا أيضا يعجبنى.

= حتى أنت يا صفية تتهمينني بالكذب.

– الكذب ميزة وليس تهمة ياأكبر حر.

= هل كذبت عليك؟

– طبعا.

= فى ماذا، ذكرينى.

– فى إدعائك إهمالى، وتصنعك التجاهل حين أتأخر أو أغيب.

= هذا بديهى.

– تقدمنى لأصدقائك على أنى خادمة نصف الوقت.

= بد من تفسير نتظام مجيئك أمام الناس والجيران.

– هذا أريح لى، أنا فقط أذكرك ببعض التفاصيل حتى تتمادى فى ادعاء الصدق.

تعودت عليك يا صفية والذى كان قد كان، بد من رسم خطة إطلاق سراحى بسرعة، أنا يخفى على كيف تتطور الأحداث، وها أنت تسدين نقصا هائلا فى حياتى، بد أن أفكر عشر مرات قبل أن أتخلص منك، تخلصت من زوجتى قبلك بأن طيرتها دون أجنحة، أما أنت فأجنحتك أكبر من طائرة بوينج، سوف أرتب أمورى حتى أطير أنا، جاء دورى.

– أحيانا أفكر أن أكتفى بوجودى هنا، ولو فى ليالى الشتاء الباردة.

=....

– ولأكن خادمة "طول الوقت"، أنا لم أنس عملى الأصلى.

أنا لابد وأن أوفق بين حريتى وحقى فى حريم الدنيا.

= تريد امرأة من نوع خاص؟

– بلا زواج ولا ارتباط.

= عرض مغر ولكن المقابل قد يكون خطيرا.

– مقابل إ اللقمة والصمت.

= وماذا تجنين من هذا؟

– وماذا أريد أكثر من هذا؟

= أشك فى نواياك.

– أريد إجازة طويلة من دورى "العام"، ولن أكلفك شيئا.

=.... ....مانع...

– نكتب بنود الصفقة حتى نختلف.

= عندك..عندك؟ لم يبق إ المأذون.

– تخف فلست غبية حتى أتزوجك.

لم أنتهز الفرصة، ولم أطمئن، بل زادت شكوكى، هى تطلب منى شيئا و تتعدى حدودها أبدا، يحسدنى أصدقائى عليها و يستطيعون إخفاء معرفتهم لطبيعة علاقتى بها، أخذت أفكر – بالرغم منى – فى طبيعة علاقتها بغريب ولماذا تكن له بالذات كل هذا الحب ؟ هل كانت ستحبه بنفس الدرجة لو أنه لم يكن عاجزا، حب هذا أم شفقة؟ هل الذى حافظ على حبها له طول هذه المدة أنه لم يدخل ا متحان الحقيقى: حب مع وقف التنفيذ، مالى أنا؟

ضبطت نفسى متلبسا مرة – أو مرات – بأمنية أن تحمل لى صفية بعض هذه المشاعر، ولكنى طردت الفكرة فى ازدراء.

= أ تذهبين إلى غريب الآن البته يا صفية؟

–.... إطلاقا.

= لماذا؟

– قلت لك لأنى أحبه.

= أحيانا يتحرك فى داخلى شئ غامض حين تتكلمين هكذا بحرارة عن حبك له.

إن هربت من العالم كله فلن تستطيع الهرب من نفسك.

انطفأت حاجتى للرجال أمثالك ولا أملك لك إلا الاحتقار.

– إلى أين أنت ذاهب يا سى مختار، هأنذا أرد إليك جميل تحذيرك، حذار من الخروج عن بنود العقد، ﷲ حب، ولا مقابل، ولا يحزنون.

= لم نتفق على حكاية "يحزنون" هذه.

– نضيفها للعقد يا سيدى ومولاي.

= لست سيدك ولا مولاك.

– ألست خادمتك؟

= أمام الناس.

– ووراء الناس: ماذا أنا بالنسبة لك؟

= إنسانة صادقة.

– هل تأكدت من صدقى؟

= كل تصرفاتك تدل على أنك ﷲ تكذبين.

– أنت أعمى يا مختار،

= نعم؟ نعم؟

– ﷲ ترى إلا ما تريد، حتى فى السرير.

= ماذا تريدين قوله.

– ﷲ شئ.

بعد هذا الحديث: بدأت أراجع علاقتنا، خائف أنا، كنت أحسب أننا يمكن أن نعيش معا دون أن يكون هناك "علاقة" قابلة للفحص أصلا، كانت مفاجأة خبيثة حين أدركت أنها تقدم لى جسدها باحتراف خال من أى إرادة، فى تلك الليلة بالذات، نظرت إلى عينيها أتأكد من ظنونى فوجدتها تتفرج على من بعيد وأنا مزهو برجولتى، لم أحتمل نظراتها ولم أستطع أن أكمل الشوط.

= ماذا تقول عيناك يا صفية؟

–.... ربنا يعطيك العافية، ﷲ تفتح الجرح يا مختار وخذ حاجتك دون تردد.

= لم أعد أعرف ما هى حاجتى؟

– الضحايا تملأ الشوارع والبيوت، والمجتمع القاسى يضرب فى عمى فى كل اتجاه وأنا مثل كل الناس.

– حديث عيناى ليس من بنود ا□تفاق، فلا تفسد ما بيننا.

= ماذا "بيننا" يا صفية؟

– خادمة بلا أجر، على أن تشمل خدمتها طلبات السرير.

=... هذا صحيح,... ولكن.... ألست أنت التى نبهتنى إلى طبيعة ما يجرى؟

– كنت تتحدث عن الصدق والكذب، فحدثتك عن عماك.

= أفسد ذلك كل شئ.

– □ تبالغ فإنى مستعدة للتكفير عن خطئ بأن أدفع ضعف الحساب.

= ضعف ماذا؟ ونصف ماذا؟

– ضعف الحساب.... أرضيك أكثر (!).

= يبدو أن علاقتنا بدأت تتعدى كل ذلك.

– كله إ□ الحب، لقد تجاوزنا كلانا مثل هذا الكلام الفارغ، □ مكان للكذب والخداع بيننا.

= التعود أقوى وأخطر من الحب.

– أخشى أن تكون النهاية قد بدأت، أنا □ أنكر أنى أفضل أن نستمر هكذا، □ أكثر، و□ أقل.

= لماذا..؟

– سريرك المضمون أفضل من وقفة الأرصفة والكرسى الخلفى للعربات، خاصة فى ليالى الشتاء.

= أهذا كل ما أعنيه لك؟

– هذا هو ا□تفاق.

= ليس تماما..

– بل تماما ونصف، أم تريدنى أن أدفع مقابل دفء سريرك أيضا!

لم أنجح بعد تلك الليلة، بدأت أحس بالخوف كلما هممت با□قتراب منها،

، لن أتنازل عن حريتى حتى لو لم تنكسر وحدتى، الوحدة غذاء الحرية وبالعكس،

أحسست بالخطر ولكنها لم تتنازل عن النوم فى سريرى حتى فكرت أن أتركه لها إلى الأريكة التى فى الصالة، لو كنت زوجها لطلقتها دون تردد، ميزة الزواج أنه يحتمل الطلاق، ﷺ أدرى ماذا أفعل الآن.

هى ﷺ تطالبنى بأى شئ.

أى تجربة قذفتنى فيها يا غريب حتى تختبر آراءك، أوقعتنى فى المصيدة وأنا الثعلب المراوغ إلى الأبد، ولكنى متأكد أنى لن أعدم حلا.

-3-

قالت لى ملكة مناع.

-.... آراؤك كلها لصالح غرائزك.

= تخافين من رغبتك فى الحياة وفى الحب الطليق، مصهر الجنس هو الطريق إلى الحقيقة.

- غالى يقول إنى باردة.

= لم يعرف الطريق إلى مفاتيحك.

تعجبت من نفسى وأنى ما زلت قادرا على أن أقول نفس الكلمات بسهولة وثقة، غالى لم يعرف مفاتيح ملكة وهأنذا أحدد العيب وأعد اللمبات المحروقة، وأتهيأ لإصلاح هذا الجهاز الأنثوى حتى أسهل المهمة لغالى فيدير مفاتيحه بنجاح، فأين مفاتيحك يا صفية؟ مع أن جسدك هو رأس مالك وﷺبد أن مفاتيحه ظاهرة للأعمى.

ماذا تنوين أن تصنعى بى يا صفية بعد أن تعودت عليك؟، يشغلنى ليل نهار البحث عن وسيلة للتخلص منك دون أن تشعرى، شريطة أن أكون قد تهيأت تماما لهجرك النهائى.

ﷺ أكاد أتصور ذلك فى الوقت الحالى، إﷺ أننى لن أعدم وسيلة.

****

إسمى صفية، قادمة من طرف صديقك غريب الأناضولى.

= أهلا، وسهلا، لكن.

- ولكن ماذا؟ حدثنى عنك وقال إنك تحتاج إلى امرأة من نوع خاص، وأنا من نوع خاص، ألا ترى ذلك؟

عادت "فؤادة" فجأة وكأن القدر أرسلها لتنقذنى من الدوران فى هذه الدوامة الجديدة.

= أهلا يا فؤادة جئت فى وقتك.

– أنهوا مهمة البعثة الصحفية قبل أوانها لأسباب مادية.

=.... الحمد لله على الفقر.

– أدرك ماذا تعنى فقد كنت أتمنى أن أكمل مهمتى، كنت بدأت كتابة شئ مبشر، كانت رحلة صحفية لها كل مبررات النجاح.

= أتكلم عن أشياء شخصية، فأنا أحوج ما أكون إليك الآن.

– تتكلم عن الحتياج يا مختار، أنت سيد الستغناء، ماذا جرى لك.

= ظرف طارئ وسيمضى.

– تغيرت يا مختار أثناء غيابى فماذا جرى؟

= قلت لك جئت فى وقتك ويكفى هذا الآن.

عادت علاقتى مع فؤادة أبو النصر المحررة فى مجلة الصباح أقوى مما كانت، كنت أتعمد أن تعد صفية لنا كل شئ، لم تتردد أو تضجر أو تتساءل أو ترفض بل أصبحت أكثر هدوءا واستقرارا بعد أن ابتعدت عنها، كنت أحسب أن عودة فؤادة، وانقطاع علاقتى بصفية سوف يساعدنى على التخلص منها فورا ولو بالطرد الوقح، لم يحدث شى من ذلك، ذكاء فؤاده لم يخطئ موقف صفية.

– صفية يا مختار.

= مالها؟

– فى عينيها شئ غامض.

= إياك أن يجرى لعابك الصحفى على بيتى وخادمتى.

– فى كل مرة تقدم لى شرابا أو طعاما أكاد أقرأ فى وجهها نداء ما.

= أكتمك أنى قلق من ناحيتها فقد بدأت تتعلق بى بشكل مبالغ فيه.

– أخال الأمر بهذه البساطة.

وجدتها امرأة من نوع خاص فعلا، تفاهمنا بسرعة ولزم كل منا حدوده، تعودت على الحضور كلما ضاق بها الحال أو عز الصيد، ثم زادت فترات حضورها بل انتظمت تقريبا، ثم لم تعد تطلب منى نقودا ولكنها أصبحت تتصرف فى البيت كما لو كانت صاحبته

= ماذا تريدين قوله يا فؤاده؟

– أرجو أن تعرف ماذا تفعل يا مختار على وجه التحديد.

= أفهمك.

– أحسن.

= رجعنا إلى الجدل العنيد ولم تمض على عودتك بضعة أسابيع.

– كنت متأكدة منذ البداية أنك لن تحتمل أكثر من ذلك.

= علاقتنا حرة، وهذا يجعلها أقوى من أى عهود.

– ليس بيننا علاقة يا مختار، فلا تخدع نفسك.

=... هل تذهبين يا فؤادة؟

– أنتظر إذنك على أية حال.

تعودت عليك يا صفية والذى كان قد كان، لابد من رسم خطة إطلاق سراحى بسرعة، أنا لا يخفى على كيف تتطور الأحداث،

ما هذا كله؟ ما الذى جرى لى هذه الأيام؟ النحس يحيط بى من كل جانب، ولكن الشياطين مجتمعة تستطيع أن تشككنى فى طريقى، لو ظللت أجتر الفشل بقية حياتى فلن أتراجع، لست وحدى الفاشل، كل من "بالمجموعة" حضروا هنا لأنهم فشلوا، لعل هذا وحده يرد على التساؤلات الحائرة بلا إجابة، لعلى أحضر "هنا" لأشارك الفاشلين فشلهم، مفاتيح صفية مغلقة منذ البداية، لم أكتشف ذلك إلا مؤخرا، وفؤادة تهم بالهجر، ولا أدرى متى تعود؟ نجوى شعبان أصبحت بعيدة المنال ويبدو أن علاقتها تتطور بإبراهيم بشكل محسوب، بسمة الطفلة العذبة تنظر إلى بشفقة وكأنها أكبر منى بخمسين عاما، حتى ملكة مناع صاحبة المبادئ التقدمية جدا تمارس مبادئها فى استعادة أرض زوجها بلا زيادة.

رقصتَ على السلم يا مختار يا ابن لطفى، لم تنجح فى استعمال الناس مثل أبيك، كما فشلت فى إغراء الناس بالكذب والمناورة، ثم ها أنت تعجز عن إثارة النساء أو إرضائهن حتى النهاية.

من أنت يا مختار؟ ولماذا؟

لماذا تفشل نفسك قبل أن تبدأ كل مرة؟ هل هذا هو سبب مجيئك إلى هنا؟ لتبحث أسباب فشلك أم لتؤكده؟ والدى كان ناجحا على حساب أمى ولابد من أن أنتقم منه، ترى هل يتم ذلك بأن أفشل، فيلحق به فشلى وكأنى أفشله هو فى قبره؟، حينما أحاول أن أحطمه لا أحطم إلا نفسى.

مادمت هنا بينهم والدنيا تضرب تقلب: لماذا لا أستغل الفرصة وأعلن فشلى أو أكسره، ما فائدة هذا التكرار السخيف؟ كل أسبوع، كل أسبوع، ومع ذلك أصر على المجئ، إذا قررت أن أفعلها وأشارك فلمن أعلن هذه المصيبة؟ لشيخهم الخبيث أم لإبراهيم اللدود؟ أين أنت يا غريب؟ لم ذهبت وتركتنى بعد أن لعبت هذه اللعبة البشعة، هل أذهب إليك أسألك وألعنك وأرد لك الهدية بأحسن منها؟

****

لابد من المحاولة، وها هى ذى المساعدة الذكية إصلاح فاضل، تلميذة مجتهدة ولكنها لا تعطينى إلا شعورا أمويا هادئا.

=... أرجو أن تفهمينى يا إصلاح.

– أحاول طول الوقت يا مختار، صدقنى.

= مشكلتى أنى أعبد حريتى.

– لا تتحدث يا مختار عما لا تعرف.

= ماذا تقولين يا إصلاح؟

– أقول إنك لا تعرف معنى الحرية ولا تحتمل عبئها.

= أنا؟ أنا أتحمل عبئها وحدى حتى كدت أتحطم من أجلها.

– الحرية بناء يا مختار.

= الحرية هى اللاحدود حتى النهاية.

– هذا هو الذى لا يتحقق إلا بالموت.

= لو كان الموت ثمنا لها لدفعته عن طيب خاطر.

– كفى خداعا.

ها أنت تسدين نقصا هائلا فى حياتى، لابد أن أفكر عشر مرات قبل أن أتخلص منك، تخلصت من زوجتى قبلك بأن طيرتها دون أجنحة، أما أنت فأجنحتك أكبر من طائرة بوينج، سوف أرتب أمورى حتى أطير أنا، جاء دورى.

كانت مفاجأة خبيثة حين أدركت أنها تقدم لى جسدها باحترافه خال من أى إرادة، فى تلك الليلة بالذات، نظرت إلى عينيها أتأكد من ظنونى فوجدتها تتفرج على من بعيد وأنا مزهو برجولتى، لم أحتمل نظراتها ولم أستطع أن أكمل الشوط.

= أنا ما كلمتك يا إصلاح إ بعد أن حظت رفضك لتعليمات أستاذك وهو يحاول أن يثبت رجليك إلى أرض الواقع البشع.

– أنا أعارض أستاذى لأتعلم، أنت أيضا علمتنى الكثير.

= أنا؟ ... علمتك؟

– طبعا، علمتنى كيف يكون الهرب الجبان سباحةً فى فراغ المطلق.

= يبدو أنى خدعت فيك أنت الأخرى يا إصلاح، خدعتنى مناقشاتك مع أستاذك وحماسك المتناهى بلا حدود، هل تراجعت عن موقفك فى طلب المطلق.

– معك؟، نعم، المطلق غير فراغ المطلق.

= ماذا تعنين، هل تغيرين مواقفك مثل الجوارب والأحذية حسب المناسبات.

–.... أنا حرة، أليس كذلك؟

= أشرب دائما من نفس الكأس، ما عليك، سوف أتفرج عليك حتى النهاية حين يجرجرك هذا التراجع إلى قفص الزواج الفو ذى.

– حسبك.... لن أنزلق أبدا خوفا منك أو منهم، إلى الزواج التقليدى و إلى حريتك المزعومة.

=... النصف الأول من رفضك هو الذى شجعنى على الحديث معك، ولكن يبدو أن الأمر أصعب مما نتصور.

– صعوبة أى أمر تبرر الهرب منه تلقائيا.

= هل أفهم من ذلك أنك ستتزوجين يوما ما؟

– ولم ؟

= خيبت أملى يا شيخة، كلكن سواء حتى صفية.

– صفية؟، من صفية؟

= إنسانة تعرفينها.

– إحساسى يقول إنى سمعت عنها من كمال.

= هل تعرفينها يا إصلاح؟

– ربما.

= لعلك تقصدين من "غريب"؟

– بل كمال، قابلها عند غريب وحدثنى عنها حتى خجلت من صدقها وبؤسها وهى تمارس حياتها العملية الشريفة، ونحن هنا نتبادل أحاديث الوجهاء، هل هى هى يا مختار؟

= لعلها هى، شغلتنى فأنا أعرف لها حكاية مع كمال.

– كيف حالها، قل لى بربك كيف هى؟

= بخير، ولعلها هى التى ألجأتنى إليك.

– هى؟ كيف؟

= قصة ليست للحكاية، مشكلة سوف أحلها بنفسى.

– حاول يا مختار، فلعلك تجد ما تريد حقا، أو تراجع نفسك منذ البداية.

حتى أنت يا إصلاح، حتى أنت تغرينى بمراجعة نفسى، ومنذ البداية؟

أنت تعرفين متى كانت البداية و كيف، أحاول أن أتذكر فلا يخطر على بالى إ جبروت والدى وخوف والدتى المستسلم، متى بدأت عبادتى لذاتى وحريتى؟ أكاد أتذكر إ أنى اضطررت أن أكون حرا منذ كل العصور، أهملنى الجميع حتى أصبحت حرا جدا، أى اقتراب منى يذكرنى بالتهام والدى لوالدتى، أحس أن بداخلى كليهما معا.

ما ذنبى أنا يا خلق هوه.

-4-

= عندى صنف الليلة يا فؤادة سوف يرفعنا إلى السماء التاسعة.

– ذهابا وإيابا أم ذهابا فقط؟

= المصيبة الكبرى فى الإياب.

– فائدة فيك يا مختار، أريد أن أبحث معك.....

= يا ساتر استر، خذى نفسين أو وحافظى على الطافية ثم نبحث ماتشائين ولو حتى شئون أنجو أو مشكلة عجول البحر على شواطئ النرويج.

سريرك المضمون أفضل من وقفة الأرصفة والكراسى الخلفى للعربات، خاصة فى ليالى الشتاء.

تبحث ماذا هذه الصحفية محررة أوهام الناس، عدة أنفاس ويبدأ البحث الحقيقى، البحث يكون إ فى الداخل و بد للسفر إلى الداخل من ركوب البراق، والبراق هو مطية الست المفضلة موديل 1974، سبسيال، وطائرات الفانتوم المستوردة من شارع الشوارببى تسير بالطاقة الشمسية.

– أين ذهبت يا مختار؟

= معكى على الخط يا صفية.

– لست صفية...أنا فؤداه.

= " فؤداه صفية.... صفية فؤاده.

تطور شوية...حرية زيادة،

حشيشة هنية، والوحدة سعادة ".

– ما هذا التخريف الذى تقوله يا مختار، لم أعهدك هكذا أبدا مهما شربت،

= أتصنع الخبل لأقرض الشعر، لم يبق أمامى إ أن أرسم، ثم أكتب الموسيقى.

– تزودها يا مختار.

= هل تعرفين من هو أول من قرض الشعر حسب نظرية التطور لأبينا القسيس العنين تشارلس ابن داروين.

– ماذا تريد أن تقول...؟

= اسألى كمال نعمان.

– اسأل من؟

= كمال نعمان.

– كمال نعمان؟ ما هذا الخلط يا رجل هل تعرفه يا مختار؟ إنى من المعجبين به ولكنى أفتقد شعره هذه الأيام، هل هو فى رحلة فى الخارج؟

= فى الخارج جدا يا ست الكل.

– كفى مزاحا، أنا أسأل جدا.

ولكن الشياطين مجتمعة لا تستطيع أن تشككنى فى طريقى، لو ظللت أجتر الفشل بقية حياتى فلن أتراجع.

لماذا تفشل نفسك قبل أن تبدأ كل مرة؟ هل هذا هو سبب مجيئك إلى هنا؟ لتبحث أسباب فشلك أم لتؤكده؟

= أقول لك الحق كل الحق و شئ غير الحق: تعين كمال نعمان خارج الهيئة العامة لقرض الشعر، بوظيفة مريض ممتاز عند طبيب مجنون، و عزاء للسيدات.

– مختار.... المسألة اليوم ليست مسألة سيجارة حشيش، إما أنك فعلا تتصنع أو أن عقلك اختل.

= ا ثنان معا يا سيدتى، يا سيدتى: هل لك فى قدح من الجعة الباردة أيضا؟

– يبدو أنى سأضطر للذهاب إذا أصررت على التمادى.

= صفية، يا صفية هذه سيدتى الجميلة تصر على الذهاب قبل الزفاف، فهى ناشز وأشهدك على ذلك لزوم طلبها فى بيت الطاعة،

– لست زوجتك يا غبى، فكف عن أحلام والدك البشعة.

= بسيطة، أتزوجك فى التو، على شرط أن أتزوج صفية فى نفس اللحظة، آمن وأحدث طريقة للزواج منعا للتسمم والمضاعفات: إذا اضطررت لأخذ السم النسائى دواء فضاعف الجرعة تنجو، هذا ما جاء فى تذكرة دواود العصرى ابن خالة أيوب المصرى وزوج عمة أبو حيان البصرى.

–..... هذا فوق الطاقة،

= إنتظرى، والله إنى جاد، نحضر المأذون الآن ونكتب الكتاب جماعة، ندفع الربع، والباقى على سنة وربع.

– قلت لك إن فى الأمر شئ.

= عليك نور على نور، يهدى الله لنوره من يشاء، اسألى إبراهيم الطيب، إن فى الأمر شيئا، وشيئا إسم إن مؤخر، وأنا لن أكتب المؤخر لأنى سأطلقكما فى الصباح معا.

– ليست المسألة سيجارة حشيش وأقسم على ذلك.

= دعينى آخذ تعسيلة حتى يحضر المأذون.

والدى كان ناجحا على حساب أمى ولابد من أن أنتقم منه، ترى هل يتم ذلك بأن أفشل، فيلحق به فشلى وكأنى أفشله هو فى قبره؟، حينما أحاول أن أحطمه لا أحطم إلا نفسى.

****

أفقت فى الصباح فوجدتنى ملقى على الأريكة فى الصالة كما أنا بملابس الأمس، أخذت أتبين ملامح الحجرة بصعوبة حتى ظهر وجه صفية وهى جالسة على الأرض بجوار رأسى، هززت رأسى واعتدلت فى جلستى سريعا وتذكرت كل شئ منذ هربى الأول، ظلت صفية صامتة هادئة، أحسست برغبة جارفة فى أن ألقى برأسى فى حجرها، فعلت، وانفجرت باكيا، لم تتحرك صفية وظلت ساهمة تفكر فى شئ ما، رفعت رأسى فى إصرار جاد.

= هل تتزوجينى يا صفية؟

– انتظر ياسى مختار حتى تكتمل إفاقتك.

= أنا لم أكن واعيا و يقظا مثلما أنا الآن، وإنى جاد فى عرضى الزواج منك

– هذا فصل جديد فى حلقات معادة لدرجة الإملال.

= لن يتغير شئ من واقعنا فماذا تخشين.

– ما لزوم الزواج مادام لن يتغير شئ.

= إتماما للتجربة.

– أية تجربة؟ يا سيدى، خلها على الله.

= فى الواقع إنى أتساءل عن السبب الذى يمنعك أن تعطينى نفسك تماما.

– هكذا هداك ذكاؤك إلى أنى أنتظر الإذن من المأذون؟ أليس كذلك؟ يا سيدى: أنا أعطيك جسدى حسب بنود ا تفاق الشفوى.

=... غير صحيح أنت تعطيه تماما.

– لم ترد حكاية تماما و جدا فى أى بند بيننا فلا تفسد ا تفاق بتصورات سخيفة.

= أنا أعرف ما أقول.

– وهل الزواج سيجعلنى أعطيك جسدى وروحى ببصمة على ورقة؟ تنسى أنى أفك الخط.

= الحرية هى اللاحدود حتى النهاية.

– هذا هو الذى لا يتحقق إلا بالموت.

= لو كان الموت ثمنا لها لدفعته عن طيب خاطر.

– كفى خداعا.

= تصورت أن الزواج قد يعطيك أمانا أو يؤكد لك صدق عواطفى نحوك.

– صدق ماذا ياسى مختار؟ اسم الله عليك.

= أ تصدقينى والدموع مازالت على خدى.

– يتبخر كل شئ بتبخرها، تنس أنى ابنة كار ولكنى فقط فى إجازة ولم أنس أصول اللعبة.

= أنا أعنى ما أقول يا صفية.

– تعنى أن تتزوجنى أنا؟

= وماذا فى ذلك؟

– وماذا تقول لأصدقائك؟

= لن أقول شيئا، لست ملزما بقول شئ لأحد.

– زواج سرى؟

= مجرد طمأنينة لك.

– أم لك؟

= أنكر أنى أخشى اليوم الذى ستتركينى فيه، أريدك كاملة بلا نقصان، حتى فؤادة لم تملأ الفراغ الذى يتهددنى بعدك، لقد تعودت عليك.

– تعودت على ماذا؟ وأنت تعرفنى.

= دعينا من التفاصيل، هل تقبلينى زوجا.

–..... دعنى أفكر.

****

هل جننت حتى أعرض عليها الزواج دون مبرر؟ أى شئ ينقصنى؟ التحدى يكاد يقتلنى، أستطيع أن أنسى نظراتها الرافضة يوم فشلى، بد وأن ألف حولها حتى تلين ثم أحس بحريتى وأتخذ قرارى النهائى، يخلو الأمر من فائدة، لعلها تقبل فأجد مبررا لطلاقها فى حينه، أو لعها ترفض فأجد مبررا للتخلص منها احتجاجا مثلا، مغامرة مجنونة لكن نهايتها فى يدى، وسوف تنهى هذا الموقف الفظيع على أية حال.

أنت لا تعرفين متى كانت البداية ولا كيف، أحاول أن أتذكر فلا يخطر على بالى إلا جبروت والدى وخوف والدتى المستسلم.

متى بدأت عبادتى لذاتى وحريتى؟ لا أكاد أتذكر إلا أنى اضطررت أن أكون حرا منذ كل العصور، أهملنى الجميع حتى أصبحت حرا جدا، أى اقتراب منى يذكرنى بالتهام والدى لوالدتى، أحس أن بداخلى كليهما معا.

تمر الأيام و يبدو على صفية أنها تنوى الرد، حتى مجرد التفكير أحس أنه يشغلها وكأن الأمر يخصها.

رجعت فى تلك الليلة بعد جلسة علاجية حامية انفجر فيها عبد السميع إثر كلمة رفض عابرة من بسمة قنديل، آخر شخص كنت أتصور أنه يحمل أى طاقة من أى نوع، أذكر أنى خفت على نفسى خشية أن يقتربوا منى أكثر فأكتشف فى داخلى أى شئ آخر غير ما أعرف فأتفجر مثله دون علم منى.

البحث لا يكون إلا فى الداخل ولا بد للسفر إلى الداخل

رجعت ملهوفا إليها لعلها تحمينى منهم ومن أى احتمال آخر، هجومها على ورؤيتها لى أهون ألف مرة من هذه الفضيحة المحتملة بين هؤ ء، دخلت عليها فإذا بى أجدها نائمة كالملقاة على الأريكة فى الطرقة الموصلة إلى حجرة النوم، لونها شاحب يكاد يتميز من لون الوسادة البيضاء، عيناها غائرتان، صعقت من منظرها حتى كدت أتراجع خارجا.

ردت بصوت يكاد يسمع.

– يبدو أنى أكلت شيئا فاسدا.

= ماذا حدث؟ خبريني!!.

أنا أعرف ما أقول.

– ، شئ، ولكنى لم أستطيع أن أقوم لمسح باقى القئ وسوف أقوم بعد قليل.

= ، تكادين تقوين حتى على مجرد الكلام، هل أستدعى طبيبا؟

– أرجوك، أنا بخير، عمر الشقى بَقى، فى الصباح كل شئ سيكون على ما يرام، إبعد عن هذه الرائحة الكريهة، واذهب أنت إلى حجرتك، فى الصباح سأوقظك كالمعتاد.

– وهل الزواج سيجعلنى أعطيك جسدى وروحى ببصمة على ورقة؟ لا تنسى أنى لا أفك الخط.

= تصورت أن الزواج قد يعطيك أمانا أو يؤكد لك صدق عواطفى نحوك.

ذهبت إلى غرفتى جزعا خائفا أحاول أن أنسى وجودها أصلا، خيل إلى أن أى تدخل فى حالتها سوف يحرمها من اختيارها، شربت، شربت، شربت، حتى يلطشنى النوم وأمضيت ليلة لم أستطع أن أميز فيها بين الحلم واليقظة، اختلط على صوت كالقئ مع زئير لبؤة فى القطب الشمالى.

استيقظت متأخرا وما كدت أخرج حتى وجدتها: ملقاه على وجهها فى الأرض وقد غرق كله فى القئ الأسود والأخضر العفن ويدها متقلصة على الخيشة، هززتها بعنف فتحرك جسدها باردا فى يدى وانقلبت على ظهرها وأنا فى حال.

ماذا حدث؟

فعلتيها يا صفية بذكاء مجرم، وفى الوقت المناسب.

****

رجعت من مدافن الصدقة مع غريب بعد إجراءات معقدة، كاد البوليس أن يتخذ موقفا سخيفا لو البطاقة التى وجدتها فى ثيابها مع عنوان غريب، تولى غريب باقى الإجراءات وأنا فى ذهول، لم يتعرف أحد على أهلها فمر ا ستجواب بسلام إذ يبدو أن البوليس يهتم كثيرا بمن أهل له، كنت أسير راجعا مطأطئ الرأس وغريب مازال يذرف الدموع فى صمت.

= مازلت محتارا يا غريب فيما حدث، حياتى تكاد تنقلب رأسا على عقب.

– كانت شجاعة فى حياتها، شجاعة فى موتها.

= يبدو أن هذه هى الحرية الوحيدة المتاحة، حرية الموت...

– من يدرى؟

يبدو أن هذه هى الحرية الوحيدة المتاحة، حرية الموت...

– من يدرى؟

السبـــت 14-07-2018

العدد: 3969 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل العاشر: "عبد السلام المشد" رواية "مدرسة العراة"

ترى كيف عشت طوال هذه السنوات أنام على ملاءة وأتغطى ببطانية دون أن أعرف لونهما أو نسيجهما أو حتى وجودهما أصلا، فضلا عن الفرق بينهما

مقدمة

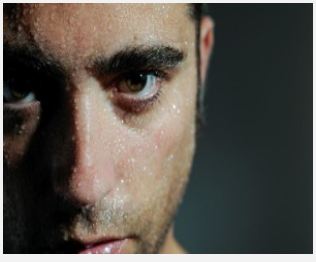

نواصل اليوم نشر فصول رواية" **مدرسة العراة** **(1)**"تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى **الجزء الثانى** :من ثلاثية" **المشى على الصراط.**"

وهذا هو الفصل العاشر

عبد السلام المشد

-1-

أول ما فعلته فى المستشفى بعد أن انتشلونى من النيل أنى بدأت – بمحض إرادتى هذه المرة – أتعرف على الأشياء من جديد، كنت فى لحظة يأس قد قررت أن أنهى كل شئ، لكن يبدو أنه على أن أتحسس طريقى من جديد.

هذه يدى وتلك هى ملاءة السرير بين يدى أتعرف على نسيجها الدقيق، للنسيج خطوط متداخلة فى رقة وعناد، هذا لون أبيض، واللون الأبيض غير اللون الأخضر، الأول لون الملاءة والثانى لون البطانية، والفرق أساسى إن أردت أن أعيش، ترى كيف عشت طوال هذه السنوات أنام على ملاءة وأتغطى ببطانية

دون أن أعرف لونهما أو نسيجهما أو حتى وجودهما أصلا، فضلا عن الفرق بينهما، هذه الرؤية الجديدة تذكرنى باليوم الأول للأزمة حين فوجئت بضرورة التعرف على اسمى من جديد، مازلت أذكر كيف بدأت أميز درجات اللون الأخضر واختلافها، خضار لون الحشيش غير لون إشارة المرور غير لون أرقام عربات الدبلوماسيين، ثمَّ فرق جوهرى بين تلك التجربة وبين ما أنا فيه اليوم رغم اتفاق الظاهر، كانت التجربة فى أول الأمر مفاجأة مرعبة، الآن، أنا أتحسس طريقى بوعى كامل وإصرار على أن أعيش، فى أول مرة كان الوجود يصفعنى بلا هوادة و استئذان، الآن: أنا الذى أقتحمه بلا خوف أو تردد، كنت أفاجأ بالأشياء غريبة على، وكأن المفروض أ أراها، الآن: أحس أن ما أفعله هو أبسط وألزم قواعد الحياة، كيف يمكن أن يعيش إنسان بأى درجة يستحق معها أن يسمى حيا وهو غير دار بالأشياء من حوله، ما كنت أعتبره غريبا شاذا حتى أسميته مرضا أعيشه اليوم وكأنه الحقيقة الوحيدة الممكنة.

حس أن ما أفعله هو أبسط وألزم قواعد الحياة، كيف يمكن أن يعيش إنسان بأى درجة يستحق معها أن يسمى حيا وهو غير دار بالأشياء من حوله

دقت الساعة فى ردهة المستشفى فأخذت أستمع لدقاتها كأروع نغم موسيقى سمعته فى حياتى، بعد جديد دخل فى حياتى شيء اسمه: الزمن، أدركت لتوى أن بين كل دقة ودقة شئ اسمه الوقت، وأنه أثناء هذا الوقت تدخل أنفاسى وتخرج وتنبض عروقى وتتتابع أفكارى فتتغير الأشياء من حولى، إذا صح أن أى واحد يمكن أن يعيش دون أن يتعرف عل الأشياء من حوله فكيف يفعل ذلك بلا وقت يمضى، حين تتوقف حركة الوقت تتوقف حركة الحياة مهما أصدرنا من أصوات وأفرغنا من قاذورات، أريد أن أعمق الفرق بين ما أنا فيه الآن من مشاعر وبين ما كنت فيه أول الأزمة، أفكر الآن بثقة وإصرار فيما سبق أن مر على خاطرى وأنا فى عز الدوامة، ترى ما هو الفرق؟ التجربة الأولى كانت مفاجأة مرعبة حاولت أن أهرب منها إلى كل مكان، أما الآن فهى إرادة واعية يبدو أنى أستطيع أن أعيش إ بها، هل ينبغى أن يموت الإنسان فعلا حتى يبعث من جديد؟ هل حصلت على سر الحياة من ماء النيل العظيم؟ هل قابلت

عروسه فى أعماقه فأفشت لى السر الذى كانوا يتخلصون منه معها كل عام حتى تفشيه؟ هل تخرج الحياة من الموت بهذه البساطة؟

الذى تأكدت منه هو أن إرادة الحياة قد استيقظت فىّ ولا سبيل إلى إخمادها ثانية أبدا، وجوه الممرضات لها معالم ثابتة وواضحة وسمحة وطيبة، حتى صراخهم الحاد وغضبهم وسبابهم يؤكد وجودهم، أخلق معالمهم من جديد وأتذكر صرافة البنك قبيل انفجار الأزمة حين كانت بلا معالم أصلا ولا لون ولا طعم ولا رائحة، حين احترت أن أميز بين وجهها وقفاها، تصورت أنى لو ذهبت اليوم إليها ووجدتها هى هى فسوف أرى ملامحها خلية خلية تنبض من جديد، سوف أتعبد فى تقاطيع وجهها وأعيد تنظيمها رائعة متحدية، سوف أتصنت على أنفاسها وأسمع فى كل نفس صرخة انتصار على الموت، أعاهد نفسى أن أزورها فور خروجى من المستشفى.

ما كنت أعتبره غريبا شاذا حتى أسميته مرضا أعيشه اليوم وكأنه الحقيقة الوحيدة الممكنة.

أحاول أن أتعرف على نفسى كما حاولت أن أتعرف على ما ومَنْ حولى.... أنا عبد السلام المشد، لم أمت، ولكنى لم أحىَ بعد، استحالة أن ترجع الحياة كما كانت، فلا أنا أستطيع، ولا هو ممكن، والأَمَام مجهول تماما، أراه أحيانا صفحة بيضاء ساكنة سكون الموت الجديد، وأراه أحيانا دنيا صاخبة تضرب تقلب بلا أول ولا آخر.

منذ وقعت الواقعة وأنا فى دوامة لم ينشلنى منها إلا اكتشافى أنى لابد وأن أمشى على الصراط بعد أن غلبنى الدوران حول نفسى، لم أعد أطيق لفة واحدة زيادة، ليكن الصراط شعرة أو علاجا أو صحراء بلا ماء ولا خضرة ولكنه أفضل من الدوران حول نفسى إلى ما لا نهاية وأنا أنسحب إلى قاع بلا قرار، لم أعد أستطيع أن أنسى الرؤية التى رأيتها فى تلك الأيام، كانت حادة وبسيطة، هى لا تنسى، أفكر فى غريب كثيرا وأتساءل كيف نجح أن ينسحب، أفكر أحيانا فى زيارته لأعرفه من جديدا ولأعلم كيف أغمض عينيه بعد ما رأى وكيف نسى، الأمر الذى يريحنى من هذا التساؤل هو أن أرجح أنه لم ير أصلا، عجزت عن

إعلان فشلى حتى بالموت، اخترته فى يوم بائس وأنا أتصور المؤامرة وهى تحاك بالبلد كلها بل بى شخصيا، لم أنتظر، لم أستطع أن أنتظر عارا آخر وكذبا آخر، تعجلت وفعلتها لكن الحياة انتشلتنى على الشاطئ الآخر.

شاطئ مجهول، كل ما أعلم عنه هو أنه شاطئ "آخر"، انتشلونى من جوف النيل العظيم لأواجه حقيقة جبنى وهربى ولأجد العالم فى حالة فض اشتباك، □ سبيل أمامى إ□ المشى على شعرة، إما أن أصل إلى النور المجهول أو يأذن فى أمرى أحد سواى، □ الدوامة أحتمل لفها و□ ثانية أخرى، و□ الفشل أستطيع إعلانه أو ادعاءه، و□ العمى سوف ينسينى الرؤية.إما حياة على أرض هذا الواقع الملئ بالعرق والدم والتراب والغباء والمحاو□ت من كل جانب وكل أحد، وإما عذاب المشى على الشعرة إلى المجهول، لست أملك بعد النفخ فى الصور إ□ مواجهة مصيرى، □ أمل فى رجعة، و□ احتمال لوقفه، و□ إمكان حتى لسخرية تخفف من بشاعة الرؤية.

يداعبنى أمل من بعيد: أن الإنسان إنما خلق ليعيش.

****

– سمحوا لك بالزيارة اليوم يا أستاذ عبد السلام.

= شكرا، وإن كان □ ينقصنى شئ البتة، أنا أشعر أنى بين أهلى تماما.

– زوجتك سيدة طيبة، تنتظر هذه اللحظة منذ الحادثة، الحمد لله على سلامتك.

= شكرا.

زوجتى؟ □بد أن أعيد التعرف على نسيج هذه الكلمة مثلما أعدت التعرف على نسيج ملاءة السرير ولون البطانية ونفسى، أعيد التعرف عليها بنفس الهدوء وبكامل اختيارى ووعيى، ز، و، ج، ت، ى... يبدو أن هذه الكلمة تعنى أمورا كثيرة معا، أمورا معقدة وربما متناقضة، يبدو أن من أوجب مهامى وأصعبها هو أن أحل رموزها بإصرار مثابر.

دقت الساعة فى ردهة المستشفى فأخذت أستمع لدقاتها كأروع نغم موسيقى سمعته فى حياتى، بعد جديد دخل فى حياتى شىء اسمه: الزمن

أذكر بوضوح أن لى زوجة اسمها فردوس الطبلاوى، من أنت يا فردوس وكيف اكتسبت هذه الصفة؟ ما معنى هذه الصفة، بد أننى اكتسبتُ أنا بدورى صفة زوجك، طوال الأزمة وأنا أخشى اقتراب منك حتى عجزت تماما بعد موت أمى وكان ما كان، الآن، أنا أستطيع ابتعاد عنك ما دمت أقترب من كل شئ، بلا استثناء، كتب الموت علىّ أن أحيا، هأنذا أحاول التعرف من جديد على كل الأشياء، وكل الناس، وعلى الزمن، وعلى نفسى، على كل أطراف معادلة الحياة البسيطة، ولكنى أجدك أصعب هذه الأمور جميعا، من أنت يا فردوس؟ كم أنت؟ هل أنت أمل الخطوبة؟ أو سيدة التسليم المطبخى؟ أو علاقة يأس المستقبل؟ من أنت يا فردوس؟ حلمت فى نوبة فرحتى بالجديد أن أبدأ مع واحدة أخرى، ولكنى تيقنت أنى سأمر معها بنفس أطوار الخداع، وأن واقعى هو إلهى وهو مصيرى وهو التحدى الحقيقى وهو اختيارى الأصعب، ترى هل أستطيع؟ وحتى إذا لم أستطع فليس أمامى إ أن أستطيع.

– حمدا لله على السلامة يا عبد السلام.

= الله يسلمك يا فردوس كيف حال الأولاد.

– بخير ويسألون عنك.

= .....

– .....

= لماذا فعلت ذلك بنفسك يا عبد السلام.

(كل الحسابات تتداخل حتى تكاد تختفى تماما).

– قدّر ولطّف يا فردوس..

= ..

– ..

فى لحظة تسطع الشمس فتضئ الكون جميعه حتى أحسب أنه ظلام، ثم تأتى سحابة قاتمة تافهة فتخفى ضياءها بلا استئذان، كيف تستطيع مجموعة

أدركت لتوى أن بين كل دقة ودقة شئ اسمه الوقت، وأنه أثناء هذا الوقت تدخل أنفاسى وتخرج وتنبض عروقى وتتتابع أفكارى فتتغير الأشياء من حولى

قطرات الماء المحملة ببقايا التراب أن تقف أمام شمس جبارة تغمر العالم بالدفء والضياء؟ هذه هى الحقيقة التى كنت قد بدأت فى التعرف عليها كالشمس المضيئة، ثم ها هى ذى كل حساباتى تذهب هباء بحضورك يا فردوس، يبدو أنه أسهل على أن أتعرف على نسيج الملاءة ولون البطانية وحتى طبيعة خشب القبقاب من أن أتعرف عليك يا فردوس، تاريخنا قديم وطبقات الجرانيت والصلب والفحم والنفط والكذب والنفاق والجنس والمجاملات تحول بينى وبينك، كنت أحسب أنى تخلصت نهائيا من هذه المشاعر التى تجعل الخيط يفلت منى قبل أن أهم بالإمساك به، لماذا هذا معك أنت بالذات؟ مم يتكون نسيجك؟ هل لك نسيج أصلا أو لون أو تمييز؟ منذ لحظات كنت أزهو بقدراتى على إعادة خلق الملامح من جديد فلماذا فشلت معك؟ أنا أواجهك كواقعى الأول حيث مجال لمحاولة الهرب، ماذا تصنعين؟ مم تتكونين؟ فيم تفكرين؟ من أنا بالنسبة لك؟ كيف نواصل حوارا ما؟ أى حوار؟ ونحن لم نتعرف على بعضنا البعض أصلا.

– مازلت تسرح بعيدا حتى بعد أن حدث الذى حدث؟ ألم تشبع سرحانا ياعبد السلام حتى تفيق وتعود إلى أو دنا وبيتنا كما كنا.

= كنا؟ نحن لم "نكن" يا فردوس.

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، تعود تتكلم مثل زمان وكأن الذى حدث لم يحدث، هذا الكلام الفارغ هو أصل المصيبة كلها، أما كفاك ما كان؟ قلبى يحدثنى أنه لو استمر الحال على هذا المنوال فإن مصيبة أكبر تنتظرنا.

انفتح البركان وأخذ يقذف بالحمم دون حساب حتى اختفى كل شئ وراء أفق مجهول، ا نسحاب مثل التقدم، فائدة على المدى القريب، فلنوقف إطلاق النار، اعتداء من جانب واحد وأنا أعزل.

= تنسى يا فردوس أنى أسترد وعيى بالتدريج فلا تتعجلى الأمور.

– قلبى عليك، وعلى مستقبل الأو د.

حين تتوقف حركة الوقت تتوقف حركة الحياة مهما أصدرنا من أصوات وأفرغنا من قاذورات

= أعدك أنى سأحاول.

ماذا سأحاول بالضبط وكيف؟ قضيت يومين وأنا أحاول حتى خيل إلى أن الطريق ممهد، وأن الرؤية واضحة وأن العالم موجود من حولى لأنى موجود بداخله، حتى واجهت امتحان القبول فى حضانة مدرسة الواقع الحقيقى، فإذا بى في" وهم على وهم".

– ماذا ستحاول ثانية يا عبد السلام، كفى محاولات، لماذا تعيش مثلنا، يا أخى؟ كن مثل الناس، ألم تشبع؟

= ياليت يا فردوس، يا ليت.

– ومذا يمنع يا عبد السلام؟

= يمنعنى الشديد القوى.

– نفعل أى شئ حتى تعيش مثلما يعيش الناس.

)وهل هم يعيشون يا فردوس، يا ليت يا فردوس يا ليت، ماذا أقول لك الآن وكيف أنهى هذا النقاش؟) كل ما فتح الله به على أنى قلت:

– وهو كذلك.

= نذهب لمن يعرفون، نغير العتب، نفك العمل، أى شئ إ أن يستمر الحال هكذا بعد ما حدث الذى حدث.

– ألم تتعلمى من حكاية فشلنا مع المرأة السودانية بأن هذا الطريق جدوى منه.

= هناك من هو خير منها، من يعرف أكثر منها.

وثقافتك، وليسانسك، ودراستك للتاريخ حتى أحببته، وآمال الخطبة، وتحدى النسيان، والسرقة، والتسليم، مازلت يا فردوس، كما أنت، كنت أحسب أنك تغيرت وعرفت سر الحياة مثلما تصورت أنى عرفته، كنت أحسب أن تجربة الموت سوف تبلغك نفس الرسالة التى بلغتنى، يبدو أنك قد توقفت منذ زمن بعيد، بعيد جدا، لن أقدر عليك وحدى يا فردوس ولو أوتيت سحر هارون وقوة هرقل وحكمة

هل ينبغى أن يموت الإنسان فعلا حتى يبعث من جديد؟ هل حصلت على سر الحياة من ماء النيل العظيم؟ هل قابلت عروسه فى أعماقه فأفشت لى السر الذى كانوا يتخلصون منه معها كل عام حتى لا تفشيه؟ هل تخرج الحياة من الموت بهذه البساطة؟

سليمان، كل حل بعيد عنك متجاهل لوجودك هو حل زائف منذ البداية، إما الواقع كله، وأنت "سُرَّة" الواقع، وإما إعلان الكذب والبحث عن المسكنات أينما كانت ويالیتها تفید، یخطر علی بالی أنی إنما أحاول المستحیل حین أصر علی أن تكون زوجتی هی هی خطیبتی، لم یعد یملأنی الیقین أنها ستفشل أو أنی سأفشل معها، الحفاظ علی أمل غبی هو أروع الألم، □ أستطیع أن أبرر توقفی عن المحاولة، سوف أخوض الدنیا بالعرض، لیكن ما یكون وأكثر، كل ما أستطیعه الآن هو أن أبحث عن معین.

أین أنت یا إبراهیم یا طیب، لو أنی أعرف عنوانك لذهبت إلیك أسألك النصیحة والعون، مازلت أذكر كلماتك الواعدة أكثر من أی كلمات أخرى، قابلتك فی عیادة طبیب فهل □ بد أن ألقاك هناك دائما، لماذا یحتاج لقاء اثنین إلی ثالث؟ ما الذی یحدث عندما ینفرد اثنان ببعضهما البعض؟ كیف یسیل لعاب كل منهما □لتهام الآخر فی غفلة من الناس؟ كیف أوثق علاقتی بزوجتی دونك یا إبراهیم، وكیف أوثق علاقتی بك دون طبیب؟ □بد أن فی العلاقات الثنائیة سرا معطلا □ أفهمه.

= لیس أمامی یا فردوس إ□ استكمال العلاج

–.... أی شئ.... أی شئ.... أوافق علی أی شئ یساعد فی أن ینتهی السرحان، وأن تتوقف عن كلامك الغامض الذی □ یفهمه أحد.

= ومن أدراك، لعلك تضطرین إلی فهمه یوما.

– أنا أفهمها وهی طائرة، أنت الذی تعقد الأمور.

= لیكن.

– ربنا أرجعك لی ولأو□دك بالسلامة.

= □ توجد إصابات ویبدو أنی سأخرج فی خلال یوم أو اثنین.

– ربنا یجعلها بدایة خیر.

= كریم..

الذى تأكدت منه هو أن إرادة الحياة قد استيقظت فىّ ولا سبيل إلى إخمادها ثانية أبدا

أنا عبد السلام المشد، لم أمت، ولكنى لم أحىَ بعد، استحالة أن ترجع الحياة كما كانت، فلا أنا أستطيع، ولا هو ممكن

-2-

الظاهر أنه لابد من المواجهة الشاملة، لا مفر من المحاولة حتى النهاية، ذهبت إليه وعندى أمل غامض أن ألقى ابراهيم عنده أكثر من حرصى على لقائه.

طلب منى الطبيب أن أحدد موقفى من زوجتى أولا، كان خبيثا وهو يتظاهر بإعطائى حق الإختيار فقد أفهمنى أن أى تقدم لا يمكن أن يتم على حساب "آخر" مجهول له، وعلى زوجتى بدورها أن ترى ثم تختار، خاصة – على حد قوله – وأن الأعراض شملت علاقتنا من كل جانب، جزعتُ من احتمال حضورها ولكن أملا استيقظ فىّ داخلى يلوح باحتمال أن أعيد التعرف عليها من خلاله ما دمنا قد عجزنا عن ذلك وحدنا، جزعى أكبر من أملى، هو خوفى القديم خوفى منها على وجه التحديد، سوف أعرض عليها الحضور ويا ويحى لو رفضتْ، ويا ويحى لو قبلتْ، لا أنسى أنى أنا الذى أغريتها بالبقاء فى البيت دون عمل بعد أن حصلت على الليسانس، كنت أخشى أن تتغير من خلال عملها بعيدا عن حساباتى وهأنذا أدعوها بنفسى لأكبر مخاطرة للتغير.

منذ وقعت الواقعة وأنا فى دوامة لم ينشلنى منها إلا اكتشافى أنى لابد وأن أمشى على الصراط بعد أن تلبنى الدوران حول نفسى

لم يعد أمامى اختيار، أقولها للمرة المائة، واللعبة تستدرجنى خطوة خطوة.... متطلبات "الحياة" تزداد تعقيدا وصعوبة، واحتمال الموت اختيارا يختفى تماما.

– مالى أنا بكل هذا يا عبد السلام؟ الله يهديك.

= هذا هو رأيه، وهذه هى مهنته، هو يعرف الصالح أكثر منى ومنك.

– نحن بخير يا عبد السلام وكفى جريا وراء الأوهام.

= لست بخير يا فردوس.

– وما الذى يمنعك أن تكون بخير؟

= أنتِ

– أنا؟

= لا أقصد أنتِ أنتِ؟ ولكن أى "أنتِ"؟

– الله!... الله!! رجعنا للخلط من جديد؟

= آسف.... ولكن..... آسف.

نعم أى أنت، فإذا كان لى أن أعيش فعلا فلا يمكن أن ينغلق العالم وراء حدودى أنا، ﻻبد من "أنت"، هذه هى المغامرة الكبرى، حين تزوجتك يا فردوس كان عندى أمل فى أن تكون حياتنا هى هذه المغامرة، وأن ننجح فى تنفيذها، ها نحن نواجهها بعد أن حسبناها دُفِنَتْ فى أعماق الخوف والغباء، نحن نعود إلى نفس المغامرة ربما بأمل أوضح، ربما فى يأسٍ أمرّ، هل ضاعت هذه السنوات هباء؟ أو أنها كانت استعدادا للممكن "بالرغم منا"؟ دعينا نبدأ ثانيا يا فردوس لنرى ماذا هناك، إصرارك على المقاومة ييئس الأنبياء ويحيى فى مشاعر خبيثة تعفينى من بذل الجهد باعتبار أنك لن تتغيرى فأستسلم اطمئنانا، هل أستطيع أن أقترب منك وقد سبق أن أعلنت أعضائى العصيان لأى أوامر كاذبة مسكنة، هل أطلقك وأبدأ من جديد مع أمل جديد؟ ماذا لو اكتشفت خيبة أملى فى الجديد بعد عشر سنوات أخرى؟ أكون ساعتها قد فقدت كل مقومات صراعى، هل أستسلم حينذاك انتظر صدقات العطف والتمريض؟

حين أفقت من غيبوبة الغرق وبدأت أتعرف على الأشياء والناس من أول لون ملاءة السرير حتى الشغالة تنظف الأرضية، خيل إلى فجأة أنى إنسان آخر، ربما تصلح له كلمة لها رنين خاص، إنسان "حضاري" مثلا، نعم هذه هى الكلمة، لست أفهم معناها تماما بقدر ما أشعر بها، لم أعد أنا عبد السلام المختبئ فى حضن عماه المستسلم لمصيره، انتهى كل ماض لى بلا إستئذان، سوف أعمل شيئا باقيا قبل أن أموت وليكن هذا الشئ هو "الحضارة" ذاتها حتى لو لم يكن كذلك، سوف أعتبر أن الحضارة هى أن أمضى أربعا وعشرين ساعة واعيا عاملا متفاعلا، أنا "الحضارة"....!! يا حلاوة ﻻبد أن أسجل نفسى بهذه الصفة الجديدة، هذه فائدة الكتابة، سيأتى أحدهم بعد سنة أو مائة ليقول أن شخصا كان اسمه عبد السلام المشد كان إنسانا حضاريا، هل قبضت أثناء تجربة الموت قبضة من

ليكن الصراط شعرة أو عﻻجا
أو صحراء بلا ماء ولا خضرة
ولكنه أفضل من الدوران
حول نفسى إلى ما لا نهاية
وأنا أنسحب إلى قاع بلا قرار

عجزت عن إعلان فشلى حتى
بالموت، اخترته فى يوم
بائس وأنا أتصور المؤامرة
وهى تحاك بالبلد كلها بل
بى شخصيا

قاع النيل أصل الحضارة؟ لعلى بلعت بعض الطمى المشع بالحضارة فلبسنى هذا الوصف الجديد، خيل إلى أن مجرد بقائى على هذه الأرض بهذا الشكل الجديد خليق بأن يغير السياسة، ويعدل ا□قتصاد، ويحدد مسار التاريخ، إذا كان ذلك كذلك فأنا مساهم □ محالة فى صنع نفسى، يعنى بلدى، يعنى الإنسان فى أى مكان فى الأرض، أنا □ أحلم و□ أتمنى، بدت الأمور بسيطة فى شكلها وتتابعها وكأنها نسيج متماسك مثل نسيج تلك الملاءة البيضاء، حين هممت أن أقوم من السرير لأول مرة ذاهبا لقضاء الحاجة وسألتنى الممرضة إلى أين أنت ذاهب ابتسمت، لم تدرك الممرضة أنى ساعتها كنت أهم بالقول "إن هذا أيضا فعل حضاري"، وكأن أى عمل أقوم به بهذا الوعى الحاد كان من ضمن رحلتى الجديدة مع الناس والأشياء، هأنذا – أنا، شخصيا– أصنع التاريخ!!! لو ناقشنى مائة متبحر فى سخف يقينى هذا، لأقنعتهم، كنت مستوعبا تماما أن الحضارة ليست نتاج الرفاهية ووفرة الوقت، و□ هى عناد فنان أو تقشف فيلسوف، إنها أنا الذى هو كل هذا معا، الفنان أو الفيلسوف أو العالم إنما يسجلانى "أنا" لمن □ يستطيع أن يكون أنا، الله أكبر!! يا حلاوة.... أنا عبد السلام الحضاري!!!! جنون جديد؟ أبدا، هذا عكس الجنون تماما.

كيف انتهى هذا اليقين العام الممتد إلى مشكلة فرعية تشغلنى ليل نهار: كيف أعيش مع زوجتى، وكيف تتغير أو أتغير، حتى نتفاهم ونتواصل؟ هذا هو مربط الفرس وحتى ولو كان ا□سم هو"الحضارة العلاجية الطبية الزوجية الحديثة".

ما هذا؟ هل أنا صادق فى المحاولة؟

لست واثقا.

****

بعد ضغط وإصرار ابتدأت فردوس تألف المكان والأشخاص، نظراتها إلى بسمة تعيد إلىّ صورتها الوديعة المحببة أيام الخطبة، تحاول أن تتبادل الحديث مع كل من بالمجموعة حتى خيل إلى أنها تستكشف الطريق أو□، ثم سرعان ما

لا سبيل أمامى إلا المشى على شعرة، إما أن أصل إلى النور المجهول أو يأذن فى أمرى أحد سواى

إما حياة على أرض هذا الواقع الملىء بالعرق والدم والتراب والغباء والمحاولات من كل جانب وكل أحد، وإما عذاب المشى على الشعرة إلى المجهول

ألفته وأصبحت تنطلق دون تردد أو استئذان، سمعتها تبادل ملكة مناع الحديث – ربما بصفة أنها الوحيدة التى تحضر مع زوجها مثلها، كانت تحاول أن تثنيها عن الحضور دون جدوى وملكة تبادلها الخوف وا حتقار لما يجرى سرا وعلانية، أ حظ محاولتها وتغيرها دون تدخل، ولكنى أشعر أكثر فأكثر بالخوف والأمل معا، أشياء كثيرة تستيقظ فيها تلوح لى بإمكان الحياة معها كما تصورت يوما ولكنى أحس بالتهديد حين توجه الهبات الجديدة إلى غيرى، سوف أواصل المحاولة ولو كانت هى الدمار ذاته، بد لمن هو "أنا" مِنْ "أنت"، إفهمينى يا فردوس لأنك أقرب "أنتّ" إلىّ، يخفى عنك اهتزازى إزاء نشاطك الجديد، وأنت تريدين استغلال هذا ا هتزاز للنهاية، ربما يضطرنى خوفى إلى الرضوخ والتوقف.

لست أملك بعد النفخ فى الصور إلا مواجهة مصيرى، لا أمل فى رجعة، ولا احتمال لوقفه، ولا إمكان حتى لسخرية تخفف من بشاعة الرؤية

– ...

= أنا فى إنتظارك يا فردوس من زمن بعيد.

– أظن يا عبد السلام، أنا انتظرت طويلا، وأخشى عليك من انطلاقى.

=... بماذا تهددينى يا فردوس؟

– لن تحتمل لو تخطيت حدودك، أو الحدود التى رسمتها لى.

= يجوز.

– شئ يتحرك فىّ يا عبد السلام، فهل أستمر؟ وهل تتحمل نتائجه؟

= كل واحد مسئول عما يفعله.

هل أنا صادق فيما أقول؟ أراها تسرع الخطى أدرى إلى أين على وجه التحديد، مسئول؟ ما معنى مسئول؟ أعود أواصل بحثى لمعرفة معنى كل شئ من جديد، وجودها بين المجموعة ومفاجآتها تربك خططى، هى إما مهاجمة لى تهددنى فتنصحنى بالتراجع، وإما منطلقة ألهث وراءها لأعرف إلى أين تذهب فى عدوها الفجائى وسطنا إلينا، كثيرا ما أستطيع تحديد وجهتها أو اللحاق بها، يملكنى الرعب، نظراتها إلى إبراهيم تحمل الكثير، ولكنى أثق فى إبراهيم.

= ليكن ما يكون.... ماذا أصنع؟

– هب أنى اكتشفت من خلال كل هذا أنى أحبك يا عبد السلام؟

=.... قسمتى.

– استسلام مائع.

– يملأنى كلامك جزعا يا فردوس، وليس أمامى بديل.

أبحث فى الخفاء عن طريق سرى للتراجع فلا أجد على مدى بصرى حتى السراب، نار الضياع وسرعة الدوامة ينتظرانى حيثما التفت بعيدا عن هذا الذى يجرى، وحين أفترض أن الطريق الوحيد الباقى لى قد ينتهى إلى شئ، أو حتى إلى خدعة أنا مساهم فى صنعها، يظهر لى شبح الموت من جديد، أبعده بعنف وأجدنى مندفعا إلى الحياة.... سوف أفعلها حتى ولو لم يبق سواى، أنا أحترم هذا الطيب، إبراهيم الطيب، وأحبه.

يداعبنى أمل من بعيد: أن الإنسان إنما خلق ليعيش.

= الألفاظ تسعفنى يا إبراهيم فهل تعرف ما بى؟

– أعتقد أنى أحاول أن أعرف ما بى، وأظن أن هذا يجعلنى أتعرف على ما تريد.

= لسنا متشابهين.

– أليست هى فى النهاية قضية واحدة؟

= فردوس هى المشكلة، وعلاقتى بها امتحان يومى عسير، أحيانا أقول لنفسى إنى لو كنت خاليا مثلك لهان الأمر.

– ومن قال لك إنى خال.

= خيل إلى ذلك.

– خدعة الوحدة توحى با تزان الظاهرى، أنا مصر على كسرها رغم فشلى المتكرر.

= حتى الفشل أفضل مما أنا فيه، صعوبتى معها متناهية، كل يوم هى فى شأن.

فى لحظة تسطع الشمس فتضئ الكون جميعه حتى أحسب أنه لا ظلام، ثم تأتى سحابة قاتمة تافهة فتخفى ضياءها بلا استئذان

– الصعوبة موجودة مع أى آخر، لو صدقت فى محاولة الاقتراب لوجدتها هى صعوبة أى واحد مع أى واحد.

= أنت أذكى يا إبراهيم من أن تختزلنى هكذا إلى "أى واحد"، كثيرا ما يرعبنى تبسيطك الزائد للأمور.

– محاولة الاقتراب بجد هى مخاطرة حقيقية.

= □ سبيل غير ذلك وأنت خير من يعلم.

– أنت قصرت محاولتك عليها تماما.

= زوجتى.... وأم أولادى.

– لهذا كانت أصعب من كل آخر.

=أخشى أى ابتعاد مرحلى فيلتقطها جائع نذل.

– حدث؟

= ماذا حدث.

– دفعتها بنفسى إلى التمرغ فى الوحل.

= دفعت من؟ فردوس؟

– □.... زوجتى....

= أنت متزوج إذن! وزوجتك؟ لماذا □ تحضر معنا؟ أين هى يا أبو خليل؟

– قلت لك فى الوحل.

= وحل؟؟

– نعم.... وحل؟ هى فى حضن أدنأ الرجال بلا أى أمل فى أن ترى ما تفعل.

= وأنت..؟ وهى..؟ زوجتك؟ هل مازالت زوجتك؟

– ... أنا مسئول أيضا، وربما قبلا، عن أى خطأ.

= أى خطأ.

– ماذا جرى لك يا عبد السلام؟ ألم تقل لتوك أنك تخشى الابتعاد عن فردوس فيلتقطها أى جائع نذل.

أنا أواجهك كواقعى الأول حيث لا مجال لمحاولة الهرب، ماذا تصنعين؟ مع تتكونين؟ فيم تفكرين؟ من أنا بالنسبة لك؟ كيف نواصل حوارا ما؟ أى حوار؟ ونحن لم نتعرف على بعضنا البعض أصلا.

= وهل حدث لك ذلك؟

– بالضبط، لم نحتمل الانتظار، ولم أنتبه لضرورة المحاولة، فذهبت تبحث عمن "يفهمها"، ومازالت فى بحث متصل.

= وأنت.... تفهم الجميع هنا، ولا تفهمها.

– هى تريدنى أن أفهمها كما تريد هى.

= أ لا يوجد سبيل لأن تأتى بها هنا.

– لا سبيل إلا إذا جئت بعشاقها معها.

إبراهيم يا طيب، إذن هذا هو ما وراءك أيها الإنسان المتزن الهادئ، هذا هو سر حكمتك يا إبراهيم، ماذا سوف تفعل إذن يا أخى ورفيق رعبى؟ هل كتب علينا أن نكذب عليهن حتى يرضين؟ أو أن نصبح قوادين سرا أو علانية؟ لا تكاد تفتح أحداهن عينيها حتى تبحث عن طريقة خاصة تبرر بها اعتمادها الجديد، وتعلن أنها إنما تبحث عن لغة للتفاهم، والاستماع لمن يقدر مواهبها الغائبة عن فراش زوجها الغبى، كيف تحتمل هذا الجرح المتقيح يا أبو خليل.

= لماذا لم تطلقها حتى الآن يا إبراهيم يا أخى؟

– أدفع الثمن وأنتظر معجزة.

= أية معجزة؟

– أن أفعلها دون حقد أو اصطناع بطولة، أو..أو لعلها تعود ونحاول من جديد.

مصيبة سوداء هذا الذى يجرى، كيف يمكن أن نبتعد دون خيانة؟ كيف يتحمل اثنان معا وعورة الطريق "معا"؟ كيف أبتعد عنها "لها"، واقترب منها "لنا"؟ ما الضمان وقد أرسلت مراسيلها إلى كل من يهمه الأمر؟ نظرات مختار لطفى لا تخفى على، ولو أنها اختارت إبراهيم فى أول جولة لكان رعبى هو الجنون ذاته، هل أسبق فأطلقها حتى أرتاح وأدعها تختار؟ تختار من؟ وكيف؟

انتهى كل ماض لى بلا إستئذان، سوف أعمل شيئا باقيا قبل أن أموت وليكن هذا الشيء هو "الحضارة" ذاتها حتى لو لم يكن كذلك

ولماذا؟ هل أستمر بقية حياتى أفكر فيها، وفى احتمال خيانتها، وكيفية تغيّرها، والحرص فى البعد عنها، واليقظة فى الاقتراب منها؟ يا حلاوة!! "والحضارة" التى هى أنا، هل نؤجل قضيتها انتظارا لشفاء ست الحسن والجمال؟ ما هذه الكلمة الجديدة التى دخلت قاموسى اليومى: "الحضارة" هل هى مهرب أو مطلب؟ ماذا قلت لها يا إبرهيم وماذا قالت لك، هل أنت كما أعتقد؟ أم أن جرحك قد يبرر لك لعبة جانبية تعرف أبعادها؟

= الحمد لله أن فردوس طرقت بابك أو يا ابراهيم، قبل، قبل مختار مثلا،

– ماذا تعنى؟

= أتقزز منه يا ابراهيم، لعابه يسيل على كل أنثى دون تمييز،

– حلمك يا أخى، مصيبته أكبر منى ومنك.

= وخطره أكبر كذلك،

–خطره أكبر على من يريد التعرض لخطره،

= الأطفال جوعى لقطرة عطف حتى ولو كانت مسمومة،

– الخوف والتبرير ليس لهما مكان.

=.... النساء يحتملن الحرية والانتظار.

– والرجال ألعن، وهم ليسوا أكثر صبرا أو حكمة.

= حكمتك ورؤيتك تذهلانى، أتعجب كيف انزلقت امرأتك وأنت بهذه الحكمة.

– تعلمت الحكمة منها.... من فشلى معها، ومن فساد الكلمات، إما أن تصبح الكلمة واقعا أو أن نكف عن ترديدها.

–3–

وبعد يا فردوس؟ إلى متى تتلكئين وتقاومين وأنا ألهث وراء تقلباتك وكل حياتى معطلة إ من حكايتك، أملى يتزايد وإصرارى يتحدى و سبيل إ هذا السبيل مهما طالت مناوراتك، إعقلى يا فردوس ووفرى الوقت لنا، أ حظ أنك بدأت فى إدراك أن فرصتك أكبر وأن أمانتى معك هى نوع من الارتباط أقوى من الكذب والنفاق والاستغلال.

سوف أعتبر أن الحضارة هى أن أمضى أربعا وعشرين ساعة واعيا عاملا متفاعلا، أنا "الحضارة"....!!

= فلتكن أيامنا مليئة بالحياة، مازلت انتظرك يا فردوس.

كلام غير مفهوم كالعادة، لكن ثم اختلاف، أشعر وكأنه يطرحنى أرضا..

وقد كان.

كان فى تلك الليلة، طرحتْ مقاومتها أرضا، أشرقت شمسها حتى غمرنى دفؤها فسبحتُ فى ضيائها، تمنيت الموت خوفا من اللحظة التالية، المفاجأة أكبر من تصوراتى وحساباتى، ◻ يمكن أن يكذب الجسد يا فردوس، ها نحن نقترب، ليست خدعة من صنف جديد.أنا متأكد، ليس تماما، أريد أن يتوقف الزمن حتى ◻ أفاجأ بما بعد هذه اللحظة، يهددنى أى احتمال آخر.

أنظر إلى الباب وكأنه عالم غريب على، أخشى قدوم أى طارق يثبت لى أن هذا الذى حدث غير قابل للاستمرار.

أنا مساهم لا محالة فى صنع نفسى، يعنى بلدى، يعنى الإنسان فى أى مكان فى الأرض

****

تحققت مخاوفى تدريجيا، ◻ يمكن أن يكون هذا هو نهاية المطاف، لحظات اللقاء الغامر الرائع كلها صدق ومع ذلك فهناك نقص ما، نقص جسيم ◻ أدرك حقيقة أبعاده.

– أليس هذا هو نهاية المطاف يا عبد السلام؟

= بل ربما بدايته إن استطعنا.

– لست أفهم ما تعنى.

= قلبى غير مطمئن.

– إذهب أنت، وسأنتظرك لأجعل من بيتنا الجنة نفسها.

= فى هذه الجنة خطأ ما.... و◻بد من ا◻ستمرار

– ماذا تريد منى بعد ذلك، أو أكثر من ذلك؟

= أين أنتِ؟ أكاد ◻ أرك على بعضك، كأن داخلك الرائع قد انقلب إلى الخارج جميعه فلم يعد هناك داخل، ليس للإنسان كيان إ◻ بالحفاظ على أعماقه دون أن يعريها فجة.

****

تيقنت يوما بعد يوم أن هذه الإشراقة الحقيقية لم تكن إ نتيجة مباشرة للتراجع وا ستسلام، ألغت فردوس كل القيود فحدث هذا التوافق المفاجئ، تحاول أن ترشونى بكافة السبل وأستجيب لها فى كثير من الأحيان، انتصرت على عجزى نهائيا، أحيانا يراودنى خاطر خبيث أن أتناسى بقية القصة باعتبار أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، نكف عن الذهاب ونحترم السن والإمكانيات والأيام والواقع، أكاد أستسلم لهذا الخاطر بضع ساعات حتى يثور على داخلى (عقل بالى!! والله زمان!)، فأحس بالخطر الداهم، عاودنى الحوار مع عقل بالى لكن دون شطح أو سخرية.

= لن تمر فترة حتى تنفرد بك لتلتهمك قربانا فى هذا المعبد الشبقى البهيج.

– يخيل إلى أننى أرفض الشئ ونقيضه؟ إلى متى؟

= إلى أن تقبل الشئ ونقيضه.

– أحسدها أحيانا وهى فى قمة نشوتها ناسية كل شئ، متناغمة مع الجزء الذى حدَّدَتْه، وأنا مثل ذكر النحل، عاملا ثانويا يحقق تألقها الشبقى المقدس، يا ليتنى كنت هى.

= كاذب، لن تستطيع، و أنت تريد

– أستطيع لو أغلقت علىّ أبوابى ونسيت كل العالم وألغيت الوقت وعشت عمق اللحظة ونشوتها.

= .... جرِّب

– أفكر أن أترك نفسى معها إلى نهاية النعيم، ماذا فى ذلك؟ هل ستتهدم الدنيا فوق نافوخى؟ هل ستتوقف الأفلاك لو شاركتها خدعتها

= حاول، ثم قابلنى.

أن الحضارة ليست نتاج الرفاهية ووفرة الوقت، ولا هى عناد فنان أو تقشف فيلسوف، إنها أنا الذى هو كل هذا معا، الفنان أو الفيلسوف أو العالم إنما يسجلانى "أنا" لمن لا يستطيع أن يكون أنا

بالرغم من كلِّ ماحدث، فمازال عقل بالى أذكى وأصدق منى، ومن عقلى، المصيبة أننى أستطيع، وفى نفس الوقت أستطيع رفضها، أستطيع أن أرضى بما وصلنا إليه، و أنا قادر على تخطيه، بعض أفراد المجموعة يكاد يكتشف سرى ويتهمنى بالتوقف والسرقة، أنا لم أتوقف عن المحاولة يا جماعة، ليس من حقكم أن تحكموا على هذا الحكم القاسى، كلكم تخليتم عن مسئولية مثل هذه العلاقة إما بالعزوف أو بالهرب أو بالفشل، حتى إبراهيم الطيب، جرحه مازال ينزف و ضمان لنجاحه فى الجولة القادمة، نجوى هربت وتركت ابنتها ولم تحقق شيئا، ترى هل تدركين ما بى يا نجوى، أنا أحس أنك تقدرين صعوبتى وإصرارى.

حين أفترض أن الطريق الوحيد الباقى لى قد ينتهى إلى لا شئ،

– أخشى أن تيأس منها يا عبد السلام فأحس أنا بالوحدة أكثر فأكثر، وبالفشل أقرب.

= لست هنا لأيأس يا نجوى.

– اليأس يتربص بنا عند كل منحنى، وعمركما يبرر أى توقف.

****

دخلنا العقد الخامس يا فردوس ومازلنا فى بداية البداية، أى بداية مهما تأخرت هى أفضل من حياة كاذبة حتى لو مضينا بقية عمرنا عند نفس نقطة البداية، الموت نفسه أصبح بعيد المنال، إن لم تكملى يا فردوس حتى تشعرى بالناس وبى دون أن ينقص هذا من وجودك وسعادتك فلن تنتهى إ إلى الضياع من جديد، لن تنجحى فى خداعى مهما قدمت لى من أطباق شهية رغم ما تعلمين عن جوعي,.... أنا فى حاجة إلى نوع آخر من الصحبة، أنا فى انتظارك يا فردوس، يثيرك رفضى وتتساءلين عن أسباب وساوسى، أنا مصر على إكمال الطريق، أنا لم أنس أيام العمى ثم العاصفة وهزات البرق والرعد وجبال الظلمات، لم أنس عجزى، و "أماني"، و أمها الحاجه، و آمال و المرأة السودانية، ولأنى لم أنس كل ذلك فلن أرض بالتوقف لأن نتيجته هى العودة

خدعة الوحدة توحى بالاتزان الظاهرى، أنا مصر على كسرها رغم فشلى المتكرر

إلى كل ذلك بعد أن أكون أكثر ضعفا وأشد إنهاكا، □ يا فردوس لست بديلا عن الناس، سماح جسدك لن يقنعنى بالتوقف، أحس أحيانا وأنا معك فى السرير أنى سمسمة جافة على سطح وعاء مملوء بالدهن المتكاثف، حين تنصهرين أحس بالبرد والتقلص، الناس والتاريخ ينتظروننا يا فردوس، أنا □ أصرح لك بموقفى الجديد، أشعر أننى ممتلئ بشئ رائع، □ أستطيع أن اسميه ربما اسمه "الحياة"، ماذا لو قلت لك أنك شخصيا أول خطوة "نحو انطلاقى إلى رحاب حياة كاملة فيها فائض الوقت للإسهام بما يبقى ويفيد الحضارة"؟ هل هذا كلام عاقل؟ أنا □ أقوله، □ لك، و□ لغيرك، □ تستهينى بتجربتنا على بساطتها، تبدو لى أحيانا أنها مجرد أزمة إعاقة فردية □ تعنى شيئآ، يقفز لى يقين مضاد يؤكد أنها تحد للفشل ذاته لإثبات أن الإنسان يمكنه أن "يعيش"، كلام فارغ، لذلك □ أعلنه، مع أنه كل حياتى،

أشاهدك أحيانا تنفضين التراب عن كتبك أيام الكلية وأحس بدبيب الأمل يتسرب إلى عقلى ووجدانى، أحلم بصحبة حقيقية، آه لو فعلتيها يا فردوس، □بد أن تفعليها وحدك لك، كل ما أستطيعه هو أن أرفض استمرار أى حل آخر.

جرح إبراهيم وخوفى علَّمانى أن أحافظ على شعرة معاوية، أشعر أحيانا أنى أطلب منك ومنى أسهل شئ فى الوجود، وأحيانا أشفق عليك من محاولة فشل فيها جميع من هنا على حد علمى، غريب أشجعنا، انقطع عن الحضور، هو يتجنب لقائى على السلم، أنا الذى دعوته فى أول الأمر، كان أشد حاجة إلى المساعدة منى ومنك، وها هو ذا ينسحب فى إصرار.

أفكر فى أن أعاود المحاولة معه.

-4-

= لماذا امتنعت يا غريب عن الحضور

- خدعتنى مرة.... فلا تحاول استدراجى ثانية، أنت غيرى يا عبد السلام، هذا ما أحاول أن أوصله لك منذ اليوم الأول الذى تعارفنا فيه.

هل كتب علينا أن نكذب عليهن حتى يرضين؟ أو أن نصبح قوادين سرا أو علانية؟ لا تكاد تفتح أحداهن عينيها حتى تبحث عن طريقة خاصة تبرر بها اعتمادها الجديد، وتعلن أنها إنما تبحث عن لغة للتفاهم، والاستماع لمن يقدر مواهبها الغائبة عن فراش زوجها الغبى

= أنا غيرك، هذا صحيح، ولكنا التقينا فترة، وأنا أفتقدك كل يوم أكثر فأكثر.

– ﷲ تخدع نفسك، لم نلتق أصلا، يكفيك فردوس، أنا ﷲ أستطيع التظاهر مثلها.

= لست مخدوعا، ولكنى صابر لأنى أعلم صعوبة الطريق وطوله.

– ماذا تريد منى؟

= أنت تمثل لى الباقيين، وعلاقتى بكم تحمينى من بيع نفسى لها، أو سرعة الضجر منها.

– تريد أن تستغلنى لأحميك منها؟

= أستغلك وأسمح لك باستغلالى يا أخى، يا ليت.

– هأنذا أسكن أمامك فافعل ما تشاء بلا تعقيدات فارغة، أم أنه ﷲبد أن نلتقى عند طبيب مرتزق.

= هناك نتكاشف ونتعرى دون حرج، ثم ﷲ تنس أنك تصدنى بطرق مختلفة باستمرار، وأنا ما عرفت بعض حقيقتك إﷲ هناك.

– مالك أنت وحقيقتى، إياك أن تخدع فى ذلك اليوم الذى تنازلت فيه عن وعيى، كانت لعبة تصنعتها بمحض إرادتى، وأظنك أذكى من أن تتصور أنها تواصُلٌ ما.

= تراجعك ﷲ يخدعنى ولست مصرا على نقاشك ولكنى أشفق عليك من وحدتك.

– يا عبد السلام كفى إشفاقا، شبعت نصائحا وتبرعات عاطفية منذ عرفتك، وأحب أن أواجهك بوقاحة تعلمتها من شيخك البذئ، إذا لم يكن فى قدومك هنا شئ غير النصح واتهامى بالمرض، أو دعوتى للعلاج، فأنا ﷲ أريد أن أرى خلقتك وﷲ مؤاخذة.

= أحس بخوفك أكثر، ورغبتك فى اﷲقتراب أكثر.

– علمتنا هذه اللعبة الوقاحة والتبلد معا.

تعلمت الحكمة منها.... من فشلى معها، ومن فساد الكلمات، إما أن تصبح الكلمة واقعا أو أن نكف عن ترديدها

= شكرا، ولكن أى علاقة أفضل من شئ.

– مثل علاقتك بفردوس، ملكة الحمام المحشى، هنيئا لك بها.

= أنا أكف عن مواصلة السعى معها وإليها.

– أريد شيئا آخر.

= أم تريد شيئا البته؟

– من حقى أن أحلم كما أشاء، والنساء ليس لديهن إ الخوف والكذب وأنت لن تفهمنى حتى الموت.

= المحاولة المستمرة أفضل من التسليم.

–.... واللحم المذبوح "بطريقة شرعية" أرخص الموجود

= ألومك يا غريب، و أستطيع أن أنسى محاولتك الصادقة ذلك اليوم، وأنت وسطنا متفجرا برغم روعة المقاومة.

– يا ليتك تنسى يا أخى وتريحنا من ادعائك الشهامة والشعور بى كذبا وعدوانا.

= هل تستطيع أن تنسى أنت؟

– أحاول جاهدا، وسأنجح.

= يا ليت..

– وجودك جاراً تسكن قبالتى مصيبة فى ذاتها.

أعلم ذلك، ولو أزمة المساكن ما رأيت خلقتى بعد اليوم، ما أبشعها وما أصدقها نهاية، لم يتغير غريب منذ عرفته، كنت آمل أن أجد صديقا حقيقيا فدعوته ليرى بنفسه هذه المحاولة الجديدة، خاصة وأنه قد بدأ طريق العلاج من قبل، توقف مصرا على اجترار ألمه ووحدته إلى ما نهاية، أنظر فى سائر أفراد المجموعة وهم يتراقصون على السلالم فأشفق عليه وألتمس له العذر، ثم أنظر إلى وحدته وألمه فأشعر أن أية محاولة خير من هذا التوقف اليائس، كيف إذن يا فردوس تكون حياة أو سعادة أو حضارة وأنت تنسين غريبا تماما وهو يسكن

أريد أن يتوقف الزمن حتى لا أفاجأ بما بعد هذه اللحظة، يهددنى أى احتمال آخر

ليس للإنسان كيان إلا بالحفاظ على أعماقه دون أن يعريها فجة

أمامك؟ كيف تحلقين فى السماء السابعة وتتصورين أن هذا هو نهاية المطاف، وغريب على مرمى بصرك مطحون تحت سابع أرض بلا معين وهو يخطر على بالك ولو ثانية؟ لن أتحرك من موقفى، لن أقترب أكثر حتى تقفزى على كتفى، ولن أبتعد أكثر حتى تبررى لنفسك الدعارة، عليك أن تكملى الطريق وحدك وأنا فى متناولك بكل صدق تجربتى.... أبارك كل محاولتك رغم أنى أشعر أنك قد تبتعدين عنى لكن دون ارتماء فى أحضان أحد إلا حضن ذاتك، يطمئننى ذلك أكثر إلى قرب عودتك ثانية إلىّ باختيارك أقصد إلينا، لن أرضى بالوحدة ولن أمارس الكذب وليتحقق المستحيل أو نمضى بقية حياتنا فى نفس النقطة، الصبر والوقت والإصرار والعدل، تلك هى قيمى الجديدة، أذكرها لأحد، ولا أفرح بإعلانها، لكنها أبسط ما أتصوره الحد الأدنى المبرر لوجودى، كل أملى يا فردوس أن تصدقى محاولتى من واقع مسيرتنا اليومية، أحظ تسهيماتك اليقظة أحيانا، أحس أن عقلك قد دبت فيه الحياة من جديد وأنتظر.... لابد أن يحدث الشئ يوما ما

لا أستطيع أن أرضى بما وصلنا إليه، ولا أنا قادر على تخطيه.

– التحقت يا عبد السلام بوظيفة مدرسة إعدادى.

= دون مشورتى...؟

– نعم...

= هكذا..؟ ببساطة..؟

– نعم..

= شكرا يا فردوس.

– ليس شيئا يخصك حتى تشكرنى عليه.... ألم تكن أنت سبب بقائى بالمنزل؟

= كان الخوف هو الموجِّه الأول، وعلىّ أن أعتذر وأشكرك لمحاولتك الإقتراب.

– أنا أحاول الاقتراب، ولكنى أزيل آثار العدوان.

= أنكر دورى المعوّق.

– لم أنتبه إليه إ أخيرا، إ أنى مسئولة عنه تماما، هكذا تعلمت.

= لم يكن لدينا خيار، كنا وحدنا...

– أنا وحدى الآن أكثر من أى وقت مضي

= أشعر بذلك، وهذا هو ما يشعرنى أنك أقرب إلى من أى وقت مضى.

– أستطيع أن أدرك معنى هذا الموقف الصعب، يبدو أنه يستحسن أ أدرك معناه، يكفى أن نعيشه.

= ليكن.... ولكن كيف، كيف يمكن؟ ... يهم، المهم، أنه يمكن.

– سيحدث.

-5-

أى بداية مهما تأخرت هى أفضل من حياة كاذبة حتى لو مضينا بقية عمرنا عند نفس نقطة البداية

كنت أهبط الدرج ببطء، وإذا بى أجد نفسى وجها لوجه أمام غريب، واجهت منظرا لم أره فيه أبدا، أنطفأ وجهه أكثر من ذى قبل، زادت فيه التجاعيد فجأة، كما برزت عظامه وكأنه لم يأكل منذ شهور طويلة، لحظت رباط عنق أسود مختبئا وراء ثنيات سترته التى تهدلت عليه بشكل ملحوظ بعد هزاله البادى، توقفت قليلا وترددت فى مفاتحته فى أى شئ ولكنى أحسست بألم طاغ منعنى من انسحاب، هل فقد عزيزا دون أن يعلم أحد؟ هل هو ممن يواسيه العزاء أم يقلبّ أحزانه؟ أنا أعلم له أقارب يمكن أن يمثل فقد أحدهم كل هذا التغيير.

= أنا آسف يا غريب.... لم أعلم شيئا.

– شئ، شئ...

= لماذا هذا الرباط الأسود، نحن جيران يا غريب، ياليتك تسمح لى حقيقة أن أكون بجوارك.

– فائدة.... كنت أعلم دائما أنه فائدة، ثم تأكدت الآن تماما،

= لماذا كل هذا اليأس يا أخى؟ ترفضنى فأنا أحوج أن أكون بجاورك مها كان.

– إفعل ما تشاء، لقد فقدت القدرة على أى شئ حتى على الرفض.

= من ذا الذى فقدت حتى يغيرك إلى هذا الحال.

– فقدت كل شئ، كل شئ.

= ﷺ يفقد الإنسان أى شئ ما دام نفَسَه يتردد.

– كفى عبثا وتلاعبا بالألفاظ.... شبعت أوهاما.

= يا ليت يا غريب ياليت، ياليتك تقول لى أى شئ.

– لن تفهم شيئا.

= حدثنى يا غريب، لعل الخيط بيننا لم ينقطع تماما.

– ماتت صفية أبشع ميته.

= من صفية؟

– لقد التقيت بها عندى يوما، هى أشرف وأصدق من عرفت، هى الوحيدة التى أحبتنى بلا مقابل.

= آه.... تلك الـ.... يرحمها الله.

– الـ.... "ماذا" يا عبد السلام، أنت وجميع من تعرف ﷺ تساوى شيئا بجوارها.

= قضاء الله يا غريب، لعلها تصنع لك بموتها ما عجزت عن أن تفعله لك فى حياتها.

– ماتت، وأنا السبب.

= ﷺ تتهتم نفسك بما ﷺ يكون، ﷺ يتسبب أحد فى موت أحد.

– يا عبد السلام أنت ﷺ تعرف ماذا فعلت، تخلصتُ منها بأنذل مما تتصور، أرسلتها بيدى إلى حتفها، يأسى وعجزى كانا السبب فى موتها.

= لعل الله قد رحمها يا أخى، كانت حساسة ضائعة فى عالم من الكذب والسحق، لعلها استراحت من كل هذا الشقاء والمتهان.

– وأنا؟ كيف أستريح من شقائى وامتهانى.

أشعر أننى ممتلئ بشئ رائع، لا أستطيع أن اسميه ربما اسمه "الحياة".

= أستطيع أن أقول لك ارجع إلى المحاولة بعد ما كان، فلا أخالك تقبل، إنى متأكد أن ثَمَّ طريقا يقفل بابه أبدا.

– طريق...؟ ألن تكف يا عبد السلام عن تهاويمك؟ حتى الموت يوقظك من سباتك.

= لن نتناقش ثانية مثل زمان، ولكن ثَمَّ طريقا يظل مفتوحا، وهذا هو السبب الوحيد للاستمرار.

– لو كنت معى ورأيت جسدها بعينيك وهم يهيلون عليه التراب لعرفت ما هو الطريق الأوحد الذى تنادى به، إنه الطريق إلى هناك، لن يكمم أفواهنا عن الخوض فيما يكون إن حين تمتلئ بالتراب الرطب الحنون.

من حقى أن أحلم كما أشاء، والنساء ليس لديهن إلا الخوف والكذب وأنت لن تفهمنى حتى الموت

= ما أبشع ألمك، لفتة صغيرة قد تريك ماذا يعنى الألم,.... إنه تصميم على الحياة.

– جوف الأرض هو الرحم فحسب، الحقيقة الوحيدة تجدها فى مقابر الإمام يا عبد السلام.

= الله رحمان ورحيم يا أخى.

– تذكرنى بيقين ذلك الفلاح الفطرى إبراهيم الطيب..أو تشنج عبد السميع الأشرم.

= أنا أعنى فعلا "الطريق إليه"، هذا ما عنيته منذ بداية حديثنا.

– هل تعرف أى اسم من أسمائه، كنت أعتزم تسبيحه حين فكرت فى التصوف يوما.

= هل فكرت يوما فى ذلك حقيقة؟

– كنت أنوى أن أسبحه طول الليل فى مكبر خاص صائحا به: "يا جبار يا جبار" حتى أصل إلى الوجد الصوفى الذاهل، أو إلى سجن مصر.

= لم تتركك سخريتك حتى بعد هذه الصدمة.

– لست أسخر يا عبد السلام ولكنى أحذرك من هذا التخريف الخادع.

= المسألة أقرب من كل هذه المخاوف، أحس أنه أقرب إلينا منا، من عرف نفسه عرفه.

– خدعة جديدة، ومذهب نور الدين ينتشر بأسرع مما توقعت.

= أى مذهب يا أخى.

– أى مذهب تتبعه هو الضلال بعينه مادام يلهيك عن حقيقة الموت والتراب.

= يا غريب، يا غريب، إسمعنى.

– يا عبد السلام، اذهب الله يخليك، إذا لم تجدنى فى الصباح فأعلم أنى سافرت إلى كندا.

= كندا؟ هكذا بين يوم وليلة، إن هذه الأمور تحتاج إلى ترتيبات،

– قمت بترتيب كل شى ء وأنا أودع صفية.

= ماذا تقول يا غريب؟

–.... لعلك توافق على كندا.... اعتبرنى سأسافر إلى استراليا، الأرض هناك مازالت خاما لم يشوهها الإنسان، وهى أرحب وأكثر حنانا بأجسادنا.

= غريب

– نعم يا عبد السلام أفندى يا مشد

– لن أدعك اليوم.

– تضيع وقتك يا أخى بلا مبرر، ولكنى لن أحرمك من هذه المتعة قبل سفرى.

= سبيل يا غريب إ البداية من جديد.

– مهاجر فورا إلى كندا أو استراليا أو روسيا أو بنجلاديش أو الإمام الشافعى، ولكن أبدا ليس عند طبيبك المفتون.

= المحاولة مستمرة فى كل مكان،

– موت صفية هو من أثار هذه المحاولة المستمرة

= ماذا تقول يا غريب؟ ماذا تعنى؟

– أ يحضر مختار لطفى معكم حتى الآن؟ أ يعالج بأحدث الوسائل؟ أ يمثل أعظم صور الحرية العصرية؟!.

=..... مختار ماله مختار بما نحن فيه الآن، بما أنت فيه؟

– هو يسهم فى استمرار المحاولة بطريقته الخاصة.

= أفهمك يا غريب.

– يوما ما، فى مكان ما.... قد نلتقى... وتفهمنى

الأحـــــد 2018-07-15

العدد: 3970 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) الفصل الحادي عشر (والأخير)"إبراهيم الطيب" رواية "مدرسة العراة"

لا أحد يدرى ما بى، ربما لا أريد أن يدرى بى أحد، كل واحد منهم يتصور أنه يستمد منى شيئا ما، أجد فى هذا ما يبرر استمرارى، أغلبهم يطمئن لوجودى، يثقون فى، هكذا يخيل لى

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية" **مدرسة العراة** [1] "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى **الجزء الثانى** :من ثلاثية" **المشى على الصراط.**"

وهذا هو الفصل الحادى عشر (والأخير)

"إبراهيم الطيب"

-1-

كلما اقتربت من نهاية مرحلة ما – أو خيل إلى ذلك – أحسست بخطورة الخدعة، □ بد من اليقظة المستمرة حتى □ يستدرجنى أى بديل مهما بدا براقا سهلا، أخذت دورا أكبر من قدرتى.... أخذته بكامل وعيى وحسب رؤيتى، وأعتقد أنى قمت وأقوم به بكفاءة، ترى هل هذا الدور هو أنا؟ أ□ يمكن أن يلهينى عن حقى فى الحياة؟ هذا هو الخطر القائم المهدد، منتبه إليه ملء وعيى... لكنى لست مترددا و□ متراجعا، يبدو أنه ليس عندى بديل.

وحيد تماما، بالرغم من أنى أشعر أن نبض الحياة فى داخلى يكفى لأن يدفع بعجلة الناس– كل الناس– إلى نهاية المطاف، المطاف الذى أعرف له نهاية، أتساءل لماذا يدفع عجلتى أنا أو، أحيانا أحس أن عجلتى تلف مثل "كورونا" السيارة لتدفع بهذه اللفات عجلاتهم إلى الأمام، هل تكون هذه الحركة ذاتها انتقال بى إلى الأمام ضمنا؟،

وهمٌ آخر أخشى الوقوع فيه، أحد يدرى ما بى، ربما أريد أن يدرى بى أحد، كل واحد منهم يتصور أنه يستمد منى شيئا ما، أجد فى هذا ما يبرر استمرارى، أغلبهم يطمئن لوجودى، يثقون فى، هكذا يخيل لى... ولكنى أزداد وحدة حين تخطر على بالى حقيقة موقفى، وأن أحدا منهم يرانى كما أنا، ومع ذلك فأنا أحبهم، وهل أملك إ هذا؟ تبدو حياتى فى حبهم وحب من هم مثلهم ومن ليسوا مثلهم، فقط أريد أن أحب نفسى بنفس القدر ونفس الوضوح، "أن تُحِب" هذه ثروة أخرى أرحب وأدوَم.

أكرمونى بكل ذلك.... ولكنهم قيدونى قيدا عنيفا أعلم كيف السبيل إلى أن أتخلص منه، و متى، ثرى هل سيستمر الأمر هكذا إلى نهاية المطاف؟ جاهز أنا لحملكم من أول فردوس الطبلاوى حتى عبد السميع الأشرم، حتى غريب نفسه لم يتنازل عن ذاته تلك المرة إ وأنا أحيط به، كل هذا يعطى معنى لوجودى، أحس أن بقائى على هذه الأرض – رغم كل شئ – هو مفيد بشكل ما، أ يعطينى هذا الحق فى أن أستمر، بل الفرحة فى أنى مستمر.

أرجع أتساءل: هل هو حقى أم واجبى؟ أحس أن الفرق ليس كبيرا، أشعر بحقى فى الحياة إ من خلال تواجدى معهم، فأين حقى الذى اكتسبته بالولادة، هل نسيت أمى أن تعطينيه؟ هل ضاع بين اللفائف والضجة وبقايا الأشياء؟ هل أخذه الناس خطأ قبل أن أتعرف عليه أنا صاحبه الأول؟

وحيد حتى القاع، وحيد فوق القمة، وحيد معهم وبهم ولهم، مانع، هى البداية غالباً، وسأظل وحيدا حتى يرانى أحدهم دون أن يستدرجنى إلى لعبة البيع

أزداد وحدة حين تخطر على بالى حقيقة موقفى، وأن أحدا منهم لا يرانى كما أنا، ومع ذلك فأنا أحبهم، وهل أملك إلا هذا؟

فقط أريد أن أحب نفسى بنفس القدر ونفس الوضوح، "أن تُحِب" هذه ثروة أخرى أرحب وأدوَم

لا أشعر بحقى فى الحياة إلا من خلال تواجدى معهم، فأين حقى الذى اكتسبته بالولادة، هل نسيت أمى أن تعطينيه؟

والشراء، دون أن يمصمص شفتيه، دون أن يجرجرنى إلى الوراء طلبا للراحة، دون أن يرفعنى على كتفه أو يقفز فوق رأسى ويدلى قدميه حول رقبتى، وحيد معك أنت شخصيا يا شيخى الطيب، لن أنكر فضلك ما حييت حتى لو لم أتقدم خطوة عما أنا فيه، كان موقفك هو مفتاح هذه المرحلة التى أخوضها بكل ألمها وقسوتها وعبثها وروعتها، لم تُشوِّه زوجتى الداعرة، ولم تصفها بذلك، أنا الجبان الذى كررت ذلك مرارا، جئتك وفى قلبى حقد العالمين ولم يكن قد تبقى إ الترتيبات النهائية حتى أقبض روحها حقيقة مجازا، ماذا بعد الخيانة؟ الكذب والخديعة يخرجان لى لسانهما فى مرآة الحمام.... وزجاج الأتوبيس، وشمع الأرضية، صورتها تبصق فى وجهى والأطفال فى الشارع يشيرون إلى هاتفين "أبو خليل، أبو لبن" "كرباج ورا يا اسطي" قرأت ذلك فى نظراتهم، لم يصل بى الحال إلى سماع ما يقال، ولكن الخيانة أكبر من احتمالى، وياليتها خيانة فيها قصة حب أو أى قصة مما نسمع عنها، كانت مجرد خيانة مفتوحة النهاية، كيف لم أشك فيها قبل ذلك؟ جئتك يا رجل لتصدمنى بحقيقة أن الحكاية – مثل كل حكاية – تبدأ بداخلى أنا: تعلمت معنى آخر لكلمة "المومس"، اكتشفت أن أى علاقة غير صادقة هى علاقة مومسية، جاءنى اليقين من خلالك حتى كدت أشكر زوجتى المسكينه أنها صدمتنى بهذا الوضوح بد من أن تواصل ممارسة معى نفس العلاقة بورقتنا المشروعة فأظل مسحورا منوما حتى الموت، رحمتنى معرفة هذه الحقيقة من انسياق وراء مبررات القتل وانتقام التى كان يمكن أ يكون أمامى غيرها، لكنها فتحت على أبوابا قبل لى بها، ورؤية يحتملها أحد لكنها حقى بلا شك، وشرف وجودى.

أوقفتنى يا شيخنا على الأرض عاريا معزول، نزعت منى سلاح انتقام والبكاء على الظلم واضطهاد، هأنذا أمضى عاريا: جلدى ينزف وجرحى يفرز الصديد، والناس من حولى تلوّح لى بحقى فى الحياة، حقنا، ربما وأنا معهم، لست متأكدا، هل يكفينى هذا حتى الموت؟ كيف أكسر وحدتى يا شيخى الطيب؟

تعلمت معنى آخر لكلمة "المومس"، اكتشفت أن أى علاقة غير صادقة هى علاقة مومسية.

أحيانا أتصورك مريضا مثلنا سواء بسواء، لافرق بيننا إلا أننا ندفع وأنك تقبض، أنا أصارع وحدتى ليل نهار فماذا تفعل أنت؟

كيف أحتمل أنا الحرية والانتظار؟! جرحى ينبض بألم رائع، كيف أعيش إلا بكم؟

وعيناك تحذرنى من الاعتماد عليك، تخشى أن أتخذك بديلا عن نفسى؟ ولكنك أيضا أوقعتنى فيما ترى.

أنت تحيرنى يا شيخى، ماذا فعلت بوحدتك أنت، لعلك وحيد وحدتى وأكثر، هل ياترى لك جرح مثل جرحى؟ ما الذى رماك على الناس هكذا إلا قلة الناس، أكاد أقسم أنى أعرفك ولا أملك لك شيئا سوى هذه المعرفة، هذه العلاقة الصامتة تعطى لحياتى معنى آخر ولعلها تعنى لك شيئا حقيقيا، دون أن نعلنها يتهموننى أحيانا أننى مساعدك مثل إصلاح فاضل وأتمنى أحيانا أن أكون مساعدك فعلا، لو أن لى مثل مهنتك اختبأت فيها بقية حياتى غير ملتفت إلى وحدتى وألمى أصلا، ولا مانع من الارتزاق على الماشى، أشك فيك أحيانا ولا أراك إلا حرفيا ماهرا، أعود وأراجع نفسى وأتساءل: وماذا فى ذلك؟ أليست حرفتك هى التى ضمدت جرحى فى نفس الوقت رغم أنه ما يزال ينزف؟ إلا أنى واقف أمسح ما يتراكم عليه بشجاعة عاشق الحياة المزمن؟ أحسدك على حرفتك وأشفق عليك منها، ربما تضطرك إلى نسيان نفسك بقية حياتك، أما أنا فمضطر لكسر وحدتى مهما استغرقت فى مساعدتهم، فرصتى أفضل منك، سأعطى نفسى لهم فترة موقوته تؤكد لى قدرتى، ثم أنطلق منها إلى... إلى... إلى أين؟ إلى ما يمكن بدءًا بنفسى! ولكن كيف؟ أحيانا أتصورك مريضا مثلنا سواء بسواء، افرق بيننا إلا أننا ندفع وأنك تقبض، أنا أصارع وحدتى ليل نهار فماذا تفعل أنت؟ أنا أتقبل ما يلوح من حبهم بصبر وحذر حتى دون قصد منهم، هو يثرينى بما يناسب حاجتى، أعطيهم ما يريدون ولكنى أخدع نفسى، وأرتفع فوقهم.

أستطيع أن أميز من هو الأصعب فيهم، أحترم محاولات فردوس برغم ظاهر استسهالها:

– ابراهيم تبدو واثقا هكذا وا حسبتك "ملكة".

= هذا طريق أعرفه تماما يا فردوس..... ليس تماما تماما، ولكنى أعرف ضرورته وأنه ليس لى إلا السير فيه، أنا أكذب عليك يا فردوس ولا على

كلما غمرتنى آلامى حتى أكاد وكادت تثور علىّ فجأة أنسى كل شئ، أجرى نحوكم لاهثا أرتمى فى أحضانكم لأصدق وجودكم حوالىّ

أخاف أن أضع بيضى كله فى سلته، من يدرى فقد يكسرها فى لفتة هنا أو سهوة هناك – حتى بلا قصد، أنتم أهم عندى منه، وأنا أهم من الجميع، يا ليت!!،

انتقل الضجر المر والابتعاد البطىء إلى إعلان الشرخ الذى ظهر بيننا: عميقا متزايدا معلنا عن الأخدود القابع فى حياتنا من داخل الداخل....

غيرك حين أقول أنى أعرفه تماما أعنى ذلك تماما، أحد يعرف طريقه تماما، ثم هل ترين لى طريق آخر؟ وإ.

– أنا أحبك يا ابراهيم،

= وأنا أيضا يا فردوس

– يا نهارأسود.

= ليس أسود من قلوب الحقد

أحبك يا فردوس، وأحب نجوى وبسمة ومختار وشيخنا الطبيب،.. ما المانع؟ هذا رغم وحدتى الشائكة، أو بسببها يا فردوس، هل أمامى شئ آخر غير أن أحب؟ الكذب هو الحرام الأوحد يا فردوس فلا تهربى من خوفك، غاية ما يمكن أن نحققه هو أن أراك بحجمك وترينى كما أنا، زوجك عبد السلام يعرف لك معالم، هو لذلك يكاد يغرق فى بحرك، لو أنك يا فردوس أكملتِ شيئا حقيقيا، لو أنك نجحت مع عبد السلام بشرط الصدق رغم العرى والصقيع، لو أنك فهمت معنى ما تقولين، إذن نكسرت قوقعة وِحْدتى وأمِنْتُ للعالم من خلالكما، وحدتى قاسية والفرصة أمامك أكبر وأعمق، عبد السلام صبور رائع، لم ينسحب بغباء الجبناء، عفارم عليك يا عبد السلام، أتمنى لو صبرت عليها أكثر حتى تضطرها للتمرغ فى وحل الخطيئة وهى لم تفتح عينيها بعد.

صدق أو لا تصدق، موقفى منك يعطى حياتى معنى وأنا فى قاع الصبر والنبذ، إياك أن تحسب أنى أعطيتك شيئا من فضل، أنت تعطينى أيضاً، وربما أكثر، لو قبلت اجتهادى ومحاولتى

– أ تخاف مما تقوله يا إبراهيم؟

= بل أخاف مما أقوله، يا فردوس

– وعبد السلام ؟

= هو مثلك يا فردوس بالنسبة لى، بل لعلى أحبه أكثر.

****

= ماذا تفعل يا عبد السلام وحدك؟،

– الألفاظ تسعفنى يا إبراهيم فهل تعرف مابى؟،

= الأطفال جوعى للمسة عطف.

الضعف ليس عيبا ولكن العار كل العار فى هذه الحياة هو الشقاء، الشقاء جريمة، خول نذل غبى، هو سبة حياتنا مهما أقمنا حوله من أضرحة وقدمنا إليه من قرابين،

– والنساء يحتملن الحرية أو ا□نتظار.

= والرجال أكثر،

كيف أحتمل أنا الحرية وا□نتظار؟! جرحِى ينبض بألم رائع، كيف أعيش إ□ بكم؟ حسابات شيخى الطيب تلزمنى بالمسئولية عن كل ما جرى وما يجرى، آمنت بها حتى حسبتها حساباتى فزالت كل نوازع ا□نتقام، كلما غمرتنى آ□مى حتى أكاد وكادت تثور علىّ فجأة أنسى كل شئ، أجرى نحوكم هثا أرتمى فى أحضانكم لأصدق وجودكم حوالىّ، جرحى غائر يا عبد السلام، ومتقيح ورائحته نافذة، هو هو الذى أتى بى هنا إليك يا عبد السلام، وإلى فردوس، وإلى كل الناس، خطيئتها ليست فوق الغفران ولكنى أصبحت الآن شيئا آخر، وأنت تعلم يا عبد السلام ماذا تعنى المحاولة، لم أستطع أن أستسلم لها فانقطعت خطوط ا□تصال بيننا، لعبة الضياع ليس فيها كبير مهما اختلفت المعايير، من منا يا ترى وجد بغيته دون خداع؟ هى راحت تتدهور علانية، تزداد عمى وتزداد امتهانا لنفسها وتزداد بلادة، لم تعد تفهم أبسط العبارات ويبدو أنه أمل – فى مجال بصرى – فى إيقاظها، وأنا من يفهمنى لى؟ حتى بينكم، مع أنى أتصور أنى أفهمكم مجتهدا "معاً."

حتى الشيخ الحكيم نفسه أجرؤ على خوض بحره وحدى، أخشى أن ينغلق عالمى عليه فلا يشعر بى إ□ هو، أنتظر اصطحاب أحدكم إليه، أخاف أن أضع بيضى كله فى سلته، من يدرى فقد يكسرها فى لفتة هنا أو سهوة هناك – حتى بلا قصد، أنتم أهم عندى منه، وأنا أهم من الجميع، يا ليت!!، ياليتنى أصدق نفسى، إياك يا عبد السلام أن تتوقف عن المحاولة مع فردوس، ليست الشطارة فى أن تكتشف خدعة الحياة، ولكن أن تتحمل مسئولية اكتشافك.

تبينت دون قصد كيف كانت علاقتى مع "عزيزة" كاذبة مرهقة ثقيلة طوال سنوات طويلة، كان اكتشافا متسلسلا هادئا اتخذ شكل الضجر الثقيل المُمِلّ، حتى انتهيت إلى أن شيئا ما فى حياتنا □بد وأن يتغير، وما إن تراجعت بضعة خطوات، أنظم فيها صفوفى وأعود إليها لنبدأ من جديد حتى تبعثرت اللعبة كلها.

المصيبة فى هذه الجريمة، "جريمة الشقاء"، هى أن الجانى هو هو المجنى عليه والشهود الذين يحضرون ساحة الإعدام يدرجون فى كفنه العدم حتى يأتى دورهم، وهم يسيرون فى طوابير الوحدة الجبانة.

المخدرات المغشوشة تضاعف من الوحدة لا تكسرها

أنا أنتظر هذه اللحظة منذ سنين، لكننى لا أستسلم لفهمك، تكفينى صدق محاولتك

انتقل الضجر المر والابتعاد البطىء إلى إعلان الشرخ الذى ظهر بيننا: عميقا متزايدا معلنا عن الأخدود القابع فى حياتنا من داخل الداخل.... ابتعدت أكثر ونسيت كل شئ إلا استحالة الاستمرار، كنت أتصور أنى أنتظر أن ترى صدقى وصبرى– فتحاول أن ترى الجانب الآخر، لم تستطع الانتظار، سرعان ما وجدتهم فى كل مكان، لم أنتبه إلا مصادفة، وهأنذا أدفع الثمن، وما أغلاه يا عبد السلام، فلا تفعل مثلى يا أخى، الله يسترك ويسعدك، لا تترك فردوس ولا تستسلم لها، كيف؟ لست أدرى، لا تفعل مثلى والسلام، ياليتنى أساعدكما فيما عجزت عنه أنا، ربما كان ينقصنا أنا وعزيزة ثالث أمين، فلأ كن لكما هذا الثالث الأمين فأكفر عن خطئ وألطف جرحى بنجاحكما،ونجاحنا، ياليت يا عبد السلام، ويا إصلاح، ويا شيخى ويا غريب، ياليت.

لماذا كل هذا يا غريب بالله عليك؟ مصيبتك كبيرة وأنا أعرف ذلك، ربما مصيبتى أكبر، ابتسامتى الواثقة، وجنونى المحب، ليسا دليلا على أنى أعب من نهر التفاؤل دون حساب، هما علامتا إصرارى على ألا أستسلم لهذه الوحدة القاسية، أنا وحيد مثلك وربما أكثر، جرحى لم يلتئم بعد، أنا هنا بجوارك يا غبى... صدق أو لا تصدق، موقفى منك يعطى حياتى معنى وأنا فى قاع الهجر والنبذ، إياك أن تحسب أنى أعطيتك شيئا من فضل، أنت تعطينى أيضاً، وربما أكثر، لو قبلت اجتهادى ومحاولتى.

آه لو تسمعنى يا غريب يا أخى، ماذا فعلت بوحدتك حتى تاريخه يا غبى؟ أنا وحيد مصارع، أما أنت فوحيد تدعى الحكمة بالاستسلام قبل أن تحاول أصلا، الجبن ليس وراءه إلا الصقيع، والخيال المر، الوحدة! لا مفر من محاولة كسرها، حتى لو ظللنا نحاول يا أخى ونحن بداخلها مدى الحياة، قد يكفينا شرف صدق المحاولة.

المسألة تستأهل، أنت يا غريب تمضغ الزجاج المكسور وتشرب ماء النار، وتجعل الحروف التى تقرؤها تدخل فى عينيك كأسنة الدبابيس! ثم ماذا يا رجل؟

وجودك يعنى أنك تحاول كسر وحدتك بالرغم من كل دعواك، كل منا هنا ليكسر وحدته وإن اختلفت الطريقة، أنا بالخوف ومد يد المساعدة على ما تُسمى، وأنت بالإشعاعات الجنسية تحت شعار الحرية

لم أنجح فى الوصول إلى ذاتى أو كسر حواجزى ولم أخدع نفسى

أنت لا تدرك إلا ما فى عقلك، وعقلك ليس به شئ إلا صوتك الرخو وما نفستو حقوق الإنسان عن الحرية والمساواة.

ما يجرى وراء الكواليس لا يبشر بخير، كيف تلوّح للأطفال بحرية لا تستطيع أنت تحقيقها؟ كيف تحمّل الرضّع مسئولية الانتحار؟

ثم ماذا؟ أنت قادر على الموت والتبلد، و أنت تريد أن تحاول معى معنا، يدى ممدوة لك وقلبى مفتوح ووحدتى أكبر من وحدتك، فقط: خوفى أقل، لتعش معى هذا الخوف ونحن نحاول بصدق، ليست دموعا ما ترى فى عينىّ، هى قطر الندى الذى يطهرنا من أوزار الوحدة، أراها وراء مقلتيك بعيدا بعيدا، فلا تحبسها، الضعف ليس عيبا ولكن العار كل العار فى هذه الحياة هو الشقاء، الشقاء جريمة، غول نذل غبى، هو سبة حياتنا مهما أقمنا حوله من أضرحة وقدمنا إليه من قرابين، المصيبة فى هذه الجريمة، "جريمة الشقاء"، هى أن الجانى هو هو المجنى عليه والشهود الذين يحضرون ساحة الإعدام يدرجون فى كشف العدم حتى يأتى دورهم، وهم يسيرون فى طوابير الوحدة الجبانة.

حين تركت نفسك بيننا يا غريب ذلك اليوم وتفجر مخزونك صادقا مرعباً: أيقظت فينا أملا حقيقيا أن نتواجد معا دون أن يلتهم بعضنا بعضا، حسدتك يومها على شجاعتك وتمنيت أن يأتى علىّ الدور لأفعلها فى حضنك، فى ظل أمانك، حسبت أنك ستحتفظ بها ولكنك تراجعت بعدها مباشرة يا غريب، لملمت نفسك وتراجعت إلى أبعد مما كنت، لماذا يا غريب؟ ماذا أخافك يا أخى؟ ماذا حجر على وجودك؟ من أرعبك من حقك فى الحياة؟ من يومها تركتنا وحيدا كما جئتَ وأصعب.

وحدتى غير وحدتك يا غريب، قلت لك، أنا مازلت أحاول مع غيرك، ومع نفسى، فماذا تفعل أنت يا غريب، أسمع جَرْس كسر الزجاج يملأ فمك وأنت تمضغ الألم وحدك، أرى قطرات الدماء تقطر من عينيك من فرط صدق القراءة، ماذا أفعل لك؟، لو كنت أعلم ما يبرر كل هذا لعذرتك فى أن تنجو بجلدك من أى التهام أو مساومة، لو كنت قد استمررت مع زوجتى وحدنا مع عجزى عن قتلها ستمرت حياتى مثلك وألعن، أنت تركت المحاولة أصلا وجعلت كل الناس مثل بعضهم البعض كما يصورهم لك خوفك الغبى، حتى فى عز سخريتك اللاذعة المهاجِمة كنت أرى الدم يتسحب على خديك ثم يتساقط من شدقيك،

كيف تغرى الجوعى بأكل السم، ثم تتركهم يَتَلَوّوْن ذات اليمين وذات اليسار يدفعون ثمن جوعهم المر؟

ياليتك تكسر وحدتك بحريتك المزعومة ربما تحيى فىّ الأمل، وأنا أواصل سلخ جلدى حتى لا يتنحّس من اليأس أو يتيبس من جفاف قبح الانسحاب وتزييف الحاجة

أفضّل أن أظل أدمى حتى تحت التراب من أن ألبس درعا منسوجا من فشلك وخوفى، وكذب المخدوعين والمخدوعات

وحول قلبك، وتحت جلدك، أنت عارٍ وداخلك ينضح بالمشاعر وطلب النجدة بالرغم منك، لست غبيا حتى أضيع وقتى معك، □ سبيل إليك الآن، أشك فى قدرتك على النسيان، أنا فى انتظارك رغم أنفك، فمتى وأين ألقاك؟! لو لم تستسلم للغباء الأكبر وتختفى تحت التراب فلسوف نلتقى حتما.

– غريب يا إبراهيم

= ماله يا عبد السلام؟ ، لم نره من زمان.

– هو جارى كما تعلم وهو هذه الأيام فى حال.

= ماله يا عبد السلام؟

– شئ ما قد حدث له بعد فقد صديقة عزيزة عليه، شئ يبدو خطيرا، □ أفهمه جيدا، ولكنه يتكلم عن الهجرة إلى أستراليا، وعن حضن التراب، وعن أشياء غريبة أخرى، وقد أصابه الهزال بدرجة مخيفة.

= ما هذا يا عبد السلام، أنا أنتظره، أعتقد أنه سيعود ألينا

– أكاد أحس أنه ينتظرك أيضا، ولكن □ سبيل إليه فهو يكاد يقتل من يقترب منه.

= هل كتب علينا يا عبد السلام أن نتفرج على بعضنا البعض بقية حياتنا.

– حواجز الخوف المسلحة □ تُفتح إ□ لمن ينسفها.

= هذا يزيد من إصرارى على المحاولة.

– إياك أن تفقد حساباتك، أو تتهور.

= لو كان معنا الآن,... ربما.

– و□ ربما و□ غيره، □ يخدعك أملك، الحواجز قائمة قائمة حتى ونحن مع بعضنا، لو كان هناك شئ يُعمل قهرا لمن فى متناولك لعملته لزوجتك.

= ولكنها وجدت مخدرا يخفى وحدتها، أما غريب فيعيش بلا مخدر.

– المخدرات المغشوشة تضاعف من الوحدة □ تكسرها.

= أعلم، للأسف.

تدفعونى إلى معركة متصلة لتحدى سلبياتكم وهى داخلى ترعى، من يراها يصفعنى بها، ومن يعمى عنها يتحدانى بها أيضاً

وحدتى بلا حدود، وحيرتى دوامة بلا قرار، ومع ذلك فإن إجاباتى حاسمة وسأستمر بلا تردد، أتحدى سلبياتكم، أى سلبياتى، حتى الموت

أنا لا أملك الاستسلام ولا التراجع مهما تراكمت سلبياتى أو سلبياتكم خوفا أو استسهالا أو عمى أو ما تشاؤون من تسميات

الحركة تطمئننى، فلتستمر الحركة على الأقل، وسوف تنعدل الدّفة إليك: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ

– ﷺ سبيل للأسف يا إبراهيم.

= وما السبيل إذن؟

– السبيل هو تحقيق الممكن.

= ولكن المستحيل هو الممكن الوحيد الذى ينفع.

– أعلم ذلك، فليكن السعى إليه هو تحقيقه.

=..... على شرط أن نصل يوما ما.

– يوما ما.

-2-

ما أقساك يا مختار وأروعك، رأيتنى كما أنا غير رؤية الآخرين لى، ربما لأنك أقل من أخذ منى، أنا ﷺ أكتمك الحقيقة إذ أقول لك إنى أخذت منك أكثر مما أخذت منهم جميعا، رؤيتك لى زادى وأملى، رأيتنى كما أنا ولكنك توقفت بعد إعلان بيانك القاسى الصادق، أخذت أتساءل هل كنت ترانى أم ترى خوفك منى؟ حسبتها بداية علاقة أفتقر إليها من قديم، ﷺ علاقة إﷺ برؤية صادقة مسئولة، رؤيتك صادقة بلا شك ولكنها ليست مسئولة، ألم تسمعنى يا مختار، وأنا أستنقذ بك بملء وحدتى وألمى.

– أنا الوحيد الذى أفهمك، أنت تعلم ذلك يا إبراهيم

– يجوز، أنا أنتظر هذه اللحظة منذ سنين، لكننى ﷺ أستسلم لفهمك، تكفينى صدق محاولتك.

لكنها اللحظة التى لم تأت يا مختار، لوَّحتَ بها ثم ألقيتنى معها بعيدا ونعتنى بأبشع الصفات، كانت تلك نقطة بدايتى ولكنك تركتنى وحيدا ملطخا بصدقك، كنت ترانى لك ليس لى، ياليتك علمت كم أنا محتاج لرؤيتك، أنت قلتها لتحمى بها نفسك من الجانب الآخر لوجودى، أنا جبان كما قلت تماما، ولكن ليس "فقط"، خشيتَ أن تقترب بعد بيان الهجوم الصادق، خشيتَ أن ترى الجانب الآخر فتضطر للحياة، تساؤلك عن سبب وجودك هنا يصلنى واضحا صارخا، أنا

ما أعظم الحديث عن الشبع والعدل والمساواة ولكن ما أصعب الطريق إلى تحقيق كل ذلك

أما أن يكون الحديث عن الجوع إلى اللقمة والغموس هو مبرر التوقف والغيبوبة، فيا ضيعة كل شئ

أنا وحيد مع خوفى يلفنى فى قمقم لا ترونه، لكننى أصارعه بالهجوم على وحدتى ليل نهار، ويبدو أن أول الطريق للتخلص من الخوف هو أن تخافه دون استسلام

أنا لست نبيا ولا مدعيا النبوة، الأنبياء أنقذهم الوحى من الوحدة، ونحن نريد أن نصنع صنيعهم دون وحى، رغم حقيقى من هول المشقة ومظنة الفشل،

لستُ متصوفا ولا زاهدا ولا مجذوبا، أعبد الحياة وأصر عليها وأنا أنزف دما من كل جانب، فيزداد إصرارى وأنا أتلقى الحراب والسهام عارى الصدر حتى النهاية.. لأن المسألة تستأهل، المسألة هى الحياة

أقول لك فى السر إنك هنا لأنك ملطخ أيضا، وجودك يعنى أنك تحاول كسر وحدتك بالرغم من كل دعواك، كل منا هنا ليكسر وحدته وإن اختلفت الطريقة، أنا بالخوف ومد يد المساعدة على ما قُسم، وأنت بالإشعاعات الجنسية تحت شعار الحرية، لم أنجح فى الوصول إلى ذاتى أو كسر حواجزى ولم أخدع نفسى، أما أنت، ماذا فعلت أنت؟ قلبى يحدثنى أنك أبأس الناس وأشقاهم رغم بريق حديثك وسحر استغنائك، غريب رأيته أثناء تفجره وعقدت معه معاهدة بلا توقيت، أما أنت فمختبئ دائما وراء ضباب أحلامك، قشرة غريب من فولاذ، ولكنها تغرينى بكسرها لأن لها ملمس صلب، أما قشرتك فرخوة تنسجها من جو حالم يغلفك بلا أمل فى اختراقه من فرط طراوته واهتزازه، تترجم كل ما يدور حولك إلى رموز خاصة تعينك على ندف الصوف من حولك حتى لا يراك أحد إلا فى غمامة من الإدعاء، تنسى أنك أرق من ذوقك الكاذب، وأبأس من صوتك الحالم، وأكثر وحدة حتى من غريب ومنى، حتى غريب له صاحب، إنه يصاحب الكلمات ولو فقأتْ عينيه "دبابيس" الحروف، أنت لا تدرك إلا ما فى عقلك، وعقلك ليس به شئ إلا صوتك الرخو وما نفستو حقوق الإنسان عن الحرية والمساواة، أنت لا تكاد تسمع حتى صوتك وأنت تتحدث عن الحرية، ياليت ما تقوله وما تريده ممكنا يا أخى، لو كان كذلك لكنت أول الحاجزين فى جنتك، هل هناك أروع من الحرية بلا شروط؟ والأخذ والعطاء بلا بيع أو شراء؟ والاختيار للفرد بلا خداع أو إملاء؟، ولكن كيف يا مختار؟ جَنَّتُك تؤجل رفع الستار باستمرار إلى العرض القادم، ما يجرى وراء الكواليس لا يبشر بخير، كيف تلوّح للأطفال بحرية لا تستطيع أنت تحقيقها؟ كيف تحمّل الرضَّع مسئولية الانتحار؟ كيف تغرى الجوعى بأكل السم، ثم تتركهم يتلوّون ذات اليمين وذات اليسار يدفعون ثمن جوعهم الحر؟ ما أسهل الحلم يا مختار، وما أصعب تحقيقه، قبلت رؤيتك لى وسعدت بها فهى بعض ما هو أنا، تركتنى أتمرغ فى جبنى وادعائى وحدى، ألعق الدم والصديد من جرحى الغائر، ما أصدقك حين قلت لى:" كبتك وخوفك يحبس

حين تنطلق منى الكلمات بكل هذاالصدق الذى أتصوره، أشعر أننى أكاد أشعل الحياة من حولى نورا، وأنى –هكذا- أضرب الباطل بسهام الحق فينصلح الناس

هذه خطابة خائبة، ليس تماما، فهى تصل إلى أصحابها بأى قدر مهما شككت فى جدواها.

أحترم قانون العقوبات بنفس الدرجة التى أحترم بها هذه القوة الطاغية داخلى ذات القانون الخاص

الأطفال فى مهودها حتى تكاد تموت من الشلل والرعب"، أنا أكتمك شوقى للجرى عاريا والبزازة فى فمى، فهل تضمن لى أ يطلقون على النار؟ لن تدفعنى وحدتى للاستسلام لأحلامك ولن أكون حتى مثل غريب، و مثلك، و مثل أحد.

ترى ماذا فعلت أنت بوحدتك؟ أراها وراء مجيئك إلى هنا، ولكن ماذا بعد مجيئك؟ هل جئت تحكم الرباط على عينيك؟ ترى هل يكسرها استجابتهن لك؟ ياليتك تواجه نفسك بشجاعة الفرسان، إذا كنت قد نجحت فأنا أول أتباعك، تقول إنك تحتاج أتباعا وأنك لست صاحب دعوة، أليس هذا القول فى حد ذاته دعوة يا أخى؟ يا شريك وحدتى على القطب المتجمد الآخر، أُمْسِكُ بخطاطيفى وألقى بها حيثما اتفق والجليد يخوننى فى كل مرة، أتصبب عرقا وأتلتف فى كل اتجاه لعل خطافى يشبك فى شجرة أو صخرة مدببة، بد أن أسعى بعيدا عن الصقيع، يصاب بعض الأحياء أثناء محاو تى الملهوفة للابتعاد عن قطبى المتجمد، أملك إ هذا يا مختار، أنا أملك فراء أحلامك، و قوقعة غريب، و حتى شجرة كمال التى اعتلاها يتفرج علينا من فوقها، أتابع خطواتك وخطوات غريب وكمال بصدق وشغف وأنتظر بديلا خيرا من سعيى المتلهف الأعمى، كلّمَا فشلتْ رمية خطافى نظرت إليكم فأصاب بخيبة أمل من جمودكم الساكن رغم ما يعلو وجوهكم من بسمة ساخرة أو ثقة عنيدة، إخص عليكم يا أوغاد لماذا تنجحون وتريحونى، إخص عليك يا مختار يا أخى... لماذا تغرب عن وجهى، وأنت تبرر جرائمك باستسلام الضحية باختيارها؟!!

– أمور تخصنى، أنا أعيش وأحقق رغباتى، والضحية تريد ذلك.

= هكذا تلقائيا.

– نعم تلقائيا، أى فعل غير تلقائى هو فعل تافه دوام له.

=هل تصدق نفسك؟ الله يخيبك يا مختارّ أ تخجل؟

يا ليتك تنجح إذن يا أخى ياليت، ياليتك تكسر وحدتك بحريتك المزعومة ربما تحيى فىّ الأمل، وأنا أواصل سلخ جلدى حتى يتنحّى من اليأس أو يتيبس

مر الواقع لا يخفف المرء منه، أو التحايل عليه، أمضغه فى أناة، وأتجرع عصارته حتى الثمالة

أتسلق جبال الوحدة وأقتحم كهوف الخوف دون سلاح إلا تعويذة حب الحياة والناس

تسألينني ما الحرية؟" وكأنى أعرفها، أسألينى عن السعى والتحدّى والكدح والفرحة والألم الخلّاق

من جفاف قبح الانسحاب وتزييف الحاجة، أفضّل أن أظل أدمى حتى تحت التراب من أن ألبس درعا منسوجا من فشلك وخوفى، وكذب المخدوعين والمخدوعات.

-3-

متى ترجع إلى مرسمك يا كمال؟ متى تعود لشعرك لتبعث الحياة فى ألفاظ ماتت على ألسنتنا من سوء الاستعمال؟ متى ترقصها على نغمات إحساسك؟ حضورك هنا يا كمال كان مصيبة بالنسبة لى، قضيت بذلك على ما تبقى لى من أمل فى حل مؤجل، لماذا فشلتَ يا كمال؟ لماذا توقفت؟ إذا لم نستطع أن نصنع المستقبل، فلنرسمه لمن يصنعه بعدنا، ماذا فى هذا بالله عليك حتى تتوقف، ثم تأتى معنا مثلك مثل العجزة أمثالنا؟ أهمُّ فى كل مرة أن أطردك من هنا وأنهاك عن المجئ لو كان لى هذا الحق، أدعو الله أن آتى يوما فلا أجدك معنا، أقلب الصحف لأراك فلا أجدك فيها، أبحث عن شعرك يوميا لأطمئن أنك عدت إلى قلمك سالما، سمعتك تتحدث مع مختار فى عنف صادق حين رفضت حريته الزائفة، ولكنك فشلت فى مواصلة الحديث بلغة فنك، تحتقر هرب غالى وزوجته حتى نخاعك، فماذا أنت فاعل أفضل منهما؟ لم تفاتحنى ولم أفاتحك، بعض ما دار بيننا دون كلام كان أبلغ من الكلام، هل تذكر؟

– لن أكون مثلك يا إبراهيم، حتى ولو كنتَ أنت الحقيقة ذاتها.

= لست الحقيقة.... لست شيئا أدعو أن تكون مثله يا كمال فماذا أنت فاعل.

– وجودك هكذا عاريا عاجزا مدعيا يعطلنى.

= يعطلك عن ماذا.... أنا أتمنى أن تذهب إلى مَرْسَمك وأوراقك اليوم قبل غد.

– كذاب، أنا أمَلُّك فى كسر وحدتك لأنى أكثرهم تماسكا وأقلهم رقصا على السلالم.

"شقائى مع إصرارى على مواصلة السعى قد يكون حريتي

لن أقبل أى صورة للموت إلا بعد أن تكفف أنفاسى عن التردد، إما أن أواصل سعيى بكل ما يدبّ فى من نبض أو يهمس لى من أمل أو يهزنى من رعشة، وإما "لا" كاملة

إنه حتى لو افترسنى وحش جائع أو التفت حولى أفعى دنيئة فلسوف أحس بقيمتى وأنا فريسة تصرخ لتعلن عدم استسلامها

الناس يملئون حياتنا بلا واجب ولا اختناق، لا ننسى أنفسنا من أجلهم ولا ننساهم أبدا

عماهم مسئوليتنا وعملنا الهادى لا يساوى شيئا إن لم يفتح الطريق لأكبر عدد منهم للحصول على اللقمة والعدل طريقا للوصول، إلى أنفسهم إليه!.
يارب.... لم أطلبت الطريق علينا..

= أنكر أنى أتمنى أن أشاركك وجودك لحظة صدق، ولكن أنت..؟ أنت خسارة، خسارة أنت يا كمال.... أنت فنان.

– كفى ادعاء! أية خسارة؟ ولماذا لم تلجأ إلى الفن أنت بد منى.

= أملك مقوماته، أو أدواته

– كذاب، الفن ليس حكرا لأحد، هو كشف عن الآتى بوعى أشمل، دع رموزك تتحرك بلا وصاية.

= فلماذا توقفت أنت؟

– رأيت أكثر مما أستطيع أن أترجم.

= وهكذا أنا، وأنت تعلم ذلك.

– إذن، كفى ادعاء، ودعنا نواصل الفُرْجة.

= أنا أتفرج يا كمال إ مرغما، ثم لنفرض، إلى متى تمتد فرجتك انت يا كمال؟!.

الإثنيـــن 16-07-2018

العدد: 3971 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص) "الخاتمة....." رواية "مدرسة العراة"

اليوم نختتم نشر فصول رواية "مدرسة العراة"([1]) وهى الجزء الثانى: من ثلاثية "المشى على الصراط"، نختمها بالخاتمة التى لا تمثل فصل مستقلا، ومع ذلك فهى تعرفنا على ما ينتظر جميع من تابعنا أن تعرفه.

مقدمة

اليوم نختتم نشر فصول رواية" **مدرسة العراة** [1]"وهى **الجزء الثانى** :من ثلاثية" **المشى على الصراط**"، نختمها بالخاتمة التى تمثل فصل مستقلا، ومع ذلك فهى تعرفنا على ما ينتظر جميع من تابعنا أن تعرفه.

" **الخاتمة**".....

المكان: عيادة د، عبد الحكيم نور الدين.

الأشخاص: الطبيب، ومساعدته إصلاح فاضل.

المنظر:

عدد من المرضى يخرجون الواحد تلو ا□خر، ليسوا من أشخاص هذه الرواية، وما يكاد يخرج آخر واحد منهم حتى تلقى إصلاح بنفسها على الكرسى، فى ثورة مكتومة، تنظر إلى الأرض مليا، ينظر إليها د. عبد الحكيم وكأنه ينتظر شيئا يعرفه، ترفع إصلاح رأسها وتواجه أستاذها كالعادة:

= يعجبك هذا؟

عدد من المرضى يخرجون الواحد تلو الاخر، ليسوا من أشخاص هذه الرواية، وما يكاد يخرج آخر واحد منهم حتى تلقى إصلاح بنفسها على الكرسى، فى ثورة مكتومة، تنظر إلى الأرض مليا، ينظر إليها د. عبد الحكيم وكأنه ينتظر شيئا يعرفه، ترفع إصلاح رأسها وتواجه أستاذها كالعادة:

= يعجبك هذا؟

– مازلتِ يا إصلاح كما أنت رغم مرور السنين.

= أحس أحيانا أنى مسئولة شخصيا حين أفكر فى مصير الشموس التى تضئ هنا ثم تنطفئ وتهبط مثل النيازك المحترقة بعد حين.

– ولو..!

= أنت تعلم أنى أتهمك قبلي.

– طبعا أعلم، و أتخلى عن مسئولية ما أفعل.

انتهى الجزء الثانى، فتلاه – بعد ربع قرن – الجزء الثالث:

"ملحمة الرحيل ....والعود"

ملاحظة أخيرة مكررة:

شخصيات هذه الرواية ليس لها وجود فى الواقع، بأية صورة، اللهم إ إذا كان وجودها فى كيانى الذاتى هوهو هذا الواقع...

لذلك لزم التنويه!

(1977)

= أليست وصفاتك وعقاقيرك أحيانا هى التى تسمح لهم بذلك؟ وأنا؟ ألست أساعدك على ذلك؟

– وهل جنونك الذى يهدأ هو الذى سيحافظ على شموسهم مضيئة يا إصلاح، ألم تتعلمى بعد؟

= حيتان الظلام تلتهم بشائر النور أول بأول.

– أبدا، حتى النيزك الساقط يضئ قبل سقوطه، علينا أن نقذف إلى المجتمع فى غفلته بحصان طروادة مشتعلا مخيفا بين الحين والحين.، كلما أمكن ذلك

= تصر أن المحاولة تستحق حتى ولو لم يفعل أحد شيئا.

– الجميع يفعلونها بالرغم منك، وما علينا إ مواصلة ا ستمرار فى محاولة تشكيل القدر.

= أليس هذا فنا ثورة؟

–ولم ، ليكن ما ترين، ولكن لماذا التسمية؟

= يا ويحى من ثقتك وهدوئك، ويا خوفى من معاد تك الصعبة.

– أنت تعلمين أن هذا هو ما أضطر أن أواجه به جنونك، لكنك أعلم بما بي.

= وتصر على ا ستمرار؟

– ليس لى خيار.... إ أن أتنازل عن وجودى مسئول عنى، عنهم.

= تبا لك، ولليوم الذى رأيتك فيه.

– مازلت مختارة، كل الطرق أمامك.

= عملتها، والذى كان قد كان، ولكن أرجوك خفف من جرعة "الواقع" قليلا

– ليس أمامنا إ اللغة العادية، لكافة الناس.

= فالمصيبة أكبر.

– مازلت مختارة.

= إن كنت أنت مختارا.

– مختار رغم أنفك.

= تمتع بأوهامك.

أحس أحيانا أنى مسئولة شخصيا حين أفكر فى مصير الشموس التى تضئ هنا ثم تنطفئ وتهبط مثل النيازك المحترقة بعد حين.

أليست وصفاتك وعقاقيرك أحيانا هى التى تسمح لهم بذلك؟ وأنا؟ ألست أساعدك على ذلك؟

ليس لى خيار.... إلا أن أتنازل عن وجودى مسئولا عنى، عنهم.

عملتها، والذى كان قد كان، ولكن أرجوك خفف من جرعة "الواقع" قليلا

– سوف نري.

= سوف نري.

****

– **[1]** يحيى الرخاوى: رواية "مدرسة العراة" الجزء الثانى من ثلاثية "المشى على الصراط" الرواية الحائزة على جائزة الدولة التشجيعية سنة 1980 (الطبعة الأولى 1978، الطبعة الثانية 2008، الطبعة الثالثة 2018 تحت الطبع)، والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، **وهذا هو الرابط)** www.rakhawy.net **طبعاً هذه الصورة ليست للشخصية الحقيقية.(**

الإثنيـــن 21-07-2018

العدد: 3976 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعيوى التطورى
(من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد")

أما أنها "كتابة" أو "رؤية" فى العلاقات البشرية والمسار والمصير، فهو تَمَسُّكٌ بنفس الخطأ الذى جعلنى أعتبر الجزأين الأول والثانى "رواية علمية"، وربما شجعنى على التمسك بهذا الخطأ عنوان رواية ميلان كانديرا "كتاب الضحك والنسيان

مقدمة:

نبدأ اليوم نشر فصول رواية" **ملحمة الرحيل والعوْد** [1] "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى **الجزء الثالث** :من ثلاثية" **المشى على الصراط.**"

مقدمة:

هذه رواية مستقلة، برغم أن أكثر شخوصها هم بعض أفراد الجيل الثانى لشخوص رواية "المشى على الصراط" التى صدر منها جزءان: الأول: الواقعة، والثانى: مدرسة العراة.(واستحقا جائزة الدولة التشجيعية) على الرغم من ذلك فهى رواية مستقلة.

بدأت كتابتها استجابة اقتراح الصديق (الحرفوش) توفيق صالح لتحويل فكرة أعجبته أسميتها "الحج الإلكترونى"، كانت قد أثبتها فى مقال لى بالأهرام بعنوان" :**ماذا بعدما لعبنا معا لعبة الألفية؟**) "الأهرام 2000/1/18)، اقترح الصديق توفيق إلى تحويلها إلى تشكيل روائى ظنا منه أنها قد تصلح لتقديمها فى عمل سينمائى، ينقلنا إلى الميتافيزيقا دون ميتافيزيقا، اقتنعت وشرعت فى كتابتها وإذا بها تكمل رواية المشى على الصراط ثم تدفقت المسودة حتى اكتملت خلال ما يقرب من سبعة أسابيع (من ظهر يوم 22 يوليو 1999 حتى الساعة 55، 12

يوم 14 سبتمبر 1999) بعنوان "ملحمة الرحيل والعوْد"، وكانت بنفس الحجم الحالى

تاريخ الأحداث – إن كان لها تاريخ– هو تاريخ المسودة.

عادت المسودة إلى الكمون لأكثر من ثلاث سنوات نتيجة ارتباطها الخانق باقتراح الصديق الجميل.

ثم مرت الرواية بعد ذلك بمراحل كثيرة فى محاولة التخلص من الفكرة الوصية الأولى، فلما اكتملت كجزء ثالث من قضيتى الأزلية، "المشى على الصراط"، قيض لها أن تظهر أكثر تماسكا مع الجزأين الأول والثانى، وأكثر استقلا فى نفس الوقت.

أما أنها "كتاب" أو "رؤية" فى العلاقات البشرية والمسار والمصير، فهو تمَسُّكٌ بنفس الخطأ الذى جعلنى أعتبر الجزأين الأول والثانى "رواية علمية"، وربما شجعنى على التمسك بهذا الخطأ عنوان رواية ميلان كانديرا "كتاب الضحك والنسيان."

أعرفك، لا أنا ولا أنت نصلح للزواج.

. لا يصلح أحدنا للآخر على الأقل، لكن لعلى أصلح لشخص أعقل

وهذا هو الفصل الأول

"سوق السلاح "

-1-

أدار جلال المفتاح فى قفل الباب، فتح بلفة واحدة، تذكر أنه أغلقه بالمفتاح، لفتين، لم يكن يعرف متى يرجع، لم يكن قد قدّر أن يرجع أصلا، لم يكن قرر أن يقرر شيئا، هذا النور الذى يأتى من تحت عقب الباب...، ▯ يمكن أن يكون قد أضاء النور صباحا حين خرج، ▯ توجد آثار عنف، الباب متين قديم، هى ذات العمارة التى تربى فيها فى سوق السلاح، تزوج فى ذات الشقة بعد وفاة أمه، مازالت رائحتهم ووقع خطواتهم وهمس حضورهم تملأ أرجاء العمارة من بئر السلم حتى وراء التسريحة، ابتسم دون أن يطمئن. ثم ابتسم ثانية.

فكر أن يتراجع وينفذ فكرة السفر، الساعة تخطت منتصف الليل، رأسه ثقيل، كان قد عرج إلى ميدان التوفيقية منهكا من كثرة المشى طول النهار، كان ملح الترمس زيادة، وكان هو جائعا ويريد أن ينام، مادام المفتاح قد دار فى قفل الباب فهى شقته، آثار ما تبقى تكفى أن تساعده على اقتحام الشقة ومخاوفه معا.

لا توجد امرأة تود، أو توافق أن تكون مطلقة من رجل تحبه، لكنها أرادت أن يظل ما بينهما أغلى من أن يُشوّه بضربات الزواج العشوائية

توكل، بطريقته الخاصة، دخل بسرعة وأغلق الباب خلفه ▯صقا ظهره إليه فى وضع استعداد، هذا ما يذكره تحديدا منذ التدريبات على حرب العصابات أيام الحماسة والأمل، كاد يثنى ذراعه ويشير بسبابته، ابتسم تلقائيا وكأنه يؤدى مشهدا فى تمثيلية أطفال ليس لها مُخرج، رائحة السجائر الطازجة تملأ أنفه، لم يعد يدخن لكنه يحب هذه النكهة.

"من بالداخل؟"، لم يقلها، هذا ضد أول دروس ا▯قتحام.

جاءه صوتها وكأنها لم تغادر البيت قط:

. جئتَ أخيرا يا جلال؟ أين كنت...طول النهار؟ .

. من؟ .

. أنا.

. عارف.

. شاطر.

. يا خبر! متى عدتِ؟

أخبرتْه . بسرعة . وقد تبينت ما به، كيف أنهت عقدها وتركت كل شئ وعادت من يومين، وأنها تذكَّرت . ليس فجأة . أن اليوم هو عيد ميلاده، ولأنها تعرف أنه يحب أن يزعم أنه علاقة له بهذا اليوم، وأنه ليس مسؤول عنه، فقد فضَّلت أن تحضر دون مكالمة، حتى تتردد هى، أويتسخّف هو، تذكرت أن المفتاح مازال معها، فحضرت، (ما أسخف أن نعتقد أنه يمكن أن يكون كذلك)، قال لها:

شئ ما يبدو قريبا يبتعد، أو بعيدا يقترب، كيف يبدأ؟

. هكذا إذن.. هو هذا ؟

. آين كنتَ طول النهار؟

. ، أبدا.

لم يقل لها كيف لف طول النهار، وكيف أن المفروض أنه كان فى طريقه الآن إلى آسيا الصغرى، هو ا سم الحركى الذى يطلقه على جنوب سيناء، على "دهب" بالذات، بمجرد أن يعبر نفق الشهيد أحمد حمدى يحل به وعىٌ أسيويٌ خاص، يجعله شخصا مهذبا يمكن أن ينحنى لمن يحييه وهو يضم يديه إلى بعضهما أمام صدره، لم يقل أيا من ذلك، فقط.. قال بحب يخفى:

هو مازال يحبها، أى حب هذا الذى يتأكد بالانفصال ويختلّ بالقرب؟

. حمدا لله على السلامة.

. الله يسلمك.

. أوحشتِنى.

. وأنتَ.

ثم ماذا؟ هو يحبها بصحيح، يحبها أكثر بعد أن افترقا، يود أن يريح رأسه على كتفها، يريد أن ينام على صدرها ويتنفس بهدوء، أكثر، لماذا حضرتْ وهو فى هذه الحال، يشعر بضعف طيب، يريد أن يبكى، يريد أن يعتذر لها عن أى شئ، وأى حدث، إ عن الطلاق، فهو ما زال . طبعا . يصر عليه،

هل قرأتْه حرفا حرفا؟ (كالعادة) قالت:

. ما عليك، الصباح رباح.

. صباح؟ .

. سوف أبيتُ هنا.

. هـْ؟ أهلاً وسهلا.

. مازلنا مطلقين.

. طبعا.

. وسوف نظل كذلك.

. أعرف، □ أنا و□ أنت نصلح للزواج.

. □ يصلح أحدنا للآخر على الأقل، لكن لعلى أصلح لشخص أعقل.

قالتها وهى تملس على شعره برفق دافئ، أغمض عينيه وكاد يغفو تحت جناحها، مع أنها كانت بعيدة.

. طبعا.

. كيف حالك يا جلال، تصور أنى مازلت أحبك.

. وبعد؟ " وأنا أيضا،.....، هـْ..

قال ذلك دون أن يرفع رأسه، فأكملتْ:

. ألهذا تمَّ الطلاق؟ .

. لنظل نحب "بعض"، أليس هذا أفضل؟

. أفضل من ماذا؟ .

. إن الواقع دائما أفضل.

. دائما أفضل؟ دائما؟ ياسلام !!!. هل أنت متأكد؟! لِمَ لَمْ تقل لى ذلك ونحن نوقع على أوراق الطلاق؟

. ألم يكن هذا هو واقعنا؟ .

. كنا متزوجين قبلها بدقيقة، وكان ذلك هو الواقع أيضا.

إنه حين قرر أن يضئ شمعة واحدة أمس بدلا من أن يطفئ 41، كان يعنى ما يفعل، شعر بقوة حقيقية تسمح له أن يفعل كل ما كان يتردد فى فعله، يذهب، ويعرض، ويرفض، ويذهب ثانية، وهكذا، لن يصمد، ولن يرجع، ولن يكف لا عن السياسة، ولا عن الأمل، سوف يغير الكون من القاعدة هذه المرة

. لكن الطلاق تمَّ، فأصبح هو الواقع.

. أهكذا يكون ا□ستقبال يا جلال؟ .

□ توجد امرأة تود، أو توافق أن تكون مطلقة من رجل تحبه، لكنها أرادت أن يظل ما بينهما أغلى من أن يُشوَّه بضربات الزواج العشوائية.

. □ أنوى غوايتك، كل ما فى الأمر أننى قررت أن أمارس فضيلة الجنون ا□ختيارى المؤقت، هذه بعض مناطقنا المشتركة.

. هذا بيتك طول العمر، المفتاح معك، وسيظل معك، أنا ضيفك الليلة.

. "سرقوا الصندوق يا جلال، لكن مفتاحه معى".

كل واحد يفكر بطيبته كما يشاء، ربنا طيب، يحب الطيبين، فكر فى نفسه: هل هو "طيب"؟ طيب يعنى ماذا؟ يعنى مغلوب على أمره؟ شعب مصر شعب طيب، "جاتنا خيبة" !، أنا لست متأكدا من شئ

أحس أن رأسه تزداد ثقلا، ومع ذلك فكلٌّ من الإفاقة والرغبة فى النوم يقتربان معا، ما هذا؟ ما الذى جاء بها من جيزان؟ كان يكلمها كل ليلة دون أن يعرف رقم هاتفها، لم يسألها أبدا عن رقم هاتفها هناك، قرر أنها تعيش فى بلد ليس بها هاتف، ومع ذلك ظل يكلمها يوميا، سمع أن جيزان هى جهنم اليمن التى اقتطعتها السعودية من باب عشم القوى فى الضعيف، ليس فى جهنم هاتف؟ ذهبت ثريا إلى هناك هاربة، وعادت قبل أن يصدر قرار العفو، عادت قبل أن تُختبر، عادت كأنها كانت هنا بالأمس.

. تصورى طول النهار وأنا أفكر فى السنين التى سرقوها منى.

. من؟ .

. أنا "الذين "سرقتنى.

. .. أنا الذين.. ! والله زمان، أكمل القصيدة يا رجل.

. أتكلَّم جدّا.

قال لها، أو لم يقل لها، □ يذكر، ليس مهما، قال لها إنه بعد أن ثقلت رأسه نصف نصف، وجد أنه قريب منه، قاب قوسين أو أدنى، حلوة هذه، وأنه يمكن أن يراه إذا توقف عن التفكير، إن التفكير هو الذى يحول دونهما، هو هو دون غيره، هو نفسه.

. عندى لكَ مفاجأة.

قالت ذلك وهى تزداد قربا بعد أن كفت عن تمشيط شعره.

. خير اللهم اجعله خيرا.

. لقد وجدتـه.

أنه لا يفهم، وأن عينيها تخترقان من يقترب منها حتى تُرعبه، وأنه لا يوجد من يتحمل ذلك

لماذا هكذا الآن؟ لماذا تزداد قربا هكذا؟ كيف عرفتْ؟ إذن هو قال لها، لم يقل لها، هى هى ثريا جدا، تقرؤه دون استئذان، تقرؤه حتى دون أن تفتح الصفحة الأولى، وبعد؟ وبعد يا ثريا؟ .

. مبروك.

. مبروك ماذا يا جلال؟

. مبروك ما وجدتِ.

– تسخر يا جلال !؟

– آسف.

. وتتأسف أيضا؟ لماذا تبتعد هكذا؟ .

– أنا فرحان أنك هنا.

عاد يضرب كفًّا على كفٍ وهو يحكى عن أطفال المسلمين، وعن أطفال الصرب أيضا

– وأنا، على فكرة: محمود رجع من البوسنة، وهو يبلغك السلام.

ما علاقة هذا بذاك؟ لماذا ذهب أخوها محمود إلى هناك؟ وما علاقة جيزان بسوق السلاح بالبوسنة؟ يقولون أنه فى كل مكان فلماذا كل هذا التنقل؟.

أنا أستطيع أن أقول– أيضا – إننى وجدته اليوم عند مزلقان "أبو النمرس"، ثم قابلته فى قهوة عم صابر فى عزبة البكباشى، وكدت أكلمه عند عم إدريس فى بار التوفيقية، كيف عرفت يا ثريا.....؟ (يبدو أنه قال الجملة الأخيرة بصوت عالٍ)

. عرفت ماذا؟

– أننى كنت هناك؟ وأنه كان هناك كذلك؟.

سكتت وكأنه لم يقل شيئا، كانت تريد أن تحتج على أمر غير ما قال، سكتت وهى تنظر إليه بحنان جديد، يبدو أنه كان واضحا حنانها، حتى أنه خاف، فنسى قرارها أنها سوف تمضى الليلة عنده، – فى بيتهما – فقال بسخف لم يتبينه إ متأخرا:

. أوصِّلك، بد أن أوصلك....، يبدو أننى لن.....

. تطردنى أم ماذا يا جلال؟ أنت فى حال...، أنت تستطيع أن توصلنى إلى المطبخ، هيا اخلع ملابسك وتمدد وسأغطيك مثل زمان، و تحمل همِّى، سوف أدبر أمورى.

يقول إنه تغير مرغما، ذهب وهو يتصور أنه لكى تكون مسلما، أو ابن مسلم لابد أن تكون أسمر البشرة، فاحم الفم، ذابل العينين، متكلا على ما تتصور أنه الله فى بلده

توجد إ حجرة واحدة، ألقى بنفسه على الأريكة دون السرير وكأنه وقع من شاهق، لم يخلع ملابسه، استغرق فى النوم للتو، راحت تخلع له حذاءه برفق، وكذلك جوربه، تأففت قليلا من الرائحة، لم يمنعها ذلك من أن تملس على الشعر المتوسط الكثافة أسفل ساقه التى ظهرت من تحت الغطاء بعدما تقلب وهو يعدل نفسه، ودَّت لو تقبّلها، لم تفعل، ذهبت ناحية جبينه ولثمته لثما خفيفا، لن يستيقظ حتى لو عضتّه، أحكمت الغطاء.

تحسست السرير تتأكد من موضعها، موضعهما القديم، لم تخلع ملابسها هى الأخرى. وضعت ركبتيها فى ذقنها، جذبت الملاءة وغطت رأسها.

–2–

كانت الشمس قد ملأت الحجرة، وبدا الوقت متأخرا، حاول أن يتذكر بعض معالم ليلة أمس، هلت عليه الأحداث متلاحقة، التفت إلى السرير فوجده مرتبا تماما إ الغطاء الخفيف، كان الغطاء على الأريكة، استبعد أن يكون حلما.

تراجع الصداع بشكل متذبذب.

السرير مرتب بطريقتها، فرك عينيه مرة ثانية، فى المطبخ وجد اللبن مغليا والأطباق التى كانت فى الحوض انتقلت إلى الرشاقة، بعد غسلها، الحوض يلمع من النظافة، هى هى لم تتغير، هى تريد بذلك . و بغيره . أن ترجع، و

هو...، ثريا رقيقة دائما، هى أرق من رقتها، خيل إليه أنه ذهب إلى الحمام فى جوف الليل، لعله تقيأ أو ربما....، وجد الحمام نظيفا تماما، حتى لو كان قد تقيأ فقد نظفت الحمام مثلما نظفت المطبخ قبل أن تنصرف، أخذ يسترجع حديثهما أمس، تذكر بصعوبة أنها حدثته عن أخيها محمود العائد من البوسنة، "على عزت بيجوفتش"، شئ ما يبدو قريبا يبتعد، أو بعيدا يقترب، كيف يبدأ؟ هى التى جاءت، بنفسها، هو مازال يحبها، أى حب هذا الذى يتأكد بالانفصال ويختلّ بالقرب؟ هل يقول لها عن مشروعه؟ هل تساعِده؟ هل تضحك منه؟ إذا كان لأحد أن ينتبه إلى جنونه أو شطحه، ويقبله، فهو ثريا.

-3-

مدرسة البدرشين الإعدادية للبنات.

سخيف أن يذهب إليها هناك، هم يعرفون أنهما كانا متزوجين، وليس عيبا أن يذهب إليها فى المدرسة، هو لا يعرف عنوان بيتها الجديد، لم يسألها.

ما الذى حدث بالضبط؟ لماذا جاءت؟ ولماذا نامت عنده؟ ولماذا ذهبت؟ وماذا قالت؟ الذى حصل، سوف يذهب ويعرض فكرته، ماذا ستقول عنه؟ لقد عادت، باتت فى سريره، سريرهما، لم تطلب شيئا، هى لا تطلب شيئا، ولم تلوّح، هى لا تلوح، هل يذهب إليها الآن ليطلب زبائن لعمله الجديد الذى لم يبدأ بعد؟ طبعا لا، أى تلميذ هذا من البدرشين، يمكن أن يسمح والده أن يسلِّمه لمدرس هاوٍ، قطاع خاص، يريد أن يعدِّل الكون عن طريق إحياء اللغة التى ينظم بها دماغ العيال ليفكروا بالأصول، مدرس ليست له علاقة بالامتحانات؟ ولا بالغش، أى شطح خائب؟ ومع ذلك سوف يذهب، وسوف يلقاها فى المدرسة، وسوف يعرض عليها فكرته، لن يعرضها بصفتها مدرسة لغة عربية، إن ما خطر بباله ليست له علاقة باللغة العربية، إنها شئ أشبه باللغة الأم قبل أن تتشكل فيما أضاعها..، اللغة الأم ليست لغة الأم سوف يعرض عليها الفكرة بصفتها ثريا، قارئة دماغه، ومالكة مفتاحه، إلا قليلا.

سوف ينشر إعلانا فى الصحف يقول: "مدرّس لغات وكمبيوتر"، و"قرآن"!! خصوصى جدا، ليست له علاقة بالامتحانات، أو بالآخرة، ومع ذلك يضمن التفوق فيهما، يعلّم الصبيان والبنات الحياة واللغات والتواصل، فيجدون الطريق معا إليه، كل واحد وشطارته

إنه حين قرر أن يضئ شمعة واحدة أمس بد من أن يطفئ 41، كان يعنى ما يفعل، شعر بقوة حقيقية تسمح له أن يفعل كل ما كان يتردد فى فعله، يذهب، ويعرض، ويرفض، ويذهب ثانية، وهكذا، لن يهمد، ولن يرجع، ولن يكف عن السياسة، ولن عن الأمل، سوف يغير الكون من القاعدة هذه المرة، الشئ الذى يبدو بلا حل هو مسألة ثريا هذه، ليست ثريا نفسها ولكن" مسألة ثريا"، هو يعرف أبعاد المسألة بالتفصيل، لكنه متأكد أنها مسألة أبعد حلا عن أى تصور جاهز، إن أن لها حلا حتما، يوجد "حل نهائى" قريب، واسألوا ياسر عرفات، حال الدنيا بأسرها تجسد فى المسألة الفلسطينية، كلنا هى، قال له: "طيب والشيشان"، رد عليه:" الله يخيبك، كله مثل كله".

حين اقترب من الشارع الذى تقع فيه المدرسة، وهى ليست فى وسط البلدة على أية حال، بحث عن الجُمَل التى أعدَّها ليشرح بها فكرته لثريا قبل أن يطلب مساعدتها، يقفز إليه السؤال إياه بلا مناسبة وبد من أن يكرره كما اعتاد أجاب عليه مباشرة، "نعم موجود"، ثم أضاف "يعنى، يقينا فى الأغلب"، هذا صباح لن يمر: "يقينا فى الأغلب"؟ !!! من أين يأتى اليقين إذا كان فى الأغلب؟ ثم ما هذه الـ "يعنى"؟

قال اسمه للبواب، وأنه جاء لمقابلة الأستاذة ثريا عبد السلام المشد، فبدا من ابتسامة البواب وترحيبه أنه يعرفه، ومع ذلك فضَّل جلال أن ينتظر على الأريكة بجوار الباب حتى يعطيها خبرا، سمع جرس الحصة فاستبشر، حتى لو كانت عندها حصة فقد انتهت، عاد البواب بسرعة وسمح له بالدخول إلى حجرة المدرسات، كانت بها مدرِّستان، زميلتاها، واحدة تذكّر أنه رآها مرة من قبل، لعل اسمها خديجة مثلا، هى كذلك، هو الذى أسماها بمزاجه، بدينة قصيرة، تبدو أمًّا منذ كانت فى السابعة، والأخرى سمراء فارعة محجبة، دمها خفيف (هو قرر ذلك)، انصرفتا فى سماح.

سوف يكتب رقم الهاتف خطأ حتى لا يعثروا عليه ليحاكموه بتهمة مزاولة التنوير بدون ترخيص، بسيطة، أو ربما يحاكمونه بتهمة "الجرأة على المجهول"، أو تهمة "حسن النية" أو حتى تهمة "المحاولة فى الممنوع"، وقد يحكمون عليه بالتفريق

قرأ ما يدور بخلد خديجة: "الصلح خير"، ليكن، خيرا، اللهم اجعله خيرا، كل واحد يفكر بطيبته كما يشاء، ربنا طيب، يحب الطيبين، فكر فى نفسه: هل هو "طيب"؟ طيب يعنى ماذا؟ يعنى مغلوب على أمره؟ شعب مصر شعب طيب، "جاتنا خيبة" !، أنا لست متأكدا من شئ، لم يبق إلاَى وثريا.

. خير يا جلال؟ .

. خير إن شاء الله.

. أهلا بك.

. جئت أعتذر عما حدث بالأمس.

. وماذا حدث بالأمس؟ يا شيخ !! كل سنة وأنت طيب.

. هل أنا طيب صحيح يا ثريا؟

. طبعا، هل تشك فى ذلك؟

. طبعا.

. معكِ حق، هل تريد أى شئ آخر؟

. أبدا، أذكرينى بين الحين والحين.

. ما هذا؟ ماذا تقول؟ أنت تعرف، كيف تقول ذلك؟

. وتزوَّجى واحدا أطيب منى.

. أوامرك.

. آسف، بلِّغى سلامى إلى خديجة زميلتك التى خرجت الآن، أليس هذا هو اسمها؟

. مازلت أنت هو أنت يا جلال، فائدة.

. بل إن الفائدة دائما بين أيدينا ونحن الذين نمد لها يدنا.

. ستظل طول عمرك تحلم يا جلال.

. سوف أبدأ من جديد.

جريمته الأشنع هى محاولة "الحفاظ على التفكير السليم" ولمن؟ للأطفال؟ أى خطر يمكن أن يهدد كل الأنظمة الجبارة لو ظل الأطفال يفكرون كما خلقوا؟

. أنت تكفّ عن البدايات.

. البداية هذه المرة مختلفة.

. كل بداياتك كانت مختلفة.

. سوف ترين، هذه المرة شئ آخر.

. أنا أراكَ دائما كما تريدنى أن أراك، وهذه مصيبة فى حد ذاتها.

راح يدَّعى أنه يفهم، وأن عينيها تخترقان من يقترب منها حتى تُرعبه، وأنه يوجد من يتحمل ذلك، وقال لنفسه: إن هذا هو الذى هرب منه تماما، على الرغم من أنه فى أشد الحاجة إليه، وقال لها إنها هكذا ستعيش طول عمرها وحيدة تتفرج.

يشعر الآن أنه أكثر ثقة بنفسه بقدر ما هو أكثر عجزا، هو عاجز الآن لكنه قادر على المدى الطويل، هكذا أراح نفسه، لقد أخذ الزمن فى جانبه فى محاولة التجاوز العبثية

. أنت مالك؟ .

. أريد لكِ الخير.

. خلِّ عنك.

. تحتاجين من يقف بجوارك، هذا يستلزم أن تغمضى عينيك، ولو قليلا.

. ربنا موجود.

. صحيح!؟ .

. غصبا عنك.

قرر أ يفتح موضوعا يُغلق أبدا، فانحرف بالحديث فجأة:

. متى عاد؟ .

– من؟.

– محمود، أخوك؟.

..... عاد يضرب كفًّا على كف وهو يحكى عن أطفال المسلمين، وعن أطفال الصرب أيضا، تصور؟ يقول إنه تغير مرغما، ذهب وهو يتصور أنه لكى تكون مسلما، أو ابن مسلم بد أن تكون أسمر البشرة، فاغر الفم، ذابل العينين، متكلا على ما تتصور أنه الله فى بلـه، وحين ذهب لم يصدق أنهم مسلمون،

وحين تأكد، لم يصدق أنهم خواجات، دخل بيوتهم، وحمل أطفالهم، ورأى بعضهم يصلى فى المنزل، وشيوخهم يصلون فى المسجد...، ثم إنه، ماذا أقول، ثم إنه لم يكره كل الصرب، "تصور"!!.

. أتصوَّر ماذا؟ ماذا تقولين؟ .

. أقول ما حدث.

. وبعد؟ .

. أحبَّ أطفال الصرب مثلما أحب أطفال المسلمين؟

. محمود؟!!؟ .

. محمود. عاد ينصحنى أن أفتح أبوابى كلها، وكأنَّه كان معنا حين أغلقناها.

. نحن لم نغلق شيئا، هى كانت مغلقة خلقة، من الناحيتين.

. ليس تماما. والله زمان، لم نتُبْ بعد عن هذا الكلام الذى يترجع مثل الصدى.

. كل شئ جائز.

. دمك ثقيل. ما علينا، أهلا بك، هل الأمر عاجل إلى هذه الدرجة؟.

. أنت مازلتِ يا ثريا كما أنت، ☐ فائدة.

غيرت ثريا الحديث فهى تعلم أنه لن ينتهى، وأنه إذا انتهى لن يوصّل إلى شئ، راحت تستفسر منه: هل قرر أن يقبل السفر إلى الخليج أخيرا؟ وهل هو يريد رأيها؟ مع أن رأيها لن يقدم ولن يؤخر، وأن الذى فى مخه فى مخه، وحين لم يجب أية إجابة نافعة إ☐ تأكيده القاطع أنه لن يترك مصر حتى لو شحذ من كل بيت لقمة، قرر فجأة أ☐ يفتح الموضوع الذى جاء من أجله، وأن عليه أن ينصرف لأن الوقت طال وهما وحدهما فى حجرة المدرسين، وعاد يواصل ادّعاءه أنه إنما جاء للاعتذار ☐ أكثر.

=)☐ عليك، يتصورون أنك تعرض مشروعا للصلح.

تتدفق علاقته بالحياة كلما وعى ألمَه أكثر، هو يعيش هذا الألم كلما بلغته آلام الناس

=قلت لك إننا شعب طيب.

=إننا شعب جبان.(

-4-

ميراث فريد – صف طويل من الكرّاسات ذات الـ 64 صفحة، مليئة بالكلام السام، ما ذنبى أنا إن كنت ابن غريب الأناضولى، وما ذنبى أننى لم أر أبى إ من كراسات بالِيَة كلها إنكار وسب ونفى؟ كتابة مجسمة، كتابة مثل مشتل شوك يسقى من مياه الصرف، هل توجد حروف شائكة بكل هذه القسوة، أشعر بها تخزق عينى، أشعر بلذع الصبار فى حلقى، أشم رائحتها النتنة وأنا أقرأها، لماذا قرأت منها ما قرأت، مازال تأثيرها نافذا يتجدد، لم أتبين إ مؤخرا أن هذه الكراريس هى أبى الذى ولدت من ظهره، لم أحدثكِ يا ثريا عما وصلنى منها و عنه، ومن أين لى أن أحدثك عنه؟ أنت تعرفينه أكثر منى، كان جاركم، يخيل إلى أننى لم أره أبدا، كنت فى الثالثة؟ لست أدرى؟ أذكر.

=) خزَّنتُها بعيدا عنى فى صندوق قديم، أرجع إليها أحيانا وأنا كاره غضبان، أستطيع أن أحرقها، و أستطيع أن أقرأ منها كل مرة سوى صفحة أو بعض صفحة، هى تصدك أو بأول، تصدُّك قبل أن تمزقها.

=كان يمكن أن تخرج منها بشئ.

= خرجت من بعضها، بما تيسر، وكان كافيا لتعاسة خمسين معى(.

هى لم تسأله، وهو لم يخبرها كيف كانت حروفها كالشظايا الملتهبة، لكلماتها مرارة رخوة تثير الغثيان بقدر ما تدعوك للمنازلة، لمَ كل هذه القسوة؟، الكراسة الوحيدة المختلفة التى احتفظتُ بها خارج الصندوق كانت تلك التى سجل فيها علاقته بأمى، وهى هى التى سجّل فيها موت صديقة له اسمها "صفية"، على ما أذكر، كان يعتقد أنها انتحرت، فى هذه الكراسة، كدت ألمحُ محاو ت تراجعه، لكن أبدا، مات أو اختفى أو انتحر، لست متأكدا، أعرف متى مات، إن كان قد مات، هل كانت أمى تحبه؟ أعلم، كانت تردّ على أسئلتى عنه إ

أحيانا يتصور أنه يتألم مع الناس، للناس، أكثر منهم، فينجل من كذبه على نفسه، من وصاية عواطفه على مشاعر الناس يقينا بدوره الغامض الجديد، هل له دور أصلا، مهما كان غامضا؟ لا أحد يعلم

بالدعاء له – ولنا– بالمغفرة، زوج أمى، عم سليمان، هو أبى الحقيقى، هو أكثر من أبى، هو غير أبى، لابد أن هناك لفظا أرقى وأجمل من هذا اللفظ "أبى" بعد أن شوهه غريب الأناضولى، عم سليمان هذا هو الذى كان دائما يمنعنى أن أتمادى فى السخط عليه، أو السخط عامة، كان يدعو لأبى بالرحمة، كان رائعا هذا الرجل، أبدا أنا لم أستوعب كل ما كانه عمى سليمان.

-5-

سوف ينشر إعلانا فى الصحف يقول: "مدرِّس لغات وكمبيوتر"، و"قرآن"!! خصوصى جدا، ليست له علاقة بالامتحانات، أو بالآخرة، ومع ذلك يضمَن التفوق فيهما، يعلِّم الصبيان والبنات الحياة واللغات والتواصل، فيجدون الطريق معا إليه، كل واحد وشطارته".

اليأس والسخط والإنكار نعمةٌ من عند الله يرسلها إلى عباده الأشقياء ليعبدوه حتى من خلال إنكارهم له

ابتسم وهو يتصور أنهم سوف يقبضون عليه بمجرد نشر هذا الإعلان، سوف يكتب رقم الهاتف خطأ حتى لا يعثروا عليه ليحاكموه بتهمة مزاولة التنوير بدون ترخيص، بسيطة، أو ربما يحاكمونه بتهمة "الجرأة على المجهول"، أو تهمة "حسن النية" أو حتى تهمة "المحاولة فى الممنوع"، وقد يحكمون عليه بالتفريق، لكنهم حين يفاجأون أنه افترق عن ثريا منذ زمن، سوف يلفِّقون له تهمة جديدة لا يعرف صياغتها، ربما تهمة "البلاغ الكاذب"، ألمْ يتجرأ ويلمِّح ضمنا – فى الإعلان– أنه يمكن إصلاح أدمغة البشرعن طريق تعلُّم نبض اللغة بطريقة أخرى، يحتاج الأمر إلى آلاف الفرص وعشرات القرون حتى يثبت لهم أن ما نشره فى الإعلان ليس بلاغا كاذبا، وأن الدنيا بخير، وأن الأطفال هم كما خُلِقوا، وأنه لا يريد أن يعلِّمهم إلا ما هم، ربما حين يكتشفون عجزهم عن الحكم عليه بالتفريق، يحكمون عليه بالتزويج، هذا حكم أقسى، جريمته الأشنع هى محاولة "الحفاظ على التفكير السليم" ولمن؟ للأطفال؟ أى خطر يمكن أن يهدد كل الأنظمة الجبارة لو ظل الأطفال يفكرون كما خلقوا؟

أثناء مرور الميكروباص مقابل مزلقان "أبو النمرس" أطل من الشباك باحثا عن عبد المعطى، فلم يلمح إ الحاجَّة وردة أم البنت، كانت تجلس أمام عِشتها المتهالكة توزع فتوتها الأنثوية على عمال طيبين، مرَّ الميكروباص سريعا لكن الصورة بقيت أطول.

يكتشف فى نفسه هذه الأيام تحوُّ ما، كان قديما كلما قرأ خبرا فى الصحف، كذبة حكومية، ظلما سلطويا، حادث تصادم، امتلأ غمًّا وغيظا وثورة وإصرارا على التحريض والإعداد للتغيير، يشعر الآن أنه أكثر ثقة بنفسه بقدر ما هو أكثر عجزا، هو عاجز الآن لكنه قادر على المدى الطويل، هكذا أراح نفسه، لقد أخذ الزمن فى جانبه فى محاولة التجاوز العبثية، فابتسم.

يحترم عقلها ويرفض حريتها، يتصور أحيانا – ربما حتى يظل بعيدا – أنها تنازلت عن أنوثتها لمن لا يهمه الأمر، هل تنازلت عنها فعلا؟

أصبح يتابع المصائب والآ م، بثقة الواثق فى النصر، فى النهاية. يبتسم ثانية، ليست فرحة، لكنه ابتسام ملئ بنبض الألم الحى، والثقة فى أمر ما، ما الذى حدث له بالضبط؟ لو رآه أحدهم وهو يبتسم هكذا لظن به الظنون، كيف يثبت لهم أنه يبتسم؛ لأنه "لم يستسلم، ولن يستسلم"،لأنه "متألم ومحتمِلٌ معا"، هذا كل ما فى الأمر.

"ابقَ قابلتُنى".

تتدفق علاقته بالحياة كلما وعى ألمَه أكثر، هو يعيش هذا الألم كلما بلغته آ م الناس، أحيانا يتصور أنه يتألم مع الناس، للناس، أكثر منهم، فيخجل من كذبه على نفسه، من وصاية عواطفه على مشاعر الناس يقينا بدوره الغامض الجديد، هل له دور أصلا، مهما كان غامضا؟ أحد يعلم، أخشى ما يخشاه هو أ يكون إ والده بخدعة أكبر وأخفى، لماذا غلبت كراسات أبيه على حنان أمه، وحكمة زوج أمه؟ عم سليمان هو والده الذى لم يلده، لماذا أصرت أمه منذ البداية على أن يناديه "عمى" وليس والدى؟ هذا أطيب، هذا أصدق، أفاده هذا الموقف بلا حدود، ليس يدرى كيف، لماذا احتفظت أمه بكراسات والده هذه؟ إنها تقرأ و تكتب! هى لم تكن تعرف السموم التى تحتويها، الكراسة التى

أزعجته أكثر جنبَها، يعود إليها بين الحين والحين، يبدو أن أمه أحبت أباه، لسبب ما، بشكل ما، هل تزوجته شفقة أم حبا؟ هى قريبته من بعيد، لم تعلن تلك القرابة أبدا، كانت تذهب مرة كل أسبوع تنظِّف الشقة، وتأخذ الغيارات المتسخة للغسيل، وتطبخ بعض النواشف التى تكفى أسبوعا، ليست شغالة، ثم تمضى، حكتْ له مرة، وهى نادرا ما كانت تحكى، أنها قابلت عنده واحدة اسمها صفية، قالت إنها كانت فتاة طيبة، ثم قابلتها بعد ذلك، شكَّت، ثم فهمت، ولم تعلق، اختفت صفية عاما إ قليلا، ثم عادت، أمه لم تكرهها، ثم إنها علمت بموتها مصادفة واستنتاجا، كان حزنه شديدا، وحين طلب منها الزواج بعد موت صفية لم تتردد فى القبول، عملها سرا، وفضَّها سرا من جانب واحد دون استئذان، لم يتردد وأنا بعد فى أحشائها أن يفعلها، لم تلمْه أبدا ولم تندم على زواجها منه، رفضت طول عمرها أن تحكى عنه إ النذر اليسير، مثل حكاية صفية، كانت تجيب على أسئلة جلال بكلام غامض، ثم بالصمت، ثم با بتسام، ثم بالدعاء له بالرحمة ولجلال بالسلامة، وأن يوقف الله لجلال أو د الحلال استجابة لدعواتها، كان جلال قد عثر على الكراسات وهو فى سنة ثانية اعدادى، امتقع وجهها وهى توافق على تسليمها له، ثم راحت تدعو أن يحفظه الله من كل شر، لم تكن تقصد أن ما بالكراسات شر، لم تكن تعرف، وجهها امتقع على أية حال.

أربعة عقود وهو يستمع إلى صوت أبيه الذى لم يره أبدا، وهو يحاول أن يتعرف على من وهَبَ أباه عمره لينفيه، هذه الكراسات كلها، أغلبها، كانت تلف وتدور حول نفى كل الوجود إ كاتبها، إ أبيه، أبيه الذى اختفى بدوره كأنه ينفذ حكما صدر عليه بالإعدام أو الموت عطشا، هو الذى أصدره على نفسه من وراء ظهره، اختفى وهو يأبى إ أن يبقى داخل ابنه هكذا.

ليس متأكدا.

-6-

بعد ظهر ذلك اليوم الخريفى المعتدل، الساعة السادسة إ ربعا، تذكر صديقة تعرّف بها مصادفة حين قابلها مع أبيها الذى كان يبحث عن من يعرف أباه،

حين يقطع الإنسان نفسه عنهم، عنه، تتم عملية خصاء بشعة، عمليات بتر سرّى، استئصال، يتم بها فض الاشتباك بين الناس وبين الكون: إما بالتسليم للذين نصبوا أنفسهم وكلاء عنه دون إذن منه، وإما بالإنكار

وهى صديقة ذكية جادة قريبة مُلغزة حادة، شاركها بعض النشاطات السياسية المتقطعة، طرق بابها، طالت فترة انتظار أطول مما توقع، هل يكون عندها أحد منهم؟ تمنى أن ، هو يريدها وحدها الآن، "منال" مازالت تمثل له الشخص المناسب الذى يمكن أن ينقذه من نوبة التفاؤل التى أصابته هكذا فى عز ما يبدد عكسها، يشعر أن هذا التفاؤل أصبح عبئا عليه، عرفها أيام الكفاح والأمل، لم يقتربا كثيرا، هما أقرب دائما مما يحسبان.

اليأس والسخط والإنكار نعِمٌ من عند الله يرسلها إلى عباده الأشقياء ليعبدوه حتى من خلال إنكارهم له، ذهب إلى منال يتزود ببعض الهواء الحار الملتهب الذى تزفره مع كل كلمة ورأى وتعليق وتعقيب، يحبها ويأتنس بها، يحترم عقلها ويرفض حريتها، يتصور أحيانا – ربما حتى يظل بعيدا – أنها تنازلت عن أنوثتها لمن يهمه الأمر، هل تنازلت عنها فعلا؟ لماذا إذن تتمسك بظاهر أهدابها بكل عنف، تبدو وكأنها حلّت مشكلتها الظاهرة بتغيير اللافتة مثل الكثيرين والكثيرات، اللافتات الرائجة هذه الأيام هى "حقوق الإنسان" و"ختان البنات"، هى شخصيا لم تختن، ليست هذه هى القضية، الختان الحقيقى، بل الخصاء الحقيقى هو ما وجده فى كراسات أبيه، حين يقطع الإنسان نفسه عنهم، عنه، تتم عملية خصاء بشعة، عمليات بتر سرِّى، استئصال، يتم بها فض اشتباك بين الناس وبين الكون: إما بالتسليم للذين نصبوا أنفسهم وكلاء عنه دون إذن منه، وإما بالإنكار، يادى المصيبة العمومية!!. هل هذا وقته؟ قرر أن يجدها فى الداخل، هو فى أشد الحاجة إلى أن يجدها، سوف تفتح له مهما تأخرت، فتحت منال الباب وهى تفرك عينيها، ألم يرجح أنها قد طالت منها قيلولتها، أو لعلها زودتها أمس، فوجئت به، كانت اختلافات بينهما قد تمادت حتى بات أى لقاء بينهما يعِدُ بأى شئ، أى أنه يعد بكل شئ: لهذا هو جاء إليها بالذات؟

فكرت منال بالأمس أن تهاتفه بمناسبة عيد ميلاده، لكنها لم تفعل، اعتادت منه فى هذه المناسبة أن يقول كلاما سخيفا، معادا، لم تعتقد أبدا أنه يعنيه، هى

مشكلة الوجود هى أن اللغات لم تعد تستعمل لتنظيم الدماغ، بل أصبحت مثل الملاط اللزج تسدُّ المسام، وتلغى الأعماق

تعرف أنه يريد منهم أن يروْه، وأن يعلنوا ذلك له؛ ليدعى الستغناء عنهم.....، ألعاب غبية يهمد من تكرارها.

. ادخل يا جلال، مالك واقف مثل التائه هكذا.

..... بلا أهلا و سهلا؟

. أهلا وسهلا.

. تسألينى لماذا جئت.

. لماذا جئت؟

. قلت لك تسألينى.

. سمعتُ، وهاأنذا أسألك، ولأنى أعرف أنك لن تجيب، فاعتبرنى لم أسألك.

. شعرت أننى فى حاجة إلى من يلملمنى، ومن ذا يستطيع ذلك إ واحدة مثلك، أحتاج لسخريتك الجارحة لأفيق.

. نعم؟ نعم؟ لقد توقفنا عن مثل هذا منذ سنوات، ماذا جرى لك؟

. لم يجر شئ، عندى مشروع أريد رأيك فيه.

– مشاريعك تنتهى يا جلال، ما الجديد؟

. مشكلة الوجود هى أن اللغات لم تعد تستعمل لتنظيم الدماغ، بل أصبحت مثل الملاط اللزج تسدُّ المسام، وتلغى الأعماق.

. الله الله !!، لنفرض، مع أنى لم أفهم تماما، وأنت مالك؟

. أنا وجدت الطريق لتعديل ذلك.

. يا صلاة النبى !!.

. ماتت اللغة، وأريد أن أنقذ الأطفال، أريد أن ألحقَهم قبل أن يسرقوهم.

)المجنون، يكف عن الحلم، لم يعقل مثلنا، عنده كل ما يؤهله للانضمام إلى "الكيتش"، الجديد، الله يخرب بيتك يا جلال يابن غريب، طالع لأبيك والنعمة)

القرآن لغة ونبض، وإيقاع، وعىٌ غامر، أنا هدفى تنظيم الدماغ، بالرجوع إلى الأصل، وإذا انتظم الدماغ بنبض اللغة الصحيحة، فلا تنعى هما

كتمت ذلك فى نفسها وهى تبتسم مؤتنسة، ولم تقل إ:

. وما دخلى أنا؟

. دخْلُكِ أن تقولى لى، كالعادة، إننى مجنون.

. مجنون ابن مجنون، ثم ماذا؟

. ثم أهتم بما تقولين، وأسألك إذا كان أحد معارفك، أو معارفنا عنده أطفال يريد أن ينقذهم؟

. ينقذهم؟ بكَ أنت؟ سيادتك سوف تنقذ أطفال الناس؟ ألم تكفِكِ خيبتك– خيبتنا . مع الكبار؟ ألم تفِقْ من كثرة الصك على قفاك؟ لم يتركنا و رئيس منهم إ وقد ترك بصمات كفه على أقفيتنا، ماذا جرى لك يابن العبيطة، غريب؟ إعقل ربنا يهديك.

أريد أن أسهم فى إرساءِ قواعد البنية الأساسية لأدمغة البشر، ولا يوجد أنسب من أدمغة الأطفال.

كادت يده تمتد، تتحسس قفاه، عبد الناصر، السادات، ويمتد الصك بالقصور الذاتى، هذاصحيح، هو يشعرالآن بآثار الصك على قفاه، لعله تعوَد، هو على يقين من أنه ما زال يُصك إلى الآن، ولكن ليس بالضرورة علانية على قفاه، لماذا يصدِّقه أحد، حتى منال تريد أن تشاركه، حتى لو كان مجنونا فهو جنون سرّى طريف، ليس منصوصا على تجريمه فى قانون العقوبات أو نقابة الأطباء، مازال يتصور أن عنده ما يفيد، أنه قادر على أن يبدأ من جديد، يبدأ من الأول، من الأطفال،

أكمَلَ حديثه وكأنها تعرف ما دار بذهنه:

–العبد لله مدرس أرخص، وأصبر، يضمن للعيال النجاح والتفوق فى اللغات والكمبيوتر، و.. والقرآن!!.

. طول عمرك طاقق، ما هذا الذى تقول؟

. اعتبريها مسألة أكل عيش، لم يعد لى عيش فى الصحافة، الصفراء، و الحمراء، و الخضراء، كلهم ضاقوا بى.

. تترك الصحافة؟ هل تستطيع؟

. قلت لك هى التى تركتنى، لم أعد أصلح لها.

. .. ثم ما هى حكاية القرآن؟ مالك أنت وما للقرآن؟ إفرض أن الطفل الذى ستدرس له ليس مسلما.

. هل أنا قلت الإسلام؟ القرآن لغة ونبض، وإيقاع، وعىٌ غامر، أنا هدفى تنظيم الدماغ، بالرجوع إلى الأصل، وإذا انتظم الدماغ بنبض اللغة الصحيحة، فلا تنعى هما.

. تنظيم ماذا يا عيونى؟

. الدماغ.

. نحن فشلنا فى تنظيم الأسرة، وأنت تحلم بتنظيم الدماغ، "جتك نيلة".

راح يشرح لها فكرته الأساسية كأنه لم يسمع اعتراضها أو سبابها، راح يعدِّد لها ما طرأ على اللغة من فساد، وبالتالى على الدماغ من تشويش، وأن الحل هو التمسك بالأصول النقية وتنشيط اللغة الحية، اللغة الأصل، وأنه متى نجحنا فى ذلك، فإن الدماغ، يعنى المخ، سينتظم حديثا عريقا.

. حلوة "حديثا عريقا " هذه.

. أخيرا فهمتِنى.

. أنا أضحك عليك، توهم نفسك أنك مفهوم، أنت تصعّبها لتبدوا مفكرا، قال: "حديثا عريقا" قال !! ؟

. أنا بسيط جدا، وأنت تعرفين.

راحت بدورها، تحاول إقناعه أنه مادام يتقن ثلاث لغات، فإن "المنظمة" فى حاجة إلى مثله، حتى إذا كان هو يؤمن بمبادئها كما يدعى، حتى لو اختلف مع إدارتها، فما عليه إ أن يعمل مترجما محترفا دون ا نتماء لها، وسوف يكفيه الدخل، بد من هذا الهبَل الذى يحكيه.

هو يزعم لنفسه دائما أنه يستطيع أن يحب طوب الأرض، على شرط ألا يقترب، لا أعرف أين يذهب حبى لهم حين أقترب، حين أتحسس من أحب، حين أصدقه؟

. المسألة ليست مسألة دخل، أنا مستعد أن أترجم لكم بالقطعة، لكن فى نفس الوقت أريد أن أسهم فى إرساءِ قواعد البِنية الأساسية لأدمغة البشر، و يوجد أنسب من أدمغة الأطفال.

. جلال غريب الأناضولى، يُعِدُّ أطفال العالم لبناء المستقبل بدروس خصوصية فى اللغات والهبل!! يا صلاة النبى. أنت هو أنت، أنت تتعلم أبدا، تريد أن تهمد.

. بل مصيبتى أننى أتعلم جدا، كل ما فى الأمر أننى أتخلى عن وجهتى، أنا– فقط – أغير الطريق إليها.

– الله يخرب بيتك، ألن تكف أبدا؟

. اكتشفتُ يا منال أنه حل إذا زوّدنا أطفالنا، بلغة سليمة، إلى ما نعرف.

أستطيع أن أحب كل الناس فوق ما يتصورون، لكن من بعيد لبعيد، هو يعلم أنها مثله، وربما جاء إليها، لأنه على يقين من أنها مثله

. يا خبر اسود، ماذا حل بك يا جلال؟ ميتافيزيقا جديدة، ستعطى دروسا للأطفال فى الميتافيزيقا؟ ..

. أنا أتكلم جدا.

. أعرفك، حتى وأنت تمزح تتكلم جدا، الله يخيبك.

. هل تعدينني.

. بماذا؟

. إذا وجدتِ طفلا صالحا لمشروعى، أن توصى أباه أن يجرّبَنى، مساعدة أخوية.

. أساعدك أن تنفث أفكارك لأطفال معارفى وصديقاتى؟ أنت تتنفس أفكارك يا جلال، أنت تخلط الأوراق، والله لو كنت أُمًّا لأحد هؤلاء الأطفال وأخبرنى طفلى بما يصله منك لأبلغت عنك الأزهر، والمباحث، والبابا شنوده، وكوفى عنان، معا، اعقل يا جلال ربنا يهديك، لماذا يتوب الله عليك من وسواس السياسة؟

–هذه ليست سياسة.

– □ يا شيخ؟

– مازلتَ مثل زمان، تماما مثل زمان، لماذا □ تكون مثلنا، وخلاص.

. مثل من بالضبط؟

. مثلنا يا أخى.

. قولى لى مثل من؟ ماذا تفعلون الآن؟ ماذا تفعلين الآن؟

راحت تحكى له بحماس ليس له مبرر ما سبق أن حكته له قبل ذلك كلما التقيا، وهو □ يكف عن إعادة السؤال، وهى □ تكف عن الحكى، راحت تكرر أنها تركز الآن على "حقوق الإنسان"، وبالذات "حقوق المرأة"، وتحديدا على إنقاذ البنات من جريمة انتهاك أجسادهن بالختان، فراح بدوره يذكرها بموقفها العدائى من مسألة البكارة، واتهام الرجال بأنهم قد أعطوا رشوة للطبيعة، أو لربنا، حتى يتآمر على البنات فيخلق لهن تشريحا خاصا يشعرهن بالنقص إزاء الرجال؟

. طبعا، هذا غشاء □ لزوم له أصلا.

. وأنا مالى؟ هل أنا الذى وضعته فى البنات؟

. وأنا أيضا مالى، ماذنبى أنا أن أولد بغشاء وأنت □؟

. وهل فرقت معك؟

. إخرس يا كلب

اقترحَ عليها أن تتقدم بطلب إلى مجلس الشعب لكى يصدر تشريعا بأن من يُصر على ختان بناته، فعليه أن يزيل لهن غشاء البكارة بالمرة، همَّت بأن تقوم لتصفعه، فابتسم وحاول أن يرضيها فزاد على اقتراحه أن تتم مع عملية ختان الصبيان إزالة إحدى الخصيتين للصبيان، فيستوى الجميع فى النظام العالمى الجديد.

... طول عمرك كلب إبن كلب.

أنا لا أمنع نفسى لأحد أبدا، أنا أتقن التمثيل خاصة فى الفراش، أتفرج عليهم، لا للتسلية، ولكن سِفّها دراسة

. ابن كلب نعم، لكنني- شخصيا- أحاول أن أنتسب إلى قطيع البشر المستأنَس.

. طالع لأبيك والنعمة، كل ما أرجوه هو أن أتحمَّلك كما تحمل أبى أباك.

- لستُ أدرى من الذى تحمل الآخر، ياليتنى ما عرفت مَنْ أبوك، وما علاقتة بأبى الذى لم يكن أبى أبدا، تحكى لى عنه لو سمحت، أريد أن أسمع.

واصلت منال وكأنه طلب العكس، راحت تحكى له كيف تعجب والدها حين عثر مصادفة على بطاقة جلال غريب الأناضولى معها، سألها ولم تفهم عم يسألها، أصر على معرفة عنوانك، وحين تأكد زاد عجبه، أخبرها والدها أنه متأكد أن "غريب" هذا، إن كان هو هو، لم يتزوج، وأنه ظلَّ غامضا بعيدا طول الوقت حتى أنه لم يكن يشارك جادا فى تلك التجربة التى خاضاها معا تحت زعم العلاج، لم يحاول والدها أن يذكر أية تفاصيل.

طلب منها أن تسأل جلال عن حقيقة والده، ربما كان تشابه أسماء، تباد بعض المعلومات بين الحين والحين حتى تأكد أن جلال هو ابن أبيه، زاد عجبه وتوقف بعدها عن السؤال.

منال نفسها تعرف عن أبيها الكثير، طلق أمها منذ طفولتها، نشأت مع أمها التى تشبهها فى الشكل، وفى الطبع، لكنها لم تقطع علاقتها بأبيها أبدا، كانت تزوره أحيانا، وتبيت عنده بعض الليالى، ويحكى لها ما تيسر كلما تيسر، تزوج والدها من سيدة قوية، لم تحبّها، طنط نجوى، وهى كرهتها و تكرهها، وإن أحبت ابنها، أخاها أنور، كانت قد عرّفت جلال به ذات مرة أثناء إحدى زياراته، ثَمَّ شبه بين والدها وجلال، شبه من بعيد تدرك معالمه: تعديل الكون، بالسياسة و بالحرب، كلاهما يرسم مشاريع خائبة، ويردد أفكارا هاربة، وخلاص.

- تذكّرنى بأبى يا جلال، خيبتكما بليغة.

كانوا يحلمون، كانوا ثوارا بحق، ليسوا ثوارا تماما، مشروع ثوار، فقسوا اللعبة فى الوقت بدل الضائع، بل فى الوقت الضائع، "قادة بلا شعب، وثوار بلا ثورة"،

. طالع أنا لأبيك، ماذا تعنين؟

– والله صحيح، فيك شبه منه، لست أدرى كيف يصر أبى أن أباك لم يتزوج، حتى أنكرك.

– أنكرنى؟ بصفة ماذا؟

– اسأل أمك.

. بطلى سفالة، نحن نتكلم فى الجد.

. الجد هو أن أحضر لك نشرة من نشرات المنظمَّة تترجمها فى أسبوع، هذا هو عين الجد، أكل عيش، لقمة طرية أحسن مما أنت فيه ياحمار.

لوَّح لها بالموافقة على شرط أ يكون هذا بديلا عن تقديمه لأى من أصدقائها أو معارفها ممن له طفل يود أن ينقذه مما آلت إليه حال البشر، مجرد دروس فى اللغة العربية يسرب من خلالها اللغات الأخرى والكمبيوتر على إيقاع نبض القرآن.

سرق الحكام البلد الحلم من أهاليهم بالتلويح بتحقيقه، ثم سرقوا منهم الوطن باعتبارهم مختلين عقليا لا يُعمل حسابهم، ولا يصلحون للاستعانة بهم

راحت تضحك دون سخرية، وبدا أنها تشك – بحب حقيقى – فى سلامة عقله، ثم ضحكت عاليا وهى تقول:

–... هنا الـ . BBC لغات حية، وقرآاان، تم، تررم، تم.

– دمك ثقيل، لماذا تأخذين الأمر بجدّية؟

. قل لنفسك، تريدنى أن أورد لك تلاميذ تجرِّب فيهم مشروعك السرى الجديد؟ حاضر. مقابل ماذا؟ أفعل لك كل هذا مقابل ماذا؟

. أعرف مقابلا يمكن أن يرضيك.

. قل لى عليه لأتحمس.

. سوف تتفرجين علىَّ، وستسخرين، ثم سوف تفرحين بفشلى.

. وما ذنب الأطفال الذين سوف أعرِّضهم لجنونك؟

– وهل أصلح الدنيا عبر التاريخ غير المجانين.

. لم تتغير يا جلال لدرجة أننى لست نادمة على أننى أحببتك يوما.

. ومازلتِ تحبيننى.

. يعنى، حب بالريموت كونترول .

. يا منال يا ست الكل، أنتم تتفرجون من بعيد لبعيد

. أنت تصلح حتى للفرجة التى أتمتع بها معهم.

هو يزعم لنفسه دائما أنه يستطيع أن يحب طوب الأرض، على شرط أ يقترب، أعرف أين يذهب حبى لهم حين أقترب، حين أتحسس من أحب، حين أصدقه؟ أستطيع أن أحب كل الناس فوق ما يتصورون، لكن من بعيد لبعيد، هو يعلم أنها مثله، وربما جاء إليها، لأنه على يقين من أنها مثله، هو واثق –مثلها– من متانة حواجز الثلج، متانة غير قابلة للاختراق، قالت وكأنها كانت تسمعه:

أنى أتمتع بالفرجة على بلاهة الرجال الذين أخدعهم فى الفراش، أتصور أننى لا يمكن أن أترك نفسى لأى واحد منكم، لا أحد منكم يستأهل

. بالمناسبة، كيف حال ثريا؟ هل مازالت تراسلك؟

. تراسلنى؟ من أين؟ لقد عادت من السعودية، فسخت عقدها وعادت، ولو عرفتِ أين كانت تبيت ليلة أمس؟ (قال الجملة الأخيرة بصوت هامس لم يصل منال)، زرتها هذا الصباح فى مدرستها بالبدرشين.

. هل سترجعان؟

.... ذهبت إليها أبحث عن تلاميذ لمشروعى الجديد. عدلتُ فى آخر لحظة، لم أجرؤ أن أفاتحها أصلا كما فعلت معك حا، تصورى أنك أقرب، برغم ألواح الثلج بيننا.

... لكنها بخير.

. مادامت بعيدة عنِّى فهى بخير.

. لم أر فى حياتى حبا مثل حبها لك.

. وأنتِ؟ من تحبين الآن؟

. أحب من يقدر علىَ، من يدفع مهرى؟

. أنت تحتاجين لمهر و لعقد حتى تحبى.

. بطّل يا ابن الكلب.

. والله أريد لك الخير، أريدك أن تدخلى الدنيا من بابها البسيط.

. إشبع بها أنت، إياك أن تصدق أنك دخلت الدنيا أصلا، من بابها البسيط و من بابها العريض، أنت تكف عن طرق بابها، أكثر، وحين لم تفتح لك رحت تجرب حظك مع الآخرة من باب الحيطة، أنت لم تحصِّل هذا و ذاك، ولن تتعلم أبدا.

. إيش عرفك؟

. قلت لك، تُذَكّرنى بأبى.

. من السعيد الأبله الذى ترافقينه هذه الأيام يا منال؟

. ماذا تريد أن تقول يا ندل، أنا أمنح نفسى لأحد أبدا، أنا أتقن التمثيل خاصة فى الفراش، أتفرج عليهم، للتسلية، ولكن سمِّها دراسة، لم أجد حتى الآن من يفقسنى، صديقى الآن صاحب معرض سيارات، يحب النقود والجنس والشرب والكلام الرشيق، تصور؟ ابن طبيب يعرفه والدى، أبى هو الذى عرفنى به حين كنت معه مصادفة، وهو يفكر فى استبدال سيارته القديمة، أبى يتكلم عن أبيه بتوقير شديد، فإذا ذكر ابنه هذا صاحب المعرض مصمص شفتيه وسكت، لم أرفضه ولم أتحفظ فى اقتراب منه برغم ما وصلنى من أبى، اختلقت الأسباب لمعاودة زيارته؛ لأستفسر عن تفاصيل خائبة، غمزت السنارة.

. ربنا يتمم بخير.

. يتمم ماذا يا أهبل؟ إنه متزوج ويعول، ولو هذا ما وافقت.

راحت تحكى له كيف أن زوجة صديقها الجديد هذه ألمانية محجبة، امرأة شاهقة البياض؛ وشاهقة الجمال أيضا، حين عرَّفها بها زوجها، بكل بجاحة، فهمت من نظراتها أنها تعرف، وربما تبارك، ثم حكت له عن إحساسها أن هذه "الخواجاية" – برغم أنها خوجايه – قد اخترقتها إلى داخل الداخل.

. .. شعرتُ يا جلال أنها وصلت إلى قالب الثلج الذى أتدرع به فى أحشائي؛ ليحمينى منكم، من كل الرجال، يبدو أن ذلك طمأنها على مدى علاقتى بزوجها، لم تتردد فى دعوتى للعشاء معهما، وهى تجمع بين السماح والتحدى، موقف يغيظ، أليس كذلك، لكنه يملؤنى احتراما لها.

. وهو؟

. و عنده فكرة.

. بماذا؟

. بى، و بها، هذا ما أتصوَّره.

. فلماذا تظلين معه؟

. ربما رغبة فى التشفى.

. ممن؟

. أعرف.

راحت صور ثلتهما القديمة تقتحمه دون استئذان، كانوا يحلمون، كانوا ثوارا بحق، ليسوا ثوارا تماما، مشروع ثوار، فقسوا اللعبة فى الوقت بدل الضائع، بل فى الوقت الضائع، "قادة بلا شعب، وثوار بلا ثورة"، سرق الحكام الجدد الحلم من أهاليهم بالتلويح بتحقيقه، ثم سرقوا منهم الوطن باعتبارهم مختلين عقليا يُعمل حسابهم، و يصلحون للاستعانة بهم، ما الذى أتى بكل هذا إليه الآن؟ حاوَل أن يغير اتجاه أفكاره، فاستشعر فى نفسه قسوة غير مبرَّرَة، كأن "منال" تمثل خيبتهم جميعا، وكذبهم جميعا، عاد بكل سماجة ينصحها أن تتعرف على نفسها أكثر، أن تعطى نفسها فرصة أن تكون هى، كان يريد أن يبعد أفكار السياسة الزنخة عن أحلامه الطازجة، كاد من فرط سماجته أن يجرحها مباشرة، فوَّتت له وهى تتماسك أكثر قوة، وهى تدافع عن موقفها.

. تصور يا جلال أننى فى قرارة نفسى أخشى أن أجد لهذه المسألة حلا، يخيل إلى، أنى أتمتع بالفرجة على بلاهة الرجال الذين أخدعهم فى الفراش، أتصور

أننى يمكن أن أترك نفسى لأى واحد منكم، أحد منكم يستأهل.

. ترعبيننى.

. انتَ مالك، انت أخذتها من قصيرها، واحتفظت بالمسافة طول الوقت، المسافة التى تسمح لك بالفرجة دون ا قتراب، أنا أتفرج وأنا فوق خشبة المسرح، أعنى تحت كوشة الملقن، ألقنهم فيرددون بعدى حتى تنزل الستار وقد استلقوا على خشبة المسرح وأنا أضحك،. أنت يا جلال تتفرج أيضا، لكن فى سيارتك الخاصة التى تخبئها فى دماغك، تترك محركها دائرا باستمرار حتى تهرب عند أول إشارة، سينما السيارات خدعة جديدة تبعد الناس عن بعضهم البعض.

. ليست عندى سيارة.

. الله يخرب بيتك، ما أنا عارفة؟

. أغيظكِ، باصطناع البلاهة.

. والله زمان.

. الحمد لله.

. بطل يا ابن الكلب.

. أبطل ماذا؟

. بطل حَمْد وتمحُّك فيما تعرف عنه شيئا، قال الحمد لله قال، تريد أن تضحك عليه هو الآخر؟

. أحتاج إليه هذه الأيام و أريد أن أعترف بذلك، أ تضبطين نفسك وأنت تحتاجين إليه؟ أحيانا، يعنى.، ولو فى السر؟

. يبدو أننى سوف أحتاج إليه حتى يغفر لى بعدد الأطفال الذين سوف أعرضهم لمشروعك المتنيل بستين نيلة.

-7-

جلال يعلم يقينا كم يحب منال،

و هى كذلك،

لكنهما يفعلان شيئا إ أن ينكرا أى احتمال جاد لذلك.

هذا أفضل، وإن كان أكذَب.

الكذب أفضل، ويا حبذا لو بدأ كل واحد بنفسه، يكذب على نفسه أو، يحبُك الكذبة جدا، ليضمن بعد ذلك أ تهتز فيه شعرة وهو يكذب على الدنيا بأسرها.

ماذا لو تجرأ فاقترب، فاقتربت؟

هو يعرف، وهى كذلك تعرف، أنهما غير قادرين على التمثيل على بعضهما البعض، ربما لهذا هما يقتربان.

أحيانا، وفى قمة الصراع اللفظى المناقشاتى يناديه جسدها نداء واضحا بسيطا مباشرا حتى يتصور أنها ليست هى، يستجيب جسده من بعيد، يحتد النقاش فيبتعدا.

تصور مرة أنه من الممكن أن يلتحم جسداهما من ورائهما دون استئذان، ليتصاعدا معا كلهم (وليس كلاهما).

) =)هكذا فقط يتحقق المستحيل.(

= (بطّل، يا أخى، بطّل كَفَى، مستحيل ماذا يا جدع انت، العلاقة البشرية أبسط من كل هذا).

= (أبسط يعنى أصعب).

= (كلام فارغ).

=الكلام الملئ هو أنه "جبان حالم"،

= وأنها "قوية عنيدة"،

=وخلاص.)

– **[1]**يحيى الرخاوى: رواية "ملحمة الرحيل والعوْد" الجزء الثالث من ثلاثية "المشى على الصراط" (الطبعة الأولى 2007، الطبعة الثانية 2017)، والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط . **www.rakhawy.net**

الأحـــد 2018-07-22

العدد: 3977 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى

(من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد")

كل اللافتات والشعارات والعبارات أصبحت غائمة، بعيدة، ملتبسة، تحتاج إلى تصحيح، أو توضيح

الأبطال المعروفون عبر التاريخ ليسوا هم من تعرفون من مشاهير، الأبطال الحقيقيون كانوا بداخلهم، وماتوا معهم، هذه الأسماء التى يذكرها التاريخ هى من صناعتنا نحن، أسماؤهم ليست هم

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية" **ملحمة الرحيل والعوْد** **(1)** "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى **الجزء الثالث** :من ثلاثية" **المشى على الصراط.**"

وهذا هو الفصل الثانى

"عزبة البكباشى"

. 1 .

هذا اليوم: □ أكرهه، و□ أحبه، و□ أفخر به".

راح جلال يتذكر كيف مر عليه يومه هذا، كيف تحايل أن يمرره مثل كل يوم. كيف قفز إليه مختلفا متحديا وكأنه يرد عليه: إنه فعلا ليس مثل كل يوم، و□ مثل أى يوم مما كانوا يسمونه: "عيد ميلاد"

(= إنه.. "يوم آخر"، لم يعد عندى إعجاب برفاهة التغّزل فى هجائه،"عدتَ يا أيها الشقى"

=كامل الشناوى كان يجمل الحزن، وفريد الأطرش يطربه

=أنا لست حزينا، ولست فرحا، لست ساخطا، ولست ثائرا!، لم تُمتهن كلمة مثلما امتُهنت كلمة "الثورة"، وأيضا كلمة"الحرية".

=لست هاربا

=أنا ذاهب لأمرٍ ما(.

كل اللافتات والشعارات والعبارات أصبحت غائمة، بعيدة، ملتبسة، تحتاج إلى تصحيح، أو توضيح، كل عناوين الأفلام والروايات تحتاج إلى شئ ما، تحتاج إلى معجم خاص، إلى مذكرة تفسيرية، لست بطلا، و أريد أن أكون بطلا، الأبطال المعروفون عبر التاريخ ليسوا هم من تعرفون من مشاهير، الأبطال الحقيقيون كانوا بداخلهم، وماتوا معهم، هذه الأسماء التى يذكرها التاريخ هى من صناعتنا نحن، أسماؤهم ليست هم، أى عبث؟ الإسكندر ليس الإسكندر، ونيتشه ليس نيتشه، وقيصر ليس قيصر، وحتى غاندى ليس غاندى، وفرويد ليس فرويد، أنا كل هؤ ء.

(= "..نعم؟ نعم؟" .

="شكرا".

="الله يخيبك البعيد".(

لماذا نطفئ الشموع بعدد ما مضى من سنين عمرنا؟! الأوْلى أن نشعل شمعة واحدة للعام الجديد، إما أن ينفع وإما ينفع، بختك يابو بخيت، هذا العدد 41، ماذا يعنى؟ لماذا يكون العد تنازليا من رقم افتراضى؟ ليكن 65 أو حتي70 أو مائة أى رقم، رقم قابل للتغيير، مانع، وليكن العد هكذا: "باقى 31 سنة، باقى30، باقى" 29، تفرح باقتراب النهاية، وربما تحزن، كله محصل بعضه، لكنك بد ستتعرف على الزمن أوضح، وأدق، أراهن أن العدّ التنازلى

لماذا نطفئ الشموع بعدد ما مضى من سنين عمرنا؟! الأوْلى أن نشعل شمعة واحدة للعام الجديد

تفرح باقتراب النهاية، وربما تحزن، كله محصل بعضه، لكنك لا بد ستتعرف على الزمن أوضح، وأدق

سيتوقف عند خمسة عشر أو خمس، لكنه سيتوقف، وقد تُوهِم نفسك فتضيف عددا آخر من السنين كلما اقتربتَ من الصفر.

)= "مرعوب أنا من الاقتراح".

="كبّر عقلك".

="حاضر، ولا كأنى قلت شيئا(."

أراهن أن العدّ التنازلى سيتوقف عند خمسة عشر أو خمس، لكنه سيتوقف، وقد تُوهِم نفسك فتضيف عددا آخر من السنين كلما اقتربتَ من الصفر

يضحك الناس على بعضهم البعض، ضحكنا على أنفسنا بما فيه الكفاية، ضحكوا علينا فضحكنا على أنفسنا توفيرا لجهد الناس "الكُمّل"

يضحك الناس على بعضهم البعض، ضحكنا على أنفسنا بما فيه الكفاية، ضحكوا علينا فضحكنا على أنفسنا توفيرا لجهد الناس "الكُمّل"، لم أكن أعرف أننى أستطيع أن أمشى كل هذا الوقت، خمس ساعات ونصف حتى الآن، ومازلت أسير، شارع المحطة، ميدان الجيزة، محطة موبيل، أو محطة التعاون، لست متأكدا، "الأوبرج" أو كازينو الليل كله مثل كله، لعلها الباريزيانا، المريوطية، فندق سياج، ستوديو مصر، شبرامنت، اقترحوا علىّ أن يحتفلوا بعيد ميلادى بطريقة لم تخطرعلى بالى، أصدقائى حلوون، ياه ما أصعب الكلمة، حلو، والجمع حلوون، معقول؟ ليس هناك معنى أن أحتفل بما لا أنتمى إليه، بما ليست لىّ يد فيه، القرار كان قرار والدى، لا أظن أننى وُجدت بناء عن قرار أصلا، هى المصادفة، أو لعلها توريطة، لعلى ولدت عن طريق الخطأ.

المسائل تجاوزت كل تلك الشكليات، المساحة تتسع، الدنيا أصبحت أكبر، حتى أننى لم أعد أعرف أكبر من ماذا؟ هى أكبر والسلام، هى أكبر فأكبر، فأكبر، كلما نظرت إليها وجدتها أكبر، أكبر وخلاص، أحيانا أنظر إليها فأشعر أنها تكبر، حالة كونها تكبر أمامى أثناء تطلعى إليها، أثناء تمعنى فيها، أثناء محاولتى الإحاطة بأبعادها، اشتريت نموذج كرة أرضية من المكتبة المقابلة لمحلات "ويمبى" أو لعلها محلات "ماكدونالدز"، هل يوجد فرق؟ محلات النظام العالمى الجديد، محلات كلينتون ابن القحبة، أهديت الكرة الأرضية لنفسى، هدية عيد ميلادى، كل واحد يهادى نفسه، قبلتُها شاكرا، لم تعد المسألة أن الأرض تلف أم لا تلف، رحم الله كوبرنيكس طيب ذكرى فؤاد المهندس، لم يعد ينفع أن

ألففها وأتحدى السماك زاعقا "الأرض بتلف"، الشيخ خميس،"السكرتير الفنى"، حاولت طوال عشرين سنة أن أتعرف على علاقة الشيخ خميس بربه، بربنا، أنا أحب الشيخ خميس، أحب عبد الوارث عسر، أتمنى أن أستنسخه لأسأله إن كان يحبنى كما أحبه، أريد أن أسأله عن ربه، ربنا، أشعر أنه . ربنا هذا الذى كان يعبده الشيخ خميس وهو يعلِّم فؤاد المهندس الغزل . هو شديد الجمال، الشيخ خميس –أيضا– شديد الجمال، الله جميل يحب الجمال؟ لم أتوقف أبدا عند هذا القول السائر لأتساءل: حديث شريف هذا؟ أم خفة دم الشعب المصرى؟!!، فكيف يتصور هؤ ء "الكيتش" الجديد أننى هربت منهم، يتهموننى أننى أهرب من الدنيا، كأنهم هم الدنيا، لمجرد أنهم هاتفونى ولم يجدونى، ياه!!، هل يمكن أن أكون وحيدا جميلا فى ذات الوقت، وفى هذا اليوم؟ ليس يوما شقيا يا عم كامل يا شناوى، هذا اليوم هو كما تصنع أنتَ منه، هو كما تصنع به، كما تصنعه، الزمن يمضى بنا، نحن الذين نصنعه.

(= "يا حلاوة!".

= "يارب تصدق".)

كيف لم أتعب حتى الآن؟ كيف أواصل السير طوال هذا الوقت هكذا؟ أين أنا الآن؟ شبرامنت هذه؟ هل أواصل السير إلى سقارة أم أنحرف يسارا إلى "أبو النمرس"؟ أريد أن أتعرف على النخيل من جديد، أريد أن أسلِّم على أجدادى الأحياء فى جذوعه، لقد اختلطت الأزمان عندى حتى لم أعد أصدق، أجداد من يا عم؟ أهو كلام ..، التاريخ يكتبه فريق من الهواة المحترفين !!. نعم؟ نعم؟ أتعمّد الخلط طبعا مثل أدب هذه الأيام، الله يخرب بيوتهم، أشعر –أحيانا– أنه ليس أدبا بل "تورْلى" تركوه خارج المبرد (يعنى الثلاجة!!) حتى فسد، نعم، الهواة المحترفون، أنا أقولها كما يخطر لى، وأنت تحلها بنفسك، قال تاريخ قال، وهرم سقارة المدرج؟، الهرم الآن مبرمج مدرج، أجلس أمام ذلك الهباب الرائع الذى كاد يأخذ منى ما تبقى من عمرى، الكمبيوتر، ألعب "بالفأرة" أو "الماوس"، لمَ

ليس هناك معنى أن أحتفل بما لا أنتمى إليه، بما ليست لىّ يد فيه، القرار كان قرار والدى، لا أظن أننى وُجدت بناء عن قرار أصلا، هى المصادفة، أو لعلها توريطة، لعلى ولدت عن طريق الخطأ.

أسموه الفأرة، كان عبده مبروك جارى فى الفصل يرسُب فى كل العلوم "ما عدا الرسم"، أعتقد أنه كان يحتاج كل هذه التكنولوجيا قبل اختراعها لو كان عند أجدادى المزعومين هذا البرنامج التافه ومعه هذه الفارة المطيعة – إذن– لما احتاجوا لبناء كل هذه الأهرامات العبثية، كانوا عملوها بعدة قفزات من الفأرة، ودمتم، لم أحب أهرام الجيزة أبدا، لم تتملكنى الرهبة أو الخشية أو الإعجاب، وأنا واقف بجوار الهرم الآكبر ضئيلا ضئيلا حتى العدم، و وأنا أكاد أختنق فى ممراته، عاندت ذات مرة وصعدت الهرم الأكبر مع صديق رياضى شقى، كنا فى سنة ثالثة فى الكلية، ولم أشعر بشئ حتى وأنا على قمته، لم أقبل كل مبررات الخلود وراء أسطورة بنائها، ولم أفهم (وفى نفس الوقت لم أرفض) شائعات سرها، ومعجزات توجهاتها الهندسية، أعرف أنها كادت تصبح دينا عند المهووسين بها، تلك الديانة المعاصرة التى تريد أن تثبت أن الأهرامات هى رمز تِساقِ قوانين هندسة بيولوجيا الصحة مع قوانين بيولوجيا الطبيعة الحجرية إلى بيولوجيا الكون، يا صلاة النبى! الموسى التى توضع فى زاوية كذا، بحيث تتوجه إلى وجهة القانون الهرمى، تُثلم و تصدأ لسنين عددا، ذات مرة قررت أن أتقمص هذه الموسى حتى يثلم حسى، رحت أقرأ فى كتب أوهام الأهرام وسرها الباتع، وضعت نفسى متسمرًا على قدم واحدة فى اتجاه الموسى الذى ينثلم، كنت ألعب مع القراءة لعبة أقرب إلى الكاريكاتير، لكننى شعرت أننى أبرد متجمدا، ثُلمَت كلتا الناحيتين حتى أصبحتُ مثل سكين صدئة فاترة تعرف ناحية حدها من الناحية الأخرى.

كان ذلك قبل هذا اليوم بكثير،

"هذا يوم موتى."

"هو هو يوم مولدى،"

كلام ليست عليه ضريبة، يقوله أى واحد يفهم منه حرفا".

"قال يعنى أنا "اللى" فاهم !!!".

هذا اليوم هو كما تصنع أنتَ منه، هو كما تصنع به، كما تصنعه، الزمن لا يمضى بنا، نحن الذين نصنعه

لم أقبل كل مبررات الخلود وراء أسطورة بنائها، ولم أفهم (وفى نفس الوقت لم أرفض) شائعات سرها، ومعجزات توجهاتها الهندسية

. 2 .

عسكرى المرور عند كوبرى شبرامنت، "كشكه" أبعد قليلا من الكوبرى المتجه نحو "أبو النمرس"، كنت قد قررت أ أمضى فى طريق سقارة وأن أتجه إلى "أبو النمرس"، لماذا أتجه إلى "أبو النمرس"، ولماذا أتجه إلى "أبو النمرس"؟

= "صباح الخير، صباح الفل بعد الظهر، صباح النور بالليل".

شعب يحتاج إلى حشيش، حتى يحشش، هناك – فى الناحية الأخرى – أجد أجدادى بحق، تلك الغابة من النخيل التى تقع بعد المزلقان مباشرة بجوار طريق الصعيد، أبو النمرس أعرق من شبرامنت، النخيل أعرق من هرم سقارة، لماذا الخلود؟ هذا الوهم الذى أضاع الناس حتى أنكروا فضل الموت على البشر، ما هذه الشعارات؟ أنا أنتمى للنيل، للنخيل من حوله، وليس للأهرامات، نعم؟ نعم؟، خلود ماذا؟ خلود منْ؟

طريق الخلود طريق الجدود، طريق الكباش طريق البلاش "إخرس يا ولد" .

ما أقبح السجع المستظرف، لم أعد أطيقه، ما معنى كل ذلك؟.

"أنا مالى؟ أنا أقول، وهم يتصرفون،".

من "هم"؟ لم يعد هناك "هم"، لم أعد أقابل إ مجموعات من ضمير مستتر واحد تقديره "أنا".

"أنا هيمان، وياطول هيامى، صور الماضى، ورائى وأمامى"، ليس تماما، لكن الأغنية جميلة، وصوت عبد الوهاب أجمل من ذكائه، هل أخذ ملايينه معه؟ لماذا حرم بناته؟ لم يكن بنات بارًات؟ ولو.....

أنا أتم اليوم العام الواحد والأربعين من عمرى، ولو هربى هذا بدءا من شارع المحطة إلى شارع الهرم إلى طريق سقارة إلى شبرامنت، لأنحرِف الآن نحو "أبو النمرس" لكنت أمارس طقوس الكذابين السنوية احتفا بعيد ليس لى فضل فيه.

=)كل سنة وأنت طيب، وأنت بالصحة والسلامة.

من "هم"؟ لم يعد هناك "هم"، لم أعد أقابل إلا مجموعات من ضمير مستتر واحد تقديره "أنا". "أنا هيمان، وياطول هيامى، صور الماضى، ورائى وأمامى"،

= "شكرا"، "ربنا يخليك"، عقبال مائة سنة؟

=(أهو أنت)، الله يخيبكم، كل سنة وانت "كده"، ياليت.

" =البقاء لله"، و"لك مثلما قلت"،(

انطفأتْ وحدها كل هذه السنين، ◻ تحتاج حتى نفخة رمزية من هواء زفيرى، مِن أكذب الكذب أن تطفئ ما انطفأ فعلا، إحدى وأربعون عاما، "إذا بلغ الفتى عشرين عاما، ولم يفخر فليس له فخار"، شعراء العرب هؤ◻ء أنذال فعلا، هأنذا فى العقد الخامس، ولم أفخر بعد، بماذا أفخر؟ لكن سيظل عندى ما يمكن أن أفخر به، إننى أفخر بأنى مازلت قادرا على أن أحب، أحب كل من على الكرة الأرضية بلا استثناء، يعيش الهرب فى الكل، أهديت نفسى نموذج الكرة الأرضية بما عليها، وليس بما هى وهى تلف، هذا ما تخيلتُه، ◻ أريد أن أتوقف عند الكرة الأرضية؟ كوكب خائب عليه كيانات مغرورة تتصور أن كل شئ خلق من أجلها، تبدأ بأن تلغى بقية الكائنات على نفس الكوكب اللهم إ◻ ما يصلح منها للاستعمال الشخصى"!!، ثم تروح تهمِّش كل الكواكب الأخرى، أريد أن أنطلق إلى سائر الكواكب الأكثر فخامة ووعدا، إلى المجموعة الشمسية، لن تحرقنى، أنطلق إلى كل المجرات، أنطلق إلى ما ◻ أعرف، أريد أن أصل إلى مركز الزمن بالضبط، المركز ◻ يدور، يا خبر أسود، تموت الحركة فى بؤرة الدائرة!! كيف أتنازل عن زخم الحركة! ◻..، سوف اخترع قانونا يحافظ على الحركة فى كل الأحوال، و◻ يحرمنى من حلم وصولى لمركز الكون، يعنى ماذا؟ ◻ أعلم، مركز الزمن الكونى ◻ يوجد فيه عامٌ قادم، و◻ عام مضى، ليس فيه أعياد ميلاد، هل يعنى هذا الخلود؟ يا خبر !! ◻ أريده، ◻ أريد الوصول إلى مركز الدنيا، اللهم إ◻ إذا ....إذا ماذا؟ إذا تغيرت القوانين..

◻ بد أن مركز الدائرة يدور دورانه الخاص فى السر، ربما يدور حول نفسه، ◻، ليس فى المحل، ليس "محلك سر"، و◻ "محلك در"، ◻ أستطيع، هذا عبثٌ ضحكوا علينا به، ضيعتُ عمرى أبحث عن كيان وهمى اسمه "نفسى"،

انطفأتْ وحدها كل هذه السنين، لا تحتاج حتى نفخة رمزية من هواء زفيرى، مِن أكذب الكذب أن تطفئ ما انطفأ فعلا، إحدى وأربعون عاما

قال"البحث عن الذات" قال، الله يخيبك، هكذا أكدوا لنا فى البداية، لست أدرى من هم الذين "أكدوا لنا"، ◻ أذكر، التفكير التآمرى يقول لى إنهم أهل الغرب والشمال، هم الذين جعلونا ندور حول أنفسنا كالنحلة، وهم يمسكون بكرباج التقدم ويُلهبون دوَرَاننا كلما قلت السرعة. عمرى ما حذقت هذه اللعبة: البحث عن الذات، ماذا يا عمنا السادات، الله يرحمك ويغفر لنا ولك، تبحث عن ذاتك فتتكلم عن مصر كما يحلو لك، هىَ مصر كانت ذاتك وحدك يا رجل؟ الله يسامحك، ماذا كان قد جرى لو أنك عقلت ورضيت، وتوقفت، وباركت؟ ◻ أحد يتوقف بنفسه، يظل الواحد يبحث ويبحث ويؤجل ويضحك على نفسه تحت زعم أنه يبحث عن ذاته، وحين يجدها ◻ يكون عنده وقت ليتثبت من أنها هو. تفكير تآمرى؟ ليكن: تآمرى بتآمرى، هذا عن واحد مثل حا◻تى، فما بالك برؤسائنا الأفاضل؟ قال يتوقف قال؟ رؤساؤنا ليسوا بهذه النذالة حتى يتخلى أى منهم عن شعبه بهذه السهولة ويتوقف عن البحث عن ذاته، ربنا يخليهم، على أنفاسنا رحمة بنا من أى احتمال آخر، يبدو أننا لسنا أهلا لأى احتمال آخر.

لكن سيظل عندى ما يمكن أن أفخر به، إننى أفخر بأنى مازلت قادرا على أن أحب، أحب كل من على الكرة الأرضية بلا استثناء، يعيش العرب فى الكل

ما ذنبى أنا فى هذا كله؟

سحبونى من تلك العتمة الرائعة التى كنت أتعرف من خلالها على النور الذى ◻ يظهر فى النور، وضعونى على طريق مسفلت، لمعانه أكثر سطوعا من ضوء الشمس، قالوا لى: هنا سوف تجدها: نفسك، سوف تجدها بعيدا عن غيابات الحدس والتخبط، فرحت ساعتها بكل هذا السطوع القبيح، لم يكن قبيحا آنذاك، كان سطوعا هائلا داخل "سنتيمتر ذاتى"، سرعان ما عشيتْ عيناى من خطف اللمعان، رحت أتحسر على الكيانات الرائعة التى كانت تؤنسنى فى عتمة المحاولة.

أهديت نفسى نموذج الكرة الأرضية بما عليها، وليس بما هى وهى تلفت، هذا ما تخيلتُه، لا أريد أن أتوقف عند الكرة الأرضية؟ كوكب خائب عليه كيانات مغرورة تتصور أن كل شئ خلق من أجلها

هذا الجديد الذى أنا فيه الآن مختلف عن هذا وذاك، هل هو حقا جديد؟.

هو مرعب.

فهو جديد.

هذا التفاؤل أريد أن أصفه بالغباء، لكننى أستطيع، خليط من الآمال والإصرار على يقين غامض، ليكن، هى محاولة لم أخترْها، هى هى، عُرضتْ علىّ قبلا لكننى لم أتبين معالمها، وحين كانت تقترب من وعيى كنت أنكرها، لكنها هذه المرة اقتحمتنى من باب سرى أعرف كيف سهوْتُ عن إغلاقه.

(= "محاولة ماذا بالله عليك؟".

" –هو كلام والسلام".

= "تفكير تآمرى آخر، بل وخرافى أيضا".

" –هل أنا سوف أحاسبك؟ وإذا حاسبتك، هل أستطيع أن أثبت عليك شيئا إ أنك شقى أبله، حتى لو تمرغتَ فى خدر كل شئ لذيذ".

= "حقد هذا ، أم استعلاء أم ماذا؟؟؟".

– "ليكن؛ حقد حقد!! من حقى أن أحقد".

= " أحقد على من؟ أنا أحسن من الجميع هكذا !".

" – يا شيخ ؟!!!!"(.

جندى المرور الواقف على الكشك بعد الكوبرى المؤدى إلى طريق "أبو النمرس" من شبرامنت، يشبه "المكان" الذى يقف فيه تماما، المكان ينقع على شاغله، لست أدرى كيف، ينقص هذا الجندى إ أن يلبس صديرى بأزرار ولبدة.

. أليس هذا هو طريق "أبو النمرس"؟

. ، هذا طريق البدرشين، أبو النمرس من على الكوبرى، فيه تاكس بالنفر، وفيه ميكروباص، وفيه أتوبيس لكن ليست له مواعيد، أنت وبختك.

– كم كيلو حتى أبو النمرس؟

– كيلو ماذا يا سعادة الباشا؟

. ربنا يولى من يصلح.

. ربنا يقويك.

أريد أن أنطلق إلى سائر الكواكب الأكثر فخامة ووعدا، إلى المجموعة الشمسية، لن تحرقنى، أنطلق إلى كل المجرات، أنطلق إلى ما لا أعرفه، أريد أن أصل إلى مركز الزمن بالضبط

. ربنا يسد ما علينا.

. ربنا يسترها معك يا سيدنا الفندى.

ربنا؟ ربنا؟ ربنا؟ بين كل جملة وجملة تكتشف أن شعبنا الطيب يحشر كلمة ربنا فيها، لست متأكدا هل دار كل هذا الحوار بينى وبين الجندى أم ، خيل إلى أننى بررت له الذهاب إلى "أبو النمرس" مشيا على الأقدام بأنه كان نذرا علىّ، أخذنى الرجل على قدر عقلى، لم يدقق.

سوف اخترع قانونا يحافظ على الحركة فى كل الأحوال، ولا يحرمنى من حلم وصولى لمركز الكون، يعنى ماذا؟

"ندرِنْ على لو قلتى أيوه، خلِّى روحى فى إديكى شمعهْ، فى إديكى شمعة...، ماعرفشى إييه فيه بعد كده!، .. تمشى عليها والشمعه والعه، والشمعة والعة، كلاااام جميل وكلاااام ماعقووول ما اقدرشى أقوول حاجة عنه. ...لكن خيال حابيبى المجهووول، مش قيا فيه حاجة منه".

ماذا؟ فيها ماذا؟ لم يسمعنى أحد، لم أنطق، أنا أحتفل بعيد ميلادى، أغنى لنفسى، ومن يعجبه!! الله!!!!.

مركز الزمن الكونى لا يوجد فيه عامٌ قادم، ولا عام مضى، ليس فيه أعياد ميلاد، هل يعنى هذا الخلود؟

الظاهر أن حكاية حبيبى المجهول هذه أكبر من ليلى مراد ومن محمد عبد الوهاب معا، هل يمكن أن يكون سحر الحب هو فى أن يظل الحبيب مجهول، وهل خاب حبى، حبنا أنا وثريا، إ حين انقلب حبيبى المجهول إلى حبيبى المعلوم، هل أحتفظ بالمسافة بينى وبين منال ليظل الحبيب مجهول؟ أنا متأكد أن هناك نوعا من الجهل أوضح من كل معرفة، حين جرجرونى من العتمة المليئة بالدفء المحيط إلى شارع الأسفلت المضئ باللون الأصفر المغير على ضوء القمر الفضى، عشقت العلم، والمادة، والعقل، منتهى العقل، كله بالعقل، كله ظاهر تحت الضوء الأصفر الساطع، كيف يصير جلدنا باهتا هكذا تحت اللون الأصفر الساطع؟، ثم يصفر وجودنا كله فنَذْبُلُ دون أن ندرى؟.

كانت الحسابات شديدة الإحكام، والمقدمات شديدة الوضوح، لماذا كل هذا الوضوح؟ علما بأن النتائج ليست حاسمة و جازمة، ليست جامعة، و مانعة، هذه الأضواء الصفراء التى تضئ شارع العقل الأسفلتى قبيحة مُمْرِضَةٌ، تجعلنى

أرى وجوه كل الناس صفرا، مصابة بالأنيميا الخبيثة، يقولون إن أنيميا البحر الأبيض اسمها الأنيميا الخبيثة، لست أدرى، اختلطت البحار والأنيميا والأصفر والأبيض، الحل فى الجنس الأصفر.

"الصينيون قادمون"، "الإسلام هوالحل"، "حل ماذا؟ جاك حل وسطك، كانت أمّى تدعو على هذه الدعوة حين تغب منى، ولم أكن أفهم ماذا تعنى بالضبط بحل وسطى، أنور عبد الملك يصر على أن يجمع بين الصين والإسلام والرئيس مبارك فى فندق واحد، المفروض أن أقول: فى خندق واحد، غلطة مقصودة، أتعجّب من جرأة عبد الملك هذا . أنا أحبه بالعافية . جرُأته على الحقائق تزعجنى، والفبركة الآمِلة تبهرنى، ربما هى "فبركة" شعورية كما يقولون، لم أفرح باستهانته بالخيبة البليغة التى نحن فيها، من نحن؟ التى أنا فيها، من أنا؟ التى كل الناس فيها، لقد عوْلموا الخيبة البليغة قبل أن يعوْلِموا اقتصاد والمعلومات، أصبح من حق أى إنسان على ظهر الأرض أن يخيب نفس الخيبة البليغة التى يخيبها الآخر مهما بعدت المسافات واختلفت اللغة، ومهما تعددت الأجناس والنظم اقتصادية.

يمضى الوقت سريعا، عكس ما كنت أتصور، لست أعرف كيف وجدت نفسى فجأة بين هؤ ء الناس، زحمة قذرة، الزحمة ليست دائما قذرة، لكن هذه الزحمة قبيحة، لها رائحة الزحمة المنسية المتراكمة على بعضها منذ مدة، رائحة هذا العرق مختلفة، ليس عرق البشر التلقائى الذى ينضح أثناء العمل، هذا عرق لزجٌ مستورد، عرقٌ له لمعة مستفزَّة، عرق صناعى، عرق كنظام العرَق، أذان الظهر حشرجة تقف فى أذنى تسدّها، تتزاحم الأذانات من مساجد متلاصقة، لماذا ينفرُون الناس من الأذان ومن أنفسهم؟

)= اختراع الميكروفونات مؤامرة على الأذان

= "اخرسْ يا تآمرى".(

ضيعتُ عمرى أبحث عن كيان وهمى اسمه "نفسى"، قال"البحث عن الذات"

أكدوا لنا فى البداية، لست أدرى من هم الذين "أكدوا لنا"، لا أذكر، التفكير التآمرى يقول لى إنهم أهل الغرب والشمال، هم الذين جعلونا ندور حول أنفسنا كالنحلة، وهم يمسكون بكرباج التقدم ويُلهبون دوَرَاننا كلما قلت السرعة

كتلٌ من الحجارة المتنافرة الملونة بألوان كالحة ليس لها اسم، رصها بنّاءٌ كاره نفسه ليعمل منها سورا للترعة التى لم تعد ترعة، كأنها مصرف مفتوح للمجارى.

رئيس مجلس هذه المدينة، أقسَمَ أن يكرِّه الناس فى عيشتهم انتقاما من كرهه لنفسه، أراد أن يحجب شاطئ الترعة بهذا الجدار القبيح.

يظل الواحد يبحث ويبحث ويؤجل ويضحك على نفسه تحت زعم أنه يبحث عن ذاته، وحين يجدها لا يكون عنده وقت ليتثبت من أنها هو

للقبح رائحة غثيانية، كما أن للجمال حضورا طازجا، أبحث عن الجمال الذى ملأنى هذا الصباح، فأتعجب أنه مازال موجودا يقاوم لزوجة القبح ورائحته الزنخة، أجده مازال نشطا مبتسما ينتظر انتهائى من هذا الاحتجاج الفاشل بكل هذا الصراخ الصامت.

كيف يمكن أن أظل جميلا على الرغم من مؤامرات التشويه الملاحِق فى كل مكان؟

-3-

رؤساؤنا ليسوا بهذه النذالة حتى يتخلى أى منهم عن شعبه بهذه السهولة ويتوقف عن البحث عن ذاته، ربنا يخليهم، على أنفاسنا رحمة بنا من أى احتمال آخر، يبدو أننا لسنا أهلا لأى احتمال آخر

لست أدرى كم مضى من الوقت لأجدنى فى حضن غابة النخيل على الجانب الآخر، أنا أحبها، أخاف عليها، أخاف علىّ، ليس - فقط - ممن يحيطون بها، أتصور دائما أن التهديد بقطعها، هو تهديد لكيانى شخصيا، أخاف عليها من مجهول آخر يتربص، بكيتُ صامتا فى "وادى فيران" حين شاهدت ما جرى للنخيل هناك، جذوع النخل جفت وتشوهت، فهمت ساعتها معنى: كأنهم "أعجاز نخل خاوية"، عاودنى صوت عم سليمان وهو يرددها وأنا مختبئ فى عباءته، يعاودنى رنين الآية كلما شاهدت سيقان فلاحينا حين يشمِّرون للرى أو للحصاد، نحن نضمُر مثل نخل وادى فيران، تعاودنى نفس الآية أكثر حين أرى "الرجال الجوف"، يا سيدنا "إليوت"، استقبلنى نخيل "أبو النمرس" بشموخ أبىّ، مازال بعافية و الحمد لله، هل هذا بفضل النيل أم بفضل الصعايدة؟ الجيزة صعيد، أى والله، برغم أنف "جامعة القاهرة"، وأبو النمرس صعيد، وأنا صعيدى وقتما أحب، رغم أنف مولدى، أنا أحب أن أنتمى إلى ما أحب، لم أستأذن أحدا، لم يستأذنوا شيخ العرب السيد وهم ينقلون قريتنا - إداريا

جدا- من الغربية إلى المنوفية، فجأة أصبحنا من مواطنى البحث عن السادات، ظلمناه أكثر مما ظلم نفسه. لكنه هو الذى بدأ بظلم نفسه.

 أذكر متى قررتُ أن يكون أصلى هو ما أذهب إليه، وليس ما آتى منه.

من حقى أن أحصل على الجنسية الصعيدية مادمت أنتمى إلى النخل والعرَقَ.

الظاهر أن حكاية حبيبى المجهول هذه أكبر من ليلى مراد ومن محمد عبد الوهاب معا، هل يمكن أن يكون سحر الحب هو فى أن يظل الحبيب مجهولا

أريد أن آخذ تعسيلة هنا فى حضن أجدادى.

أخشى أن أستيقظ فلا أجدنى.

. 4 .

. صباح الخير.

. وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

. ألم يكن هذا أذان الظهر.

. ظُهر ماذا يا سيدنا فندى، نحن قربنا على المغرب، اسم الله على مقامك.

لم يكدْ يكمِل الجملة حتى وجدته يتلفت فزعا حواليه.

. خير مالك؟ مالك؟ هل أزعجتك؟

. مالى؟ القطار لم يحضر بعد، والمزلقان مفتوح، سعادتك شاهد.

. شاهد على ماذا؟

أنا متأكد أن هناك نوعا من الجهل أوضح من كل معرفة

. على أن المزلقان مفتوح.

. طبعا، مادام القطار لم يأت، هل حصل شئ.

. ما هو المصيبة أنه لم يحصل.

. إذن ماذا؟

. و حاجة.

. طيب.. طيب هدِّئ نفسك.

. أنا اسمى جلال غريب.

. خدَّامك عبد المعطى.

. خدام من يا عم؟.

. ما هو لو كان حصلت حاجة كنت استاهل، إنما لم تحصل أيها حاجة.

. تستأهل ماذا؟ فهمّنى. هل حان موعد القطار؟

. حان أم ، لن تمر عبر المزلقان إ بعد القطار.

. يا عم عبد المعطى، أنا أسير على قدمى، لست عربة لتمنعنى، ثم إن المزلقان مفتوح.

. ولو....، طيب علىَّ الطلاق بالثلاثة ما يحصل.

. أنت متزوج؟

. لأ.

. طيب؟.

. أنا حلفت بالطلاق والختمة والمصحف الشريف وكل أيمانات المسلمين والنصارى والكفرة كمان.

. طيب طيب هدّئ روحك.

. أ يمكن أن تكلمهم لى يا سيدنا الأفندى ينقلونى من هنا؟

. أكلِّم من؟

. أى أحد.

. يعنى أروح أقول لهم يا أى أحد انقلوا عبد المعطى؟

. أيوه.

. تحكى لى، يمكن أفهم.

. تفهم؟ باسم الله ما شاء الله، طبعا تفهم ونصف، أ قل لى يا سيدنا الأفندى، أليس كل شئ بأمره؟

. طبعا.

. إذن لماذا؟ ... لماذا إذن؟

. يا عبد المعطى تريدنى أن أشم على ظهر يدى، عذرك معك، لكن إما أن تحكى لى، وإما أن تدعنى أمرّ.

عشقت العلم، والمادة، والعقل، منتهى العقل، كله بالعقل، كله ظاهر تحت الضوء الأصفر الساطع، كيف يصير جلدنا باهتا هكذا تحت اللون الأصفر الساطع؟، ثم يصفر وجودنا كله فنَذْبُلُ دون أن ندرى؟.

لقد عوّلموا الخيبة البليغة قبل أن يعوّلِموا الاقتصاد والمعلومات، أصبح من حق أي إنسان على ظهر الأرض أن يخيب نفس الخيبة البليغة التى يخيبها الآخر مهما بعدت المسافات واختلفت اللغة، ومهما تعددت الأجناس والنظم الاقتصادية.

كيف يمكن أن أظل جميلا على الرغم من مؤامرات التشويه الملاحِق فى كل مكان؟

. بعد القطار.

. بعد القطار، تحكى لى، أم أمر؟

. ا□ثنان بإذن الله.

. هل ستدخل لى قافية؟

. أستغفر الله، وحياة النبى أنا أتكلم جد.

. طيب.. طيب، بعد ما القطار يمر تحكى لى.

. أنا حكيت لما شبعت حكى بلا فائدة.

. ولو....

أغلق المزلقان ومر القطار، وتلكأ جلال فى العبور، وهدأ عبد المعطى...

راح يحكى بعد إلحاح متوسط:

" كان اليوم جمعة، وكنت نائما تمام التمام، وكنت تعشيت عند عمتى مريم ربع فطيرة بحالها، وليس بى أى "حجة". كنا قبل صلاة الجمعة، قل بساعة ونصف، الإشارة علقت، المفروض تنور قبل القطار ما يأتى بثلاث أربع دقائق، أقوم أنا أقفل المزلقان، وأمنع العربات، خمس دقائق فاتوا، والحكاية طالت وهات يا زمامير، وهات يا سباب، وهات يا قلة حياء، افتح يا حمار، وراءنا مصالح، افتح يالوح، وناس بهوات كما تشاء، قلت يمكن أنا غلطان، يمكن الإشارة غلط، قمت فتحت المزلقان نصف فتحة، أنا فتحت من هنا وقبل ما تمر أى عربة، لمحت القطار من هنا، رحت قفلت فى ثانية. كانت القفلة ستأتى على العربة التى كادت تمر، هل فى ذلك شئ؟ بوزها كان سيمر لكنه لم يمر، لم تخدش، ربنا ستر.

. الله نوّر، جاءت سليمة.

. □ العربة جرى لها شئ، و□ أحد مرّ، و□ حصلت أيها حاجة من أصله.

. الحمد لله.

. بس....، من يومها وأنا □ أعرف كيف أتلم على روحى، كل شوية يهيأ لى

إن العربة عدّت، وإن القطار دهسها، ودهسنى، وأنا عارف ومتأكد إنه لم يحدث أى شىء من ذلك.

. هذا هو كل شئ؟

. وهل هناك أفظع من ذلك؟

. الله يسامحك، قدر ولطف يا أخي!.

. هكذا يقولون، كل الناس تقول مثلك، هو سعادتك من أين؟

– من مصر.

. ما هى مصر كبيرة، يعنى من أين فى مصر؟

. يعنى يا عبد المعطى لو قلت لك من أين سوف تفرق معك؟

. أبدا، لكن يعنى، عن إذنك أحسن الإشارة نورت، والقطار الثانى قادم.

–5–

اقتربت من عبد المعطى حتى صرت مكانه، أحطت بما أحاط به مرعوبا، فزعت حتى شعرت أنّ على أن أنصرف حا، أنا أعرف ماذا أفعل أنا أيضا، لم أفهمه في البداية، هو يعيش ما لم يحدث، كأنه حدث، فجأة صدقت مثله أنه حدث، رعبتُ مثل رعبه، كفى هذا، أريد أن أنصرف، ناديته رغما عنى بعد أن مر القطار، سلَّمتُ عليه بحرارة وسألته إن كان يمانع أن أحضر له بين الحين والحين، نتكلم.

. نتكلم فى ماذا؟ هل ستكلمهم لى فى حكاية النقل؟

. حاضر، لكنى أنا أعرف أحدا، و أنا حتى عارف اسمك بالكامل.

. اسمى؟ اسمى بالكامل؟ هذه هى البطاقة.

قال ذلك وأخرج بطاقته الشخصية لتوه، فخشيت أن أنقل اسمه كتابة فيطمع فيما أعرف إليه سبيلا، حفظتُ ا سم من باب المجاملة "عبد المعطى أحمد أبو النجا".

. بصراحة يا عبد المعطى أريد أن أطمّعك، أنا أعرف ناسا مهمين، ولكنى قد أحضر ثانية ربما لأطمئن عليك، عندك مانع؟

لا أذكر متى قررتُ أن يكون أصلى هو ما أذهب إليه، وليس ما آتى منه. من حقى أن أحصل على الجنسية الصعيدية مادمت أنتمى إلى النخل والعرَق.

هذه البنت صورة جميلة مصغرة لكل ذلك معا، تمنيت أن تكون لى ابنة شكلها، كذابة أنا، لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية أن أكون أبا لبنت بهذا الجمال، أنا لا أصلح أبا، مثلى مثل أبى الذى لم أره.

. مانع؟ اسم الله على مقامك، تحضر يا سيدى وقتما تريد، هذه أرض الحكومة، ياليت كان عندى بيت يليق بالمقام، تحضر ونصف.

. ونتكلم.....

. طبعا نتكلم، ما دمت ستحضر، سنتكلم.

تزوجت مرة ولم أنفع، لست متأكدا هل أنا الذى لم أنفع أم هى؟ نحن الاثنان لم ننفع، كنا مثل بعضنا البعض، فلم ننفع لبعضنا البعض

لم أعرف هؤلاء الناس من قبل، مع أن كل حديثا، أحاديثا، كانت عنهم، كنا نتصور أننا أولياء أمورهم، نحن لا نعرفهم أصلا، لم نعرفهم فعلا، وربما لن نعرفهم أبدا.

-6-

قبل أن أنصرف، لمحتُ المرأة التى كان يناديها عبد المعطى أثناء حديثنا بالحاجة وردة، ولم أكن أتابع لمَ يناديها بهذا الإلحاح، ولا ماذا يطلب منها، هى لا تكاد تجلس على طرف أريكة من أرائكها المفروشة بشرائط مصنوعة من قصاصات قديمة حتى تقفز كأنثى النمر التى رأت ثعلبا شهيا، ساعتها لا تكون حاجّة ولا وردة، تكون نمِرة فتيّة متوهِّجة، جمالُها قوىّ لا يستأذن، لم تبلغ الثلاثين، أو كأنها كذلك، صدرٌ نافر دون حامل، فى الأغلب. جلبابها أقرب إلى جلباب الرجال لكن الزركشة على الصدر تميزه، بدت لى أنثى مستكفية بلا رجل، نادت على ابنتها ذات الأعوام السبعة، لم ترد، دخلتُ إليها وعلا صوتهما دون تمييز، خرجت البنت من العشة فى نشاط يقفز حواليها، جميلة، طازجة مثل نسمة الصباح قبل طلوع الشمس قبيل دخول الشتاء، فائرة مثل القيلولة، رائقة متنوعة مثل غسق بعد الغروب، هذه البنت صورة جميلة مصغرة لكل ذلك معا، تمنيت أن تكون لى ابنة شكلها، كذاب أنا، لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية أن أكون أبا لبنت بهذا الجمال، أنا لا أصلح أبا، مثلى مثل أبى الذى لم أره، تزوجت مرة ولم أنفع، لست متأكدا هل أنا الذى لم أنفع أم هى؟ نحن الاثنان لم ننفع، كنا مثل بعضنا البعض، فلم ننفع لبعضنا البعض.

السبعينيون هم نتاج الثورة الحقيقيون، بكل الحماسة، والإخلاص، والخبرة الزائفة والسطحية، والثقلية والنفس القصير

تعرفتُ عليها بالصدفة، والدانا جاران، كانا جارين، هى رأت والدى، أنا لم أره،

أذكره، التقينا بعد ذلك فى ميدان التحرير ونحن نحتجّ معا على الصمت والهزيمة، ثم صنفُّونا سبعينيين، لست منهم، من الذى أطلق عليهم – علينا– هذا ا□سم، كله من السادات، الله يرحمه، □ نحن فهمناه و□ هو وضعنا فى ا□عتبار، أحسن، جاء اليوم الذى يصبح عدم الوضع فى ا□عتبار مزية، السبعينيون هم نتاج الثورة الحقيقيون، بكل الحماسة، والإخلاص، والخبرة الزائفة والسطحية، والثلالية والنفَس القصير، الستينيون الذين يتباهى بهم الناصريون حملتْ بهم مصر وتكونوا قبل الثورة، لماذا استولت الثورة عليهم ونسبتهم إليها؟ لماذا فخروا هم بذلك؟ أكره هذه التقسيمات، □ أنا سبعينى و□ ستينىّ، كانت هناك ثورة، نعم، من ينكر؟ إن كان على الجيش فقد قام بحركته المباركة، الناس ثوَّرتها، ثم تنازل الناس، أو لعل الناس تنوزلوا عن ا□ثنين بخبطة واحدة، عن الحركة، وعن الثورة معا، لم تكن خبطة، واحدة بل خبطة، فخبطة، فخازوقا مغرِّيا، فتلوُّثا، فانفشاخا، فانفلاتا، فوصاية، فتشققا إلى جزر منعزلة ذات سيادة.

الستينيون الذين يتباهى بهم الناصريون حملتْ بهم مصر وتكونوا قبل الثورة، لماذا استولت الثورة عليهم ونسبتهم إليها؟ لماذا فخروا هم بذلك؟ أكره هذه التقسيمات، لا أنا سبعينى ولا ستينىّ

قررتُ أن أولد اليوم كما أريد، أن أفعل ما يبرر استمرارى عاما آخر، □ أريد أن أرجع لبيتى، لست هناك، حين أذهب هناك □ أجدنى، □ بديل عن السفر، أحاور الجبال وأسمع همس بحر خليج العقبة، الأوتوبيس يقوم فى منتصف الليل، ماذا أعمل من هنا حتى منتصف الليل؟ الثوار يصنعون الثورة و□ يعرفون من يرثها، سوف أصنع ثورتى الشخصية دون أن أعلنها، ليس لى وريث شرعى، و□ غير شرعى، "أنا مسؤول عن كل لحظة، من الآن فصاعدا"، "حلوة هذه !! كيف؟".

الثوار يصنعون الثورة ولا يعرفون من يرثها، سوف أصنع ثورتى الشخصية دون أن أعلنها، ليس لى وريث شرعى، ولا غير شرعى، "أنا مسؤول عن كل لحظة، من الآن فصاعدا"،

= "لن أعلن عن ثورتى الخاصة حتى □ يستولى عليها غيرى".

أخاف أن أرجع إلى منزلى، أخاف من رنين الهاتف، يصرون على تهنئتى، بـ "ماذا" بالله عليهم؟ حتى لو رفعتُ السماعة وأغلقتها دون أن أرد فمن يضمن لى أنهم □ يطبُّون علىّ ليطمئنوا!!. أنا أحب الناس و□ أكره طبعهم، الناس بغير طباعهم ليسوا ناسا، لكن □بد من أن أحافظ على مسافةٍ ما، تتسع المسافة أم تضيق؟ □ أعرف، لكنها ضرورية كى أستطيع أن أتنفس.

كيف استطاع عبد المعطى، ووجه الصبية بنت الحاجة وردة أن يلغيا المسافة بينى وبينهم هكذا دون استئذان، هل اقتربوا هم أكثر؟ متى يختفون مثل غيرهم؟ يارب لمَ هذا؟ أعجب شئ هذا اليوم أننى لم أتعب بعد، الحاجّة وردة لم تكتف بإلغاء المسافة.

"لن أعلن عن ثورتى الخاصة حتى لا يستولى عليها غيرى

أنا أحب الناس ولا أكره طبعهم، الناس بغير طباعهم ليسوا ناسا، لكن لابد من أن أحافظ على مسافةٍ ما، تتسع المسافة أم تضيق؟ لا أعرف، لكنها ضرورية كى أستطيع أن أتنفس

 أحمل ساعة، قصدا، قررتُ تجاوز الزمن، قال يعنى، لو أذان العصر الذى نبهنى إليه عبد المعطى لما عرفت أن اليوم كاد ينقضى، وحتى إذا قررتُ السفر هذه الليلة إلى دهب فى أوتوبيس منتصف الليل فسوف أفعلها دون حقيبة، سوف أظل هكذا بكامل ملابسى حتى أعود، تحسستُ جيبى ووجدت المحفظة، اطمأننت، لكنى خفت أن أفتحها لأعد ما بها، أنا على يقين أن بها ما يكفى أجرة الأتوبيس ذهابا وعودة، أنا أكاد أصرف شيئا هناك، حين أعود سوف أبدأ ما انتويته.

لم يعد هناك ما يسترون به عوراتهم حتى يحتاج الأمر إلى جهد الصحافة لتعريهم، لم أعد أصلح لها، ولم تعد تصلح لى، لم تعد صحافة، ما معنى الصحافة؟ هل لها لزوم؟ اعتراف فضيلة، لم تعد لى مهنة، هى التى استغنتْ عنى، معها حق، ثريا أيضا استغنت عنى، منال تقترب أصلا مع أنها الأقرب، هى أيضا معها حق، لكنها مثلى تدفع الثمن وحدها، كلهم معهم حق،

(= "دعك من حكايات الحق والواجب، بد من عمل".

= "آفتنا– آفة البشراليوم،". ...

="أهكذا خبط لصق؟! آفة البشر؟ كل البشر.!!

=. طيب آفتنا نحن، فقط – آفتنا: ليست السياسة و اقتصاد، إن آفتنا . وربما آفة العالم....".

= "واحدة واحدة يا جدع انت، بطل خطب".

= "آفة العالم هى فساد اللغة".

= " يا شيخ ؟!").

لم تعد اللغة الحاضرة قادرة على برمجة الدماغ بما يؤكد ما يميز الإنسان، أنا أحب اللغة، اللغات، أعرف أسرار لغات الحاسوب (أكره هذا ا□سم بالعربية لأنه غير دقيق، سوف أسميه الكمبيوتر بعد ذلك.(

نسيت نفسى وأنا أتمادى فيما □ طائل وراءه فصحت فىّ:

"ما هذا !!؟؟ اللـه!!" .

ومع ذلك واصلتُ: أنا تعلمت اللغة قبل أن أتعلم الكلام، كان عمى سليمان يحتوينى داخل عباءته وهو يقرأ القرآن، ربما بدأ هذا وأنا لم أبلغ الثانية، نشأتُ وأنا أهتز مع تمايل جسده وهو يهدهدنى ويقرأ، حتى لما كان يخفت صوته كانت تصلنى الأنغام كأنها هى هى، فتتخلق الألفاظ كما تشاء دون تمييز، ملأتنى هذه اللغة مشتملة، صوت عمى سليمان، دفء عباءته، الترتيل، الألفاظ، أصداء المعانى تصلنى دون ألفاظها، هل يمكن؟

أحلم أن أقدِّم خبرتى إليهم، أريد أن أنقل تجربة معنى أن يكون اللفظ صورة تبعث الأنغام، □ رمزا يترجَم إلى رموز مثله، هكذا أوصَلَ لى عمى سليمان المصحف، سوف يسخر السبعينيون منى، أنا لست منهم، أنا أصغرهم، أنا منهم، أغلب السبعينيين الذين أعرفهم تزوجوا وأنجبوا أو□دا وبنات، □بد أن أو□دهم فى حاجة إلى من هو مثلى، لن أقول لهم إننى أهدف إلى تنظيم الدماغ ليصبح صالحا للعمل لما خلق له بتجويد لغته، لن آتى بسيرة القرآن فأنا أعرف حساسيتهم وسخريتهم وغباءهم، كل ما سأعلنه أننى سوف أجعل أو□دهم ممتازين فى اللغات والكمبيوتر، لغة العصر، سوف أضحك عليهم مثلما أضحك على نفسى.

من حقوق الإنسان الأساسية حق خداع النفس، لم أعد أطيق السبعينيين، لكننى أحب أو□دهم وبناتهم، أحبهم حبا مختلفا، عن حب أهلهم لهم، لست أدرى كيف.

"أنا أحب الأطفال".

لم يعد هناك ما يستترون به عوراتهم حتى يحتاج الأمر إلى جهد الصحافة لتعريهم، لم أعد أصلح لها، ولم تعد تصلح لى، لم تعد صحافة، ما معنى الصحافة؟ هل لها لزوم؟

لم أحزن للطلاق، كان القرار واضحا، كان أبسط وأصدق من قرارالزواج ذاته، ضاعت الفرصة كى يكون لى طفل أفرح به، أجرِّب فيه، أعطيه ما أتصور، يبدو أننى عرفتُ بحدس خاص أن طفلى سوف يكبر ولن يعود طفلا، كما أنه لن يعود طفلى، ما الفائدة؟ أطفال الناس هم الأضمن، هم يتجدَّدُون باستمرار، كلما شبَّ جيل عن الطفولة خرج جيل جديد يعلن استمرار الحياة، أنا أحب أن أعيدُ ما أقول، و أحب التدريس، و أعرف كيف سوف أطلب أتعابى، خصوصا من أمثال أهل أطفال هؤ السبعينيين، أنا أعرف غيرهم، مصيبة المصائب لو أهدونى كتبا من تأليفهم بد من الأتعاب، سأشترط المعاملة الرسمية، يكفى أن أتعابى أقل، وأننى مخلص،لست ناقصا كتابتهم، "كتاباتهم أحالت الألفاظ إلى نيازك شاردة تبحث عما يجذبها إلى بعضها البعض".

لو تعد اللغة الحاضرة قادرة على برمجة الدماغ بما يؤكد ما يميز الإنسان، أنا أحب اللغة، اللغات، أعرف أسرار لغات الحاسوب

(= "اسم النبى حارسك وضامنك".

= "اخرس أنت– أنت مالك؟ إيش فهِمك؟ "كل المسألة أننى عقلت دون أن أتنازل عن ثوريتى".

= " يا شيخ؟".

= " تحوير فى التكتيك مع احتفاظ باستراتيجية".)

أنا تعلمت اللغة قبل أن أتعلم الكلام، كان عمى سليمان يحتوينى داخل عباءته وهو يقرأ القرآن، ربما بدأ هذا وأنا لم أبلغ الثانية، نشأتُ وأنا أهتز مع تمايل جسده وهو يهدهدنى ويقرأ

أما الصحافة فسوف أرسل لها المقال تلو المقال، وهم وضميرهم ومدى حاجتهم إلى هذا النوع من رص الكلام؟ لم تكن عندى فرصة للنشر أصلا، أنا لم أتم عملا أبدا، وحين أتمه سوف أواجه الصعوبة التى يواجهها أى كاتب.

لو كانت لجنة الأحزاب قد أجازت حزب السبعينيين انضممت إليه من فورى دون أى شرط مسبق، ذلك لأننى واثق أنهم سوف يرفتونى بعد اجتماع الرابع على الأكثر، تماما مثل الصحافة وثريا، كلهم يرفتونى؟ أنا جاهز للرفت طول الوقت.

آه لو سمحوا بحزب للأطفال دون الثانية عشرة ! سوف أحفز العيال الذين

أدرس لهم حتى يكوّنوا حزبا أكون مستشاره، ولا يبقى إلا تغيير الكون، وحين أعثر على الكون وصاحبه المسامِح سوف أشير عليه كيف يغيّره، وسوف يعلم أننى كنت أساهم فى إعداد الأولاد والبنات بالطريقة التى تسمح له أن يعيد بناءه كما يشاء.

(= "خوجَهْ"؟)

أهكذا ينتهى كل الكفاح والحماسة وحلم نضال المنشورات، ومشاريع الصحف القبرصية، ينتهى كل هذا إلى أن أكون خوجة؟ وخوجة خصوصى؟ خوجة هاوٍ؟

ياترى هل سأجد زبائن أم لا؟

من الذى سيصدق أننى أحب الأطفال كل هذا الحب؟ وأننى أتصور، دون مبالغة، هكذا أقول لنفسى، أن مشروعى هذا لا يعنى أننى أتراجع؟ لا يعنى أننى أصبحت مرتزقا "قطاع خاص"؟ من الذى يصدق أن الحفاظ على عقل طفل واحد من التشويه هو إسهام معجز فى الظروف الحاضرة؟

أنا لا أعرف أطفال اليوم، أصاب بالفزع المشوب بالحسرة وأنا أشاهد أحيانا برامج الأطفال فى التليفزيون المصرى، كأن المسئولين عنهم لم يكونوا هم أنفسهم أطفالا فى يوم من الأيام، أخاف أن أكتشف أنى مثلهم، هل أنا كنت طفلا، أم أننى أتعرف عليه الآن، من أدرانى أن الأطفال الذين سوف أدرس لهم سوف يكونون أطفالا ؟!! مثلى؟!!

=)مثل من؟!

=لا آحد مثل آحد(.

-7-

عزبة "البكباشى".

لم أسأل يوما من هو هذا البكباشى الذى سُميت هذه العزبة باسمه، ليس جمال عبد الناصر على أية حال، الرئيس ناصر غير العقيد القذافى، صحيح أنه

لن أقول لهم إننى أهدف إلى تنظيم الدماغ ليصبح صالحا للعمل لما خلق له بتجويد لغته، لن آتى بسيرة القرآن فأنا أعرف حساسيتهم وسخريتهم وغباءهم

كل ما سأعلنه أننى سوف أجعل أولادهم ممتازين فى اللغات والكمبيوتر، لغة العصر، سوف أضحك عليهم مثلما أضحك على نفسى.

من حقوق الإنسان الأساسية حق خداع النفس، لم أعد أطيق السبعينيين، لكننى أحب أولادهم وبناتهم، أحبهم حبا مختلفا، عن حب أهلهم لهم، لست أدرى كيف

لم يرقِّ نفسه إلى رتبة مشير مثلما فعل لصاحبه، اكتفى بلقب الرئيس وأطلقنا نحن عليه اسم التدليل "الريّس"، فأى بكباشى هذه عزبته؟ لم أسأل ولن أسأل، تعبت، الفاكهة مرصوصة على الشوادر، والبطيخ بوجه خاص يأخذ مساحة أكبر من كل أنواع الفاكهة المتراكمة، والقهوة صغيرة، والجلوس عليها خليط من السائقين، والعمال، والعاطلين، والصبية متعددى الهوية، هذه هى، هنا سأحتفل بمولودى الجديد.

وجهى غريب، لكننى أعرف أن أولاد البلد كلهم ذوق، سوف يتركوننى فى حالى مالم أنكشهم، هنا يولد "خُوجَة" خصوصى يحمل اسما حركيا يشبه اسمى، هو اسمه جلال أيضا، لكنه ليس هو مازال يكتب للصحافة من على مسافة، يترك مسئولية نشر ما يكتب لضمير العصر.

حلوة "ضمير العصر" هذه، وهو سوف يعلم الأطفال ما يعلم، وما يعلم

يبدو أن هذه الليلة لن تنتهى، لنفرض أن الأطفال تحركوا فى تلك المساحة الهائلة من الجهل العظيم، ثم لنفرض أنهم حاولوا معى أن نبحث فيما نعرف بجد، أنا وهم، هم وأنا، ولنفرض أن أهلهم بلغهم ما نفعل، بلغهم أننا نفخر بالجهل لنخاطر بالمعرفة.

أنا لا أحب أن أعيدَ ما أقول، ولا أحب التدريس، ولا أعرف كيف سوف أطلب أتعابى، خصوصا من أمثال أهل أطفال هؤلاء السبعينيين، أنا لا أعرف غيرهم، مصيبة المصائب لو أهدونى كتبا من تأليفهم بدلا من الأتعاب

)= "لن يرحموك حتى ولو كانوا سبعينيين".)

"أعرف، وأحذر منهم أكثر".

بد أن أعمل حسابى وأن أحتفظ بأغلى منطقة عندى بعيدا عن التناول، طول عمرى أفخر بقدرتى على تحمل جهلى سرا، أعرف كيف أخفيه وراء عدد من الأسماء والأحداث والأرقام أحيانا، لكنه ثروتى الحقيقية، لم أنجح فى أن أنتمى إلى عقيدة سابقة التجهيز، خصوصا عقيدة السبعينيين الذين ليس لهم عقيدة.

(= "بطل افتراء".

= "طيب !! . قل لى: ما هى عقيدتهم بالضبط؟ خصوصا بعد ما كان"

= "تريد أن تعرف عقيدتهم لتتنكر لها كالعادة، إفرح يا سيدى، لم تعد لهم عقيدة"

= "أعرف لكنهم راحوا "الناحية الثانية".

= "أية ناحية؟.

= "أنت مالك أنت؟"(.

لم تكن عندى فرصة للنشر أصلا، أنا لم أتم عملا أبدا، وحين أتمه سوف أواجه الصعوبة التى يواجهها أى كاتب

أحضر صبى القهوة (ذو الخمسين عاما) كوب الشاى "الذى هو"، أحضرهُ "على ميّهْ بيضا"، وتبادلنا التحية وفرحت فرحة خفية أنه لم يقل كل سنة وأنت طيب، من أين له أن يعرف؟ تحية واردة من أوﷺد البلد حتى بدون مناسبة، بالرغم من ذلك كنت سأنزعج منها، حتى وهو ﷺ يقصد.

. نوّرتنا يا سعادة البيه.

. شكرا.

. أهلا وسهلا.

وضع الشاى وتركنى وهو يبتسم أدبا بلا تصنع.

ارتشفُ الشاى رشفة رشفة، عمل جوهرى ليس كمثله شئ، هكذا يكون شرب الشاى، كنت دائما أشربه وهو فى خلفية الكتابة، أو القراءة، حتى أننى كنت أنسى إن كان شايا أو قهوة أو ﷺ شئ أصلا، الآن: أجد أن شرب كوب من الشاى هكذا يمكن أن يكون محوَر الكون، هكذا تملأ الحياة وعى النمل، والنحل، والصقور والصراصير، وكلاب الزينة، وذئاب الجبل.

آه لو سمحوا بحزب للأطفال دون الثانية عشرة ! سوف أحفز العيال الذين أدرس لهم حتى يكوّنوا حزبا أكون مستشاره، ولا يبقى إلا تغيير الكون

ياه !! هل عشتُ كل هذا العمر بمنطقٍ مقلوب؟ كان ينبغى أن أعرف مِن البداية أن "الشاى هو الحل".

. خيرا يا سعادة البيه تأمر بحاجة؟

. ﷺ، أبدا، شكرا.

. يخيل لى أن سعادتك ناديتنى، أو لعلي سمعت خطأ، هل سعادتك كنت تضحك وﷺمؤاخذة؟

. تذكرت نكتة!.

. والله يظهر أنك ابن حظ، مع أنى أول ما شفتك صعبت علىّ من تكشيرتك، قلت لن تفك آبدا، فلما سمعتك تضحك، فرحت، أهلا وسهلا، فُكَّهَا وحياة النبى، فكها ربنا موجود.

لم أقل له لماذا أنت متأكد هكذا؟

فرحتُ به حتى هممت بتقبيله، ولم أفعل، والحمد لله لم يبد علىّ ما يشيرإلى مثل هذا الاحتمال، وعلمت أن اسمه "صابر".

من الذى يصدق أن الحفاظ على عقل طفل واحد من التشويه هو إسهام معجز فى الظروف الحاضرة؟

-8-

عدلت عن السفر الليلة.

أحتمل الجلوس فى الكرسى وحيدا ثمانى ساعات، يفرض السائق علينا أفلاما حسب مزاجه، أو يفرض علينا صوت مقرئ متحشرج بعد منتصف الليل، أو كليهما.

أجدُنى أتوجه إلى ميدان التوفيقية بدلا من سوق السلاح، إلى عم إدريس، لا مانع، ليكتمل الاحتفال.

لابد أن أعمل حسابى وأن أحتفظ بأغلى منطقة عندى بعيدا عن التناول، طول عمرى أفخر بقدرتى على تحمل جهلى سرا، أعرف كيف أخفيه وراء عدد من الأسماء والأحداث والأرقام أحيانا، لكنه ثروتى الحقيقية

أجده، أفرح أنه فى إجازة، أحسن، لا أحد يعرفنى، أحسن جدا، اريد أن أأتنس بنفسى، سوف أفكِّنى فأكون كثيرا.

الزاوية البعيدة مظلمة، والنادل الجديد يخدمنى وهو يتصور أننى زبون جديد.

أتمادى دون رغبة حقيقية وأصل إلى الدرجة التى أضمن فيها أن أعود للمنزل بأمان، من ذا يستطيع ضبط ذلك بعد عبور خط الوسط؟

أعود للمنزل متمالكا نفسى، أو هكذا أتصور.

أجد نورا مضاء يتسحب من تحت عقب الباب، أنا لم أتركه كذلك.

أذكر.

– **[1]**يحيى الرخاوى: رواية "ملحمة الرحيل والعوْد" الجزء الثالث من ثلاثية "المشى على الصراط" (الطبعة الأولى 2007، الطبعة الثانية 2017)، والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم

للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، وهذا هو الرابط . www.rakhawy.net

الإثنيـــن 23-07-2018

العدد: 3978 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى

(من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد")

ستتفتح آفاقهم لغويا، بما يترتب به الوعى، فيصبحون قادرين على تجاوز ما أعرفه شخصيا، المدرس الناجح هو الذى يساعد تلميذه على تخطيه

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية" **ملحمة الرحيل والعوْد** [1] "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى **الجزء الثالث** :من ثلاثية" **المشى على الصراط.**"

وهذا هو الفصل الثالث

"ميدان التوفيقية"

-1-

"ما لهذا الرجل هكذا؟ ما كل هذا الذوق المهذب؟ لماذا يبدو متعجرفا جشعا؟ لمَ يبدو دمثا رقيقا هكذا؟ كان جلال جاهزا لتصنيفه الناحية الأخرى، ولم يكون كذلك؟، ذهب الزمن الذى كان جلال يصنف فيه كل ثريٍّ على أنه متعجرف مستغل بشع، الأثرياء طيبون أيضا أحيانا، والفقراء أنذال أحيانا، بل غالبا، مضطرون أو مختارون، نحن نتكلم فى الحاصل.

كان جلال يتوقع . على الرغم مما قالته منال . أن يجده تاجرا بدينا يضع كرشه أمامه همَّ له إ المكسب والمضاربات، وربما النصب على من يقع فى يده من الأثرياء الجدد، أو أبنائهم المجددين سياراتهم من باب الضجر والمعاصرة.، راح يكمل حديثه فى الهاتف:

" أبدا، أنا سوف أتصل بهم شخصيا، سوف أسوى كل شئ، المهم، آخر فرصة بعد غد، سواء عن طريق البنك أو عن طريقنا مباشرة".

وضع أمين عبد الحكيم السماعة، ومر بيده على رباط عنقه برفق دون زهو، كان السواد حول عينيه يشير إما إلى إرهاق مزمن، وإما إلى سهر مؤقت، كان معا رشيقا، تستطيع ملامحه أن تبدو طيبة فى أى وقت بدرجة كافية، اعتذر لجلال أنه جعله ينتظر.

. أهلا وسهلا، فعلا أنا أحتاج إلى جهودك، و.. وعبقريتك كما أفهمتنى منال هانم، أولادى فى حاجة إلى إنسان عصرى يربط بين خئولتهم وجذورهم..، يقولون إنه بد من عبور فجوة اختلاف الثقافات، أليس كذلك؟

يتكلم عن اختلاف الثقافات وعن الجذور!!. ما هذا كله، الرشاقة التى ميزت عوده ورباط عنقه ليست مختلفة عن رشاقة ألفاظه.

. عبقرية و يحزنون، المسألة أن "منال" ترى فى مشروعى أفكارا تفاؤلية عن المستقبل أكبر من توقعاتها، أنا أتصور فعلا أنه إذا أخذ الأولاد فرصتهم فسوف يتغير العالم.

. العالم مرة واحدة؟

. وما العالم إ مجموع ناس كانوا أطفا.

. آه صحيح، تصور أن هذه البديهية تغيب عن أكثر الناس، المهم: أنا لى بنت فى الرابعة عشرة وولد فى الثانية عشرة وبنت أصغر فى الرابعة، جاءت خطأ هذه الأخيرة، كما يمكن أن تستنتج، أمهم ألمانية، بد أن منال أخبرتك، وهم يقضون شهرين من كل عام عند أهل أمهم، وعلى الرغم من اختيار أمهم

الواضح، فإنها لم تتخلّ عن أهلها، و عن أملها فى تحقيق هذه المعادلة.

.... هل تتابعنى؟

أفاق مما يشبه السرحان، ضبط نفسه متابعا كل التفاصيل بكل دقة، على الرغم من أنه لم يكن يدرك ذلك.

. أفهم، أفهم، و أتعجب، أفهم موقف أمهم تماما لكن اسمح لى، ما هو موقف حضرتك؟

. موقفى؟ موقفى ظاهر من قبولى مساعدتك للأو د.

. ليست مساعدة تماما، هو مشروع.

. سمِّه كما تشاء، مشروع مشروع، أنا أحترم خبراتك المتعددة التى ذكرتها منال، ومحتاج لها بشكل أو بآخر على الرغم من تسميتك لما تنويه باسم "مشروع"، بالمناسبة، إذا كان الأمر كذلك، هل أعددتَ له . بصفته مشروعا . دراسة جدوى؟

إن قلب نظام الحكم، أهون كثيرا من قلب نظام عقل طفل، أو قل : من الاحتفاظ للطفل بنظام عقله معدولا

قال ذلك وهو يبتسم نصف ابتسامة، فاحتار جلال، أهى سخرية أم استفهام جاد؟

. طبعا، يوجد مشروع بدون دراسة جدوى حتى لو لم نعلنها، حتى لو لم نذهب لبيت خبرة، حتى لو لم نملأ أوراق القرض اللازمة لتقديمها للبنوك، يوجد مشروع بدون دراسة جدوى.

سُرَّ جلال من نفسه وهو يرد بهذه الطلاقة.، إن كان تساؤل صاحبنا سخرية فقد سخر بالمقابل، وإن كان جدا فقد قال كلاما جادا، واحدة بواحدة.

. وبماذا تعِدُ دراسة جدوى مشروعك؟

. أحيانا نستنتج الجدوى من انعدام البديل.

. أفهم!.

. حين يوجد حلٌّ آخر، تصبح إيجابيات الجدوى حتمية؛ أو علينا أن نجعلها كذلك.

مال أمين بكرسيه المتحرك قليلا إلى الوراء وحاول أن يخفىَ ابتسامة إشفاق وراء وجهه الطيب، بدا كأنه يفكر جديا فى الكلام برغم رفضه الواضح من حيث المبدأ، كما بدا لجلال أنه فاهم، ومتعاطف، بل ومهتم ، هل كان إسقاطا من جلال؟

. أريد أن أحبط أحلامَك، لكن المسألة –باختصار– تعتمد على ما سوف تقدمه للأولاد؟

. سوف تكون الوسيلة هى اللغة، أتقن ثلاث لغات، بالإضافة إلى مهارة خاصة فى لغات الكمبيوتر وقدراته، والمسألة فى تقديرى أن هذا هو السبيل لتنظيم الدماغ.

(تعمد أ يذكر القرآن، احتياط واجب).

. تنظيم ماذا؟

. المخ، التفكير السليم، المنطق البسيط، كل هذا تلوَّث بتشوّش اللغة.

. أكاد أربط جيدا، المهم، الأولاد سوف يتقنون اللغات التى سوف تدرسها لهم.

. وأكثر.

. ماذا تعنى "وأكثر" هذه؟

. يعنى ستتفتح آفاقهم لغويا، بما يترتب به الوعى، فيصبحون قادرين على تجاوز ما أعرف شخصيا، المدرس الناجح هو الذى يساعد تلميذه على تخطيه.

. يترتب به ماذا؟ تصعِّب الأمور علىّ هكذا، أرجو أن تساعدهم بالطريقة المناسبة، منال تثق فيك.

ثم أردف:

. تربكنى من فضلك بهذه الألفاظ الضخمة، درِّس للأولاد كما تشاء، والنتائج سوف تقول الباقى.

. هذا هو، هذا هو تماما، بد أن نتفق على محكات قياس النتائج.

. محكات؟ أية محكات ؟ المحكات هى درجاتهم فى المدرسة طبعا.

. آه طبعا، هذه هى الواجهة، لكن أملى أبعد من ذلك.

. ليكن، أنا سوف أكتفى بالواجهة، وأنت وأمهم لكما كل ما هو أبعد من ذلك.

. عندك حق، هذا الكلام سابقٌ لأوانه، لنبدأ، ثم نرى.

. .. هذا كل ما أرجوه، فمتى تبدأ؟ ومع أى من الأو□د؟

. أبدأ حا□.. أعنى لقد بدأنا فعلا، فإن كان □بد من ا□ختيار فمع الأصغر، ما اسمها؟ أو مع الجميع إن شئت.

تعجب أمين وحاول أن يخفى دهشته، وذكّره بأن الصغرى عندها أربع سنوات، ولم يقل له جلال إن الأصعب أسهل، وأن الأصغر أقرب، وأننا نحن الذين نصعّبها بما نفعل بهم وفيهم، وأنه بدأ مع عمه سليمان، داخل عباءته قبل هذه السن، ربما.

أردف أمين:

. بصراحة، أنا أفضل أن تبدأ مع الثلاثة، بالشكل الذى تراه.

كان جلال مازال متعجبا من المفاجأة التى جعلته يقابل هذا الرجل، ما كان يظن أن أى تاجر سيارات يمكن أن يكون هكذا أصلا، أفاق من دهشته الممتدة وقد تحرك الكرسى المتحرك برقة ربما إيذانا بانتهاء المقابلة، سارع با□ستئذان والشكر، لكنه تذكر متعجبا وهو يفتح الباب.

– لم نتفق على موعد.

يبدو أن "أمين" قد فوجئ هو الآخر أنهما لم يحددا الخطوة التالية على الرغم من كل هذه الحماسة والرغبة المشتركة، ومساحة التفاهم البادية، وا□حترام المتبادل، وبد□ من أن يحدد ميعادا واضحا أجاب:

– سوف أتحدث مع منال وهى ستتصل بك.

شكره جلال مغمغما وانصرف مسرعا.

أى صنف من البشر هذا ا□نسان؟ هل تردَّد؟ هل تراجع؟ هل اقتنع؟ هل

ربما أرادت أن توثق العقد بهذا الطفل الذى رفضته ورفضتها بمجرد أن علمتْ بالخبر، قررت الانفصال فورا، لا أنكر أننى يخطر على بالى أن أراه أحيانا، تقول أمه إنه شبهى فعلا، أو شبهى جدا

اكتشف جنونه؟ كان واضحا وجاهزا ومرحبًا، فلماذا التأجيل؟ ثم إن جلا راح يحمد الله على التأجيل، فهو ليست عنده أية معالم محددة لمشروعه، تنهد عميقا فرحا بهذه الفرصة من الوقت لتقاط الأنفاس، إذْ ماذا لو أنه حدد الميعاد"غدا" مثلا؟ إنه يعرف برنامجا محددا، وليست عنده كتب للصغار، و فكرة عن المقررات، و كيف يبدأ، و عن ترتيب الخطوات و سرعة إيقاع الجرعات، وليس معقو أن يشترى عباءة سوداء يحتوى فيها البنت الصغرى ليرتل لها القرآن مهتزا كما كان يفعل معه عمه سليمان، يرتل ماذا وهو لم يمسكه منذ ربع قرن؟ ثم إنه..، يا خبر لو عرفوا؟ بد أن يبادر بشراء كتب فى التربية، فى مناهج التدريس، هل تساعده ثريا؟ أى ورطة؟ لم يكن يتصور حين حادث منال أن الأمر سوف ينقلب جدا هكذا، وبهذه السرعة، 4 سنوات، 12 سنة، 14سنة، إن قلب نظام الحكم، أهون كثيرا من قلب نظام عقل طفل، أو قل : من احتفاظ للطفل بنظام عقله معدو، فما بالك بطفل أخواله فى ألمانيا، وأقدام أبويه منغرسة فى مصر الجديدة، مصر الجديدة القديمة، ميدان اسماعيلية، هكذا العنوان مبين فى بطاقة أمين عبد الحكيم.

-2-

كادت منال تستلقى على قفاها ضاحكة وهو يعيد عليها الحديث الذى دار بينه وبين أمين عبد الحكيم، أدرك جلال حقها فى ذلك، كان مازال متعجبا أن يكون هذا الإنسان الوسيم الدمث الرفيع هو تاجر سيارات.

. تصورى يا منال، لم يكلمنى عن عمله ونحن وسط عشرات من السيارات الفاخرة، صغيرة وكبيرة، وأنا كما تعلمين أعرف الفيات من الكاديلاك، تصورى أنه لم يلمّح فى الكلام إلى عمله إطلاقا، من باب التجارة، و من باب التباهى، و من أى باب، صحيح أن منظرى يصلح زبونا لشراء دراجة، لكن أيضا!!!.

. هل كنت تريد أن يعرض عليك "شبحا" مثلا؟

. ▯ تجرجرينى للنزال، يبدو أنه يفضل "الخنزيرة".

. أنتَ وأبوك الخنازير.

. بدأنا!!؟ ماذا قال لكِ عنى، ▯بد أنه حدثك بشكل ما.

. قال ما قال، وضحكْنَا كثيرا، لقد طلبنى من فور خروجك من عنده.

. ضحكتم!!! ماذا قال لك؟

. لن أقول لك.

. أنت تعرفيننى، لست لحوحا، ولكننى أريد أن أعرف، أريد أن أعرف بجد؟

. كان معجبا بآرائك جدا.

. معجبا بها أم متعجبا منها؟

. اطمئن، لم يقل عنك إنك مجنون، أنا فقط التى تعرف هذا السر.

. تمزَحين؟ أريد فعلا أن أعرف انطباعه.

. ▯ أخفى عليك أنه ارتاح لك، بل ربما أحبَّك، ماذا فيك يا جدع انت يخدع الناس هكذا؟

. بالذمة أحبنى؟

. مالك كالطفل الذى يسأل عن رأى "أبله تماضر" فى أدائه الواجب، طيب سوف أغمُّك، لقد قال إنه خائف أيضا.

. يخاف منى؟

. يخاف منك، أو من نفسه، أو من أمهم، يخاف والسلام، أى عاقل فى هذه الأيام ▯بد أن يخاف على أو▯ده، أليس كذلك؟

. ليست عندى فكرة، ليس عندى أو▯د.

. ▯ ياشيخ!؟ أليس أو▯د العالم كلهم أو▯دك؟

. ▯ تعزّينى هكذا يا منال، أنت ▯ تحتملين التعرية.

. وهل أنت تستأذن وأنت تقتحمنى فى أى وقت؟

كان قد نسى . ليس يدرى كيف . أن "منال" هى "رفيقة" أمين بشكل أو بآخر،

لو كان بيدى.. ولكن لا شئ بيدى، كل شئ بيده هو على الرغم من ثبوت سوء تصرفه طول الوقت، لمن أكتب هذا الكلام؟ لى؟ طبعا لا، لمن إذن؟ أصبحت الكتابة نوعا من القهر المنتظم.. ليكن

لم يتذكر ذلك أبدا، □ وهو يتحدث معه، و□ وهو يتحدث معها الآن، كيف لم يخطر على باله ذلك؟ ثم ما الذى جعله يخطر على باله الآن؟ هى التى فتحت الباب، فانفتح على مصراعيه، ولم يستأذن مادام الأمر كذلك.

. هل صحيح يا منال أنك تنامين معه؟

ضحكت دون خجل، ودون وقاحة.

. هو الذى ينام معى.

. أعرف، أعرف.

. تعرف ماذا يا حمار؟

. والله العظيم □ أقصد، أنتِ التى قلت.

. عظيم فى عينك، دعنا من هذا الآن ونتكلم فى مشروعك.

. تعلمتُ من صديقك أ□ أسميه مشروعا، وأن نقصر حديثنا على اللغات والكمبيوتر والدروس حتى □ يخاف هو، و□ أشطح أنا.

. ليكن، ماذا نويت؟

. النية محلها القلب.

ضحكا معا ووضع كل منهم سيف المبارزة فى غمده.

هل حقا هو يحب منال؟ وهل هى تحبه؟ إذن لماذا □ يغار عليها؟ هل هذا هو آخر ما حاق بالمشاعر البشرية؟ أهكذا؟ إذن هو □ يحبها، وهى □ تحبه.

ليكن.

لكنه يحبها، وهى تحبه؟.

طيب ...، طيب..! كيف؟.

-3-

راح جلال يقلّب فى أوراق أبيه:

..“كم كنت أرجو أ□ أكون ظالما مثله، “المنتقم الجبار”، أمه أخفت الأمر علىّ حتى صارت فى الشهر الرابع، هى لم تفهم الفرق بين ما يسمَّى الزواج

العرفى والزواج الحكومى، ربما أرادت أن توثق العقد بهذا الطفل الذى رفضتْه ورفضتها بمجرد أن علمتُ بالخبر، قررت الانفصال فورا، لا أنكر أننى يخطر على بالى أن أراه أحيانا، تقول أمه إنه شبهى فعلا، أو شبهى جدا، خبر اسود لو صح ذلك، ما أشقاه، وما أتعسنى به..، لو كان بيدى.. ولكن لا شئ بيدى، كل شئ بيده هو على الرغم من ثبوت سوء تصرفه طول الوقت، لمن أكتب هذا الكلام؟ لى؟ طبعا لا، لمن إذن؟ أصبحت الكتابة نوعا من القهر المنتظم.. ليكن.

"... أريد أن أكف عن الكتابة، من تقع فى يده هذه الكراريس سوف يظن أننى مدرس ابتدائى أصحح كراريس الإنشاء والتعبير، جفت كل الينابيع وأنا أزداد بعدا عنه وسخطا عليه، لا أريد الاستمرار، هذا هو الخطأ الوحيد فى حياتى، هذا جناه ربنا علينا، ونحن ننتقم منه فينا، ربما".

وقفت الجملة الأخيرة فى حلق عقل جلال وكأنها غُصّه لاتريد أن تبلع، كلما مد جلال يده إلى إحدى كراسات أبيه تلك، كرهه أكثر، ثم أشفق عليه، وأحيانا كان يتساءل عنه، وكثيرا ما تحداه، سمع من أمه أن أباه لم يره إلا مرتين، على الرغم من اعترافه به، وإعطائه اسمه، وأنه لم يتردد فى المساعدة فى مصاريف تنشئته، إلا أنه لم يحاول رؤيته أبدا، وحتى هاتين المرتين كانتا بسبب إجراء اضطرارى: الأولى وهو يستخرج له شهادة ميلاد، والأخرى بعدها بسنوات حين ارتفعت حرارته وأصابته تشنجات متلاحقة، ولم تجد أمه أحدا بجوارها، وظنت أنه على وشك الموت فاستغاثت به، فحضر بعد منتصف الليل، وظل يعمل له كمادات مثلجة حتى الصباح، وحين انصرف لم يسأل عنه بعد ذلك أبدا.

لم يكن جلال يتصور أن ما حكته أمه يمكن أن يكون حقيقة، ذلك أن أمه كانت تحكى له كل ذلك دون ضغينة، لم تتهم أباه بالقسوة ولا مرة واحدة.

قال جلال : إن هذه الكراسة بالذات، فى هذا الوقت بالذات، تتحدى كل تفاؤله.

من أهم همومه أن يغير قاموس الحياة المعاصرة، بل بصراحة أن يغير قاموس الحياة كلها: معاصرة وغير معاصرة، أن يلغى القواميس أصلا، لماذا نجمّدُ اللغة داخل أوراق المعاجم!!؟

وقال أيضا : "ولو"، سوف يثبت لأبيه أن الدنيا بخير، حتى وهى مليئة بكل هذه السموم.

يعنى ماذا؟

-4-

تردد وهو يرفع السماعة ليطلبها، قاوم تردده، إذ من يطلب إن لم يطلبها، كلهم أخذوا مواقف تسمح لهم أن يطلبهم أصلا، اللهم إ للتباريك، والتهريج، واجترار ذكريات لزوم لها، أو للسخط، والسخرية، وبعض النميمة، ثريا ليست مثلهم، ليس متأكدا، الأمر العجيب أنهم جميعا يقبلونه هكذا، بل هو يكاد يشعر أنهم يحبونه، حتى من يلتقى بهم مصادفة يحبه، حتى أمين عبد الحكيم صاحب معرض السيارات الذى لم يلقه من قبل، بدا أنه قد ارتاح له، وقال لمنال إنه أحبه، ومع ذلك فهو يريد أن يقترب أو يصدق أو يسعد، هذه الكلمة "يسعد" كلمة سخيفة و لزوم لها فى قاموس الحياة المعاصرة، من أهم همومه أن يغير قاموس الحياة المعاصرة، بل بصراحة أن يغير قاموس الحياة كلها: معاصرة وغير معاصرة، أن يلغى القواميس أصلا، لماذا نجمِّدُ اللغة داخل أوراق المعاجم!!؟

ما حدث هذا الصباح هو مفاجأة بكل المقاييس، مفاجأة ربما تثبت أنه قد عثر أخيرا على الطريق الصحيح، طيب ...، كيف؟.يعنى، حين فوجئ وهو يتصفح "الأهرام"، بمقاله ممهورا باسمه فى صفحة الثقافة، فى الملحق، لم يكد يصدق، يدرى كيف نشروه هكذا بسرعة، على الرغم من طول انقطاعه عن الكتابة، شعر بخليط من الدهشة، والفرحَة، والزهو، والحزن، وفى نفس الوقت قال إنه بد أن يشاركه أحدهم بشكل أو بآخر، عنوان المقال كان جديرا أن يحجبه عن النشر" إلغاء المدارس: احتمال مستقبلى وارد"، لكنه نُشِر، كيف تجرؤا على نشره، بد من احترام هذه الصحف المسماة بالقومية، أحيانا تنشر آراء إبداعية ومعارضة أقوى من صحف المعارضة، وأكثر حدة من الصحف القبرصية

الصفراء والحمراء على حد سواء، كان ممدوح موسى قد عرض عليه أن يشترك معهم فى إصدار صحيفة "المسار" ووافق من حيث المبدأ، لكنهم لم يرجعوا إليه أبدا، فوجئ بصدور "المسار" بعد ذلك بأشهر دون أن يخطره أحد، قيل رجال الأعمال، وقيل القذافى، وقيل صدام، وقيل الحريرى، بل المخابرات المصرية، كل هؤ ء مجتمعين أو من وراء بعضهم البعض يموّلونها، يا سلام! وإ فكيف ظلت تصدر دون إعلانات طول هذه المدة؟ نشروا له فيها عدة مقا ت بأجر رمزى، وعندما أرسل لهم آخر مقال رفضوه دون إبداء أسباب، وحين اتصل بهم طلبوا منه أن يعمل لهم تحقيقات صحفية تصلح لإعادة النشر فى صحف الخليج، تحقيقات مدفوعة الأجر، كان الأجر مجزيا، لم يتذكر بوضوح أنهم رفضوا مقاله عن وراثة العروش الجمهورية، ولم يشعر بمرارة أنهم يستهينون به أو يحطون من قدره، وهم يشيرون إلى حاجتهم للتحقيقات الصحفية أكثر من المقا ت السياسية، لكنه أيقن مبكرا أن هذا لم يعد مكانه، وحين أرسل للأهرام هذا المقال عن مستقبل المدارس لم يكن كتبه على أنه مقال، كان يفكر بحروف مكتوبة وهو يستعد لمشروعه الجديد، ثم قرأ ما كتب فوجده متماسكا، وقد يصلح للنشر، فأعاده ونقحه وأرسله ونسى الأمر حتى فوجئ به منشورا هذا الصباح، راح يفصص كتلة مشاعره المزدحمة فاكتشف أنه دُهش أكثر منه فرِح، دهشة مختلطة بحزن جميل، يفرح بماذا؟ عاد يرجح أنهم نشروه لغرابته، وربما لغرابة عنوانه دون أن ينتبهوا إلى محتواه، أبعد سوء الظن، عاد ينظر للهاتف، أدار القرص، رن جرس الهاتف عدة مرات، وقبل أن يضع السماعة يأسا جاءه صوتها وكأنها مازالت نائمة، فوضع السماعة خجلا بسرعة، فقد اكتشف أنه ليس عنده ما يقوله لها، ثريا هى ثريا يريد أن يقلب أشجانهما فى هذه اللحظة بالذات، ثم إنه لو سألها هل قرأت مقاله فى "الأهرام" أم ، وقالت ، وهذا ما يتوقعه بعد عزوفها عن فتح صفحات تحصيل الحاصل، كما تسميها، فسيُحبط إحباطا مبرر له، الأحسن أنه وضع السماعة، وهى سوف تسامح الطالب أيا

إنه صحفى محترف، أو هكذا كان يعتقد، هذا ليس أول مقال ينشر له حتى فى الصحف القومية، كان مثل كاتب هاو مبتدئ يفاجأ بنشر اسمه فى صحيفة ما لأول مرة

كان، هل يطلب منال؟ إنه يعرفها، طيبة منال؟. لكن بد أنها تزال نائمة، هى، تستيقظ إ قرب الظهر!.

ما باليد حيلة.

-5-

جلس على الدكة الخشبية القديمة وهو فرح بعودته إليها، وطلب شايا فى خمسينة، أكد على "وردة" أ تعامله مثل أفنديات مصر، لقد جاء خصيصا من أجل هذه الخمسينة، سأل عن عبد المعطى عامل المزلقان، وردت عليه وردة بأنها ستناديه له؛ لأن القطار قد مر لتوه والقطار القادم لن يأتى قبل الظهر، لكنه أثناها عن عزمها، وذكرلها أنه يسأل عنه فقط، وأنه ليس متعجلا، وأنه لم يستطع أن يعمل شيئا بالنسبة إلى طلب نقله، وعليه أ يأمل فيه أكثر من ذلك حتى يعتمد عليه بشكل يؤجل احتمال طلب المساعدة من مصدر آخر.

. هل هو يرغب فى النقل بجد يا سعادة البيه؟

. هو قال ذلك.

. الله يخيبه، لقد تعوّدنا عليه، جدع ابن حلال، كله شهامة ورجولة، وعيناه واسعتان وحاجباه ثقيلان.

لم يربط جلال بين تعوّد الحاجة وردة على وجود عبد المعطى بجوارها، وبين عينيه الواسعتين وحاجبيه الكثيفين، ثم راح يتذكر وجه عبد المعطى، فتأكد له أن هذه أهم ملامحه فعلا، وتساءل: كيف لم ينتبه إلى ذلك وحده، ولم يسألها؟

راح يرشف الشاى الأسود من الخمسينة وهو يفرد ملحق "الأهرام" صفحة الثقافة أمام عينيه للمرة العشرين على الأقل، أليس هو كاتب المقال؟ ألم يقرأه عدة مرات قبل أن يرسله؟ ألم يقرأه هذا الصباح ثلاث مرات؟ إنه صحفى محترف، أو هكذا كان يعتقد، هذا ليس أول مقال ينشر له حتى فى الصحف القومية، كان مثل كاتب هاو مبتدئ يفاجأ بنشر اسمه فى صحيفة ما لأول مرة، ولم يكن فى المقال جديد تماما، كل ما هنالك أنه تمادى فى تصوير علاقات

الناس بعضهم ببعض، بالذات الأطفال حين يتلقون كل احتياجاتهم من معلومات من الكمبيوتر وهم جالسون فى منازلهم حتى يوفروا المواصلات، والوقت، ويقللوا من تلوث البيئة، فتمادى فى تصوير عواطف هذا النشء حين يكبر، عصر التواصل أم عصر فصل الناس عن الناس؟ المذياع والمسجل الصغير على الأذن حل محل الحوار فى المقاهى والشوارع معا، ممارسة الجنس أصبحت أسهل بالهاتف أو بالإنترنت، تكتمل الصورة باستغناء عن المدارس والمدرسين، كيف ستتكون مشاعر البشر دون احتكاك البشر بالبشر لحما حيا؟ كيف تنمو أصواتهم؟ كيف سيتشكل وعيهم؟ راح المقال يشطح ويتصور ويتساءل، لم يبك على الماضى، ولم يضع حلولا أكثر من التساؤلات، ومع ذلك نشرته صفحة الثقافة، وفى ملحق "الأهرام"، وبنط كبير نسبيا، حتى أنه لم يلاحظ مقال شيخ التربويين الأكبر والأشمل والأكثر تخصصا، وهو المقال الرئيس المنشور بحروف أصغر وسط الصفحة بجوار مقاله الذى يقع على جانب الصفحة، لكن حروفه، حروف مقاله أكبر، يا حلاوة!!.

كل ما هنالك أنه تمادى فى تصوير علاقات الناس بعضهم ببعض، بالذات الأطفال حين يتلقون كل احتياجاتهم من معلومات من الكمبيوتر وهم جالسون فى منازلهم حتى يوفروا المواصلات، والوقت، ويقللوا من تلوث البيئة

حضر عبد المعطى بعد أن نادته الحاجة وردة، كان جلال قد قال لها خله فى حاله، فعلا عيناه واسعتان وحاجباه كثيفان، حياه عبد المعطى فى أدب متردد، وظل واقفا حتى أقسم عليه جلال أن يجلس وهو يعزمه على خمسينة، وافق عبد المعطى فى حياء حقيقى.

. كثر الله خيرك يا سعادة البيه، لقد قالت لى الحاجة كل شئ، ما عليك، تشغل بالك– كل شئ قسمة ونصيب.

لم يستطع أن يبقى وحيدا فى المنزل بعد أن قرأ المقال وغازل الهاتف دون أن يكمل، خرج مندفعا دون أن يحدد إلى أين، به شوق شديد أن يسمع رأى أحد فيما كتب، أى أحد، ليس يدرى ما الذى دفعه للتفكير فى عبد المعطى والحاجة وردة هكذا مرة واحدة، عبد المعطى يقرأ والحاجة وردة لها دعوة، لكنه وجد نفسه متوجها إليهما، وبه شوق لمناقشتهما فى المقال، أى والله، والذى يحدث يحدث،

المقال لم يفهمه هو شخصيا، حين قرأه منشورا، إ بالكاد، كان على يقين من أنه يشطح فى تصوراته هذه، لكن هذا لم يمنعه من الحضور والجلوس وشرب الشاى فى الخمسينة، مع دافع خفى أن يناقش وردة أو عبد المعطى فى المقال، ربما بعد أن يلخصه لهما.

. أنت لم تذهب للمدرسة طبعا يا عبد المعطى.

. لماذا؟ لقد ذهبت، ونصف.

هذه أول خيبة تلحق بظنونه، كان مرجِّحا أن عبد المعطى لم يذهب للمدرسة أصلا، وأنه يقرأ، ومع ذلك تمنى أنه قرأ مقاله فى الأهرام، أليس عبد المعطى هذا هو الذى افترض جلال أنه يمثل النموذج البدائى للدورة التى تبدأ باللامدرسة، وتنتهى بالمعرفة الكلية، وهى تمر بخبرات طبيعية تنظيمية للدماغ من خلال نقاء اللغة وتوحِّدها، هذا الكلام الفارغ الشديد الأهمية، وهو كل شئ فى حياة جلال الآن، يحضره أحيانا كأنه ألف باء الحياة، يغيب عنه أن أحدا يفهمه، بل هو يعتنى أن يهتم به أحد أصلا، هاهو قد خاب ظنه، وهذا هو عبد المعطى قد ذهب إلى المدرسة، فلعله ذهب ولم يدرس مثل كل عيال الفلاحين الذين يذهبون درءا للغرامة، وأحيانا للحصول على الوجبة، مازال هناك أمل فى إثبات فروضه.

. أعنى يا عبد المعطى أنك تحسن القراءة.

. لماذا يا سيدى "البيه"؟ أنا صحيح عامل مزلقان، لكن أنا ختمت القرآن، والدى لم يرضَ بهذا التعليم الخائب، فكان يرسلنا أنا وإخوتى إلى المدرسة بالنهار، وأذهب إلى بيت الشيخ عبد ربه بعد الظهر، نحفظ القرآن.

. هل مازلت تقرأ حتى الآن؟

. أنا كنت أختم المصحف كل شهر مرة، وبعد ذلك اكتفيتُ بشهر رمضان، أنا أختمه ثلاث مرات فى رمضان.

. هل تقرأ شيئا غير المصحف يا عبد المعطى؟

. يا سيدنا البك، من يقرأ المصحف، يقرأ كل شئ، المصحف باب القراءة، أنا أقرأ كل ما يقع فى يدى، أنا أقرأ أية ورقة تلف بها الحاجة وردة حزمة جرجير، أقرأ أية صحيفة تطير من صاحبها من أى قطار مار، كنت زمان أتأمل صفحة الوفيات وأحاول أن أربط بين العائلات، أحيانا أقرأ صفحة الإعلانات، الآن: اختلطت علىّ الوفيات بالإعلانات، أ يجوز يا سعادة البيه أن تشير هذه البراويز السوداء إلى أن قبور أصحابها مكيفة الهواء، يعملونها، كل شيء جائز، أهو حرام يا سيدنا البك لو واحد غنى غنى، و غنى إ الله، يوصى بأن يندفن فى قبر مكيف مثل حجرات النوم فى قطار الصعيد؟ ما هو أيضا يجوز أن يندفن واحد من الأكابر مثلما يدفن واحد مثل حا تى، هم من حقهم أن يتكيفوا حتى على ما يأتيهم ملائكة الحساب، يا ترى هل حساب القبر صحيح مثلما يقولون وهو يسرى على الكل؟ أم فيه تأجيل للناس الكبراء على ما يأتى يوم القيامة يكونون قد شافوا لهم تصريفا؟

. ماذا جرى يا عبد المعطى، أنت الذى ختمتَ القرآن تسألنى أنا هذه الأسئلة، بصفة ماذا بالله عليك؟

. مؤاخذة، ما هو ربنا لم يقل ما يُرعبنا به مشايخ هذه الأيام يا سعادة الباشا.

. طيب يا أخى، نرجع للمسألة.

. هل هناك مسألة، و مؤاخذة؟

كانت الفكرة الغريبة مازالت تلح على جلال، وهو مستعد أن يقسم لأى مخلوق باستحالة وجود أدنى علاقة بين عبد المعطى وبين ما يريد أن يصل إليه، الذى هو نفسه لم يحدده تماما، ومع ذلك لم يستطع إ أن يواصل التوجه نحو المستحيل الذى جاء من أجله.

. يعنى أنت تقرأ الصحف التى تقع فى يدك يا عبد المعطى؟

. على ما قُسِم يا سعادة البك.

. هل تلاحظ التاريخ؟

تمادى فى تصوير عواطف هذا النشء حين يكبر، عصر التواصل أو عصر فصل الناس عن الناس؟ المذياع والمسجل الصغير على الأذن حل محل الحوار فى المقاهى والشوارع معا، ممارسة الجنس أصبحت أسهل بالهاتف أو بالإنترنت، تكتمل الصورة بالاستغناء عن المدارس والمدرسين

. تاريخ ماذا؟ لماذا؟ هل هناك فرق؟ كله مثل بعضه، لماذا أتعب نفسى وأحظ التاريخ اسم الله على مقام حضرتك.

. طيب سامحنى فى هذا السؤال يا عبد المعطى، لكنى سأسأله برغم ذلك: هل قرأت "أهرام" اليوم؟

ضحك عبد المعطى لأول مرة وهو يصفق بيديه، ثم فجأة كتم الضحكة، وتلفت حوله بسرعة، واكتسى وجهه برعب أصفر، وانطلق بأقصى سرعة عدوا نحو المزلقان.

فوجئ جلال بهذا القطْع المفاجئ حتى ظن أن قطارا قادما فعلا، وأن الحاجة وردة لم تكن تدرى مواعيد القطارات حين أخبرته أن القطار التالى لن يأتى قبل الظهر، همَّ من على الكرسى يتابع عبد المعطى، ويحاول أن ينصت لأى صوت صفير أو حركة راتبة، وهو يتطلع لأى احتمال قدوم قطار صامت حتى، لكن أبدا، فأفاق على صوت الحاجة وردة.

. شفت الغلبان ... ؟؟

. ماذا؟

. الحالة جاءت له، ألم أقل لك إن القطار القادم لن يأتى قبل الظهر، أين نحن والظهر؟ وحياة النبى عبد المعطى هذا لن يأتى بها لبر، من يوم أن خيّل إليه أن حادثا سيحدث وهو بهذا المنظر، تصدق وتآمن بالله يا سيدنا الأفندى إنى أعز الواد عبد المعطى معزة حاجة ثانية.

. بكم تكبرينه يا حاجة؟

. أكبره؟ فشر!!. إياك فاكر أنى عجوز ماداموا ينادوننى بالحاجة، أنا حجيت مع عمتى وأنا عندى 13 سنة، كانت وحيدة، ولا مؤاخذة، لم تتزوج، ظلت تنتظر أن تتزوج حتى تجد كفيلا يصحبها فى الحج، وقد سمعت أنها عرضت على جارنا، أبو الحاج لطفى، الحاج عبد الغنى، عرضت عليه أن يتزوجها حتى تحج معه، ويطلقها إذا مارجعوا، لا أدرى إن كان هذا صحيحا أم أنها مسخرة، ناس

بلدنا هؤ□ء ملاعين، قالوا إنها عملتها حجة وحاجة، ناس أبالسة، □ يتركون أحدا فى حاله.

. تحبينه ياوردة؟

. يا ماذا؟ يسلم فُمّك، والله زمان،"يا وردة"!، خرجت منك زى العسل، قال حاجَّة قال!، هكذا تمام التمام، ماذا قلت؟

. قلت ما سمعتيه.

. أ□ انت من أين يا سيدنا ا□فندى؟

. من مصر، يعنى لم تردى. تحبين عبد المعطى.....؟

. أعزه طبعا، أعزه مثل عينى، رجل و□ كل الرجال، وعيناه "تقو□ن"، وحياة النبى عيناه تقو□ن، من غير أن ينطق و□ كلمة.

. يا عينى!!.

. عبد المعطى ليس مثله فى الرجال، طيب، وشهم، ويعرف ربنا.

. وهو؟

. ماله؟

. يعزك مثلما تعزينه.

. ..، يا سيدى، يا سيدنا الأفندى، ما هو عندك، ماتسأله، ....الله!!.

لم يحضر القطار، □ صفير، و□ صوت أصلا، ولم يغلق المزلقان ولم يعد عبد المعطى، قام جلال، ودفع الحساب، ودفع ضعف ما طلبت الحاجة وردة، لكنها أبت وأصرّت أ□ تأخذ إ□ ما طلبت، وأن هذا الكلام عندكم فى مصر، إنما هنا الحق والمستحق، ومن أراد أن يحسن فبالمعقول، أحسن الناس تظن كذا أو كذا، وأضافت أنهم ناس أحرار، ودمهم حام، وكادت تصبح مشكلة.

دفع الحساب والوهْبة الضئيلة، وانصرف.

-6-

اليوم الجمعة، والندوة الأسبوعية تعقد فى ميدان التحرير، والرجل الكبير

كيف ستتكون مشاعر البشر دون احتكاك البشر بالبشر لحما حيا؟ كيف تنمو أصواتهم؟ كيف سيتشكل وعيهم؟

منتظم كالساعة، وكل من يحضرها يقرأ "الأهرام" طبعا، وجلال غير منتظم فى هذه الندوة و فى غيرها، بل إنه لم يذهب هناك إ عددا من المرات يزيد عن أصابع اليد، صحيح أنه صحفى، وأنه يحب الرجل، وأن أغلب الحضور هم من معارفه، لكنه حين ذهب مرة ومرة أحس . دون أى اعتراض على أى تفصيل – أن "المسألة ليست هكذا"، أى مسألة وأى هكذا؟ ليس مهما، ولكن هذا ما أحس به، فما الذى جعل هذا الخاطر يخطر بباله هذا اليوم بالذات؟ ليس خافيا أنه يطمع أنه إذا ما ذهب، فقد يعلق أحدهم على مقاله بالأهرام بكلمة تؤنسه وتشعره بجدوى، أو حتى جدوى، ما يكتب، هذا هو ما يحتاجه تحديدا، فى هذا اليوم بالذات. قرر أن يذهب إليهم.

استيقظ من قيلولته فى الميعاد المناسب، الساعة السابعة، والرجل منضبط، والحضور يحضرون فى أى وقت، وينصرفون فى أى وقت، وسوف يجد تعليقا من هذا أوذاك يطمئنه.

يطمئنه على ماذا؟.

نزل بسرعة وهو ليس على موعد، يستطيع أن يخفى لهفته لسماع رأى أى واحد فيما كتب، كرر: "أى رأى"، أى واحد"، مازال عنده وقت، لم يجد تاكسيا، ولكنه سوف يذهب. هو يعرف مواصلة محددة تنقله إلى هناك، أو إلى القرب من هناك، كان قد اعتاد أن يقطع أغلب مثل هذه المسافات راجلا، والميكروباصات عددها زاد، وهو يعرف لها خطوطا معروفة، أو أرقاما تحفظ، المهم، ركب أحدها وسأل السائق واطمأن أنه سيذهب إلى الإسعاف، ثم يأخذها سيرا من الإسعاف إلى شارع سليمان، ثم يقابلهم، نزل أمام سينما ريفولى، وهو على شوق أن يذهب إليهم ويسمع آراءهم، وبد من أن ينحرف إلى شارع سليمان فى اتجاه سينما مترو ثم إلى هناك، وجد نفسه يتجه فى اتجاه المعاكس نحو ميدان التوفيقية، لم يكن مخدرا، و مقررا، و رافضا، و ضجرا و شيئا من هذا كله، لكن هذا ما حدث، فاستجاب.

الساعة السابعة والزبائن" الذين هم" لم يحضروا بعد، وعم إدريس الذى رجع من إجازته يبتسم فتشرق أسنانه البيضاء فتضىء وجهه الأسمر ، جلس كالعادة على مائدة خالية فى ركن قصى وحيّا عم إدريس الذى أحضر له الجعة دون طلب، فطلب منه أ يفتحها.

. خير يا أستاذ جلال!!.

. خير إن شاء الله.

. صائم أم ماذا؟ بدرى على رمضان.

لم يقبل الدعابة، وإن كان لم يرفضها، وحاول أن يثنى عم إدريس عن التمادى. سأله فجأة: "أليس اليوم هو الجمعة؟".

نظر عم إدريس فى دهشة طيبة. ورد فى سخف غير مقصود، بدا لجلال متعمدا:

. .. بأمارة أن أمس كان الخميس، هل جئتنا مكتفيا يا جلال بك؟

. وهل يبدو علىّ ذلك؟

. سؤال سعادتك عجيب حبتين، طبعا اليوم الجمعة، لماذا تسأل يا ترى؟

. هل عندك "أهرام" اليوم؟

. "أهرام" اليوم أم "أخبار اليوم"، و مؤاخذة، هل تعرف أنهما كانا من زبائننا؟

. يا عم إدريس، أنا أسأل جادا: هل عندك "أهرام" عدد يوم الجمعة، والملحق؟

. والملحق أيضا؟ لماذا، كفى الله الشر.

فجأة انتبه جلال إلى أن عم إدريس، بدا له –على غير عادته ثقيل الظل، فأرجع سبب ذلك إلى نوع أسئلته هو، كما تذكر شطحة الصباح حين ذهب يبحث عن عبد المعطى والحاجة وردة وفى نيته أن يسألهما عن رأيهما فى المقال، وها هو يكاد يعدل عن الذهاب لرواد الندوة الذين ليس لهم عمل سوى

قد ذهب إلى المدرسة، فلعله ذهب ولم يدرس مثل كل عيال الفلاحين الذين يذهبون درءا للغرامة، وأحيانا للحصول على الوجبة، مازال هناك أمل فى إثبات فروضه.

. أعنى يا عبد المعطى أنك لا تحسن القراءة.

القراءة، وبينه وبينهم عشر دقائق سيرا حثيثا،مع أنه كان على يقين أنهم سيفاتحونه فيما كتب، ثم هو يحضر إلى عم إدريس يسأله تلك الأسئلة التى أثارت سخافته، مع أنه، عم إدريس، عمره ما كان سخيفا، و يستطيع أن يكون كذلك، عدل عن التمادى فى الحوار، وبادر با عتذار، وطلب زجاجة صغيرة ، ونظر فى ساعته، مازال أمامه أكثر من ساعتين قبل أن تنتهى الندوة.

فكر أن يذهب إليهم على الرغم من كل شىء.

-7-

أخذ يستعرضهم واحدا واحدا ويتصور التعليقات المحتملة: عبد الغفار فريد سوف ينكر أصلا أنه لم يقرأ المقال مع أنه قرأه، وأحمد محمود سوف يطيّب خاطره بغض النظر عما جاء فى المقال، فهو يفعل ذلك لكل الناس، الذى يكتب فى مدح صدام حسين، والذى يشكر الرئيس مبارك على حكمته بعدم تعيين نائب له، أما أسعد رياض فسيحتج . بطيبة حقيقية . على أسلوب المقال، وربما يسأله ناصحا متى يكف عن التفلسف...، إنه يعرف ردود أفعالهم جميعا، وعلى الرغم من ذلك فهو لم يطفئ أملا فى أن يجد فى الندوة المفتوحة شخصا جديدا يعرفه، وبالذات أن يكون هذا الشخص شابة جامعية لم تتخرج بعد، تكتب قصصا تعتقد أنها صالحة للنشر، فتقول له رأيها فى المقال بصراحة. حين حضرته هذه الصورة، دفع الحساب واعتذر لعم إدريس ونقده النفحة المعتادة، دون زيادة، وانصرف متوجها إلى شارع سليمان باشا.

على الناصية، وأمام الأمريكين مباشرة سمع من ينادى عليه، فالتفت مندهشا فإذا به وجها لوجه أمام رامى فرغلى، وبعد الأحضان وقبلتىْ الوجنتين . تلك العادة الرجالية الجديدة غير المفهومة له . سأله جلال فى دهشة عن الندوة، ولماذا لم يذهب، فأخبره أنه انقطع عنها من سنين، وأنه انصرف إلى أموره العملية الخاصة، وأن عنده الآن مزرعة دواجن بيّاض شغلت وقته كله، وأنه تزوج وله ثلاثة أو د أكبرهم فى ثانية ثانوى، وأنه ينوى أن يحج هذا العام، قال كل ذلك مرة

واحدة فى وقت ربما لم يستغرق أكثر من دقيقة، ربما، هكذا على الواقف، ثم أنهى حديثه وكأنه تذكر أنه يكلم صديقه القديم المزعج المتمرد، توقف فجأة، وتراجع بشكل به خليط من الاعتذار والاستئذان فى الانصراف، وكأنه يعلن قرارا قديما اتخذه من زمن بقطع علاقتهما نهائيا، مع أنها مقطوعة أصلا.

. وأنت يا جلال كيف حالك؟ ما أخبارك؟

بدا أنه تذكر أن المفروض، أو المتوقع على أقل تقدير، أن يسمع من صديقه (زميله) القديم مثلما قال عما حدث له فى سنوات الفراق، وهو ما ظهر من شكل سؤاله عن حاله وأخباره، لكنه بد من أن ينتظر الجواب إذا به يهجم عليه فجأة، ويقبله من الوجنتين بنفس حرارة اللقاء، ويستأذن صائحا.

. خلينا نشوفك.

انصرف رامى فرغلى مسرعا فشعر جلال كأنه حصل على حكم بالبراءة لم يكن يتوقعه، على الرغم من أن المنظر لم يكن يحتاج إلى تفسير أكثر مما فسر نفسه، وعلى الرغم من أن رامى فرغلى بالذات لم يخطر على بال جلال بمناسبة وبدون مناسبة، مع أنه كان من أهم السبعينيين الذين كان ينظر إليهم جلال بإكبار؛ ربما بسبب التعذيب الذى سمع أن رامى عانى منه بشكل خاص، على الرغم من كل ذلك فإن اسمه لم يرد فى خياله بين أسماء من يمكن أن يقابلهم فى الندوة.

قبل أن يختفى رامى بعد الناصية، صاح به جلال، وهو متأكد أنه لن يسمع، كان قد اختفى، ومع ذلك صاح جلال بأعلى صوت:

. هل قرأت مقالى اليوم فى "الأهرام" يا رامى؟

– **[1]**يحيى الرخاوى: رواية "ملحمة الرحيل والعوْد" الجزء الثالث من ثلاثية "المشى على الصراط" (الطبعة الأولى 2007، الطبعة الثانية 2017)، والكتاب متاح فى مكتبة الأنجلو المصرية وفى منفذ مستشفى دار المقطم للصحة النفسية شارع 10، وفى مركز الرخاوى: 24 شارع 18 من شارع 9 مدينة المقطم، كما يوجد أيضا بموقع المؤلف، **وهذا هو الرابط** . www.rakhawy.net

السبـــت 28-07-2018

العدد: 3983 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") الفصل الرابع "مصر الجديدة"

أن الله يمكن أن يلقى بما شاء كيفما شاء فى قلوب الناس مباشرة فما بالك بالأنبياء؟

قبل المقدمة (:من بريد الجمعة: أمس)!!

أنا أسف

يبدو أن نشر الرواية مسلسلة، خاصة الجزء الثالث "ملحمة الرحيل والعوْد" فى هذه النشرات اليومية هو ضد التلقى الأشمل.

أنا اسف،

وأعتقد أنه سبيل للتوقف أو للتراجع

وعموما فالرواية بأكملها متاحة إلكترونيا وورقيا لمن شاء(1)

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية" ملحمة الرحيل والعوْد "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثالث :من ثلاثية" المشى على الصراط."

وهذا هو الفصل الرابع

"مصر الجديدة"

-1-

يطل عليه فى نضارته الطازجة وهو يفسح له مكانا بين ثنيات سحابة شاهقة البياض، هشة الكثافة، هل هو كعادته فى طريق السويس يتأمل قرص الشمس

المتسحب شروقا فى يقين مطَّرد فى بداية رحلته إلى "دهب" فى صباح شتوى منعش؟ يتشكل المنظر فى ملامح بشرية دقيقة شديدة التناسق، فيفاجَأ بأن ثم فرقا لم يكن يدركه من قبل بين العيون الزرق والعيون الخضر، هذه زرقة صافية تتلألأ فى رقة عميقة.

ألمَّ جلال بكل ذلك فى هذا الجزء من الثانية حتى قبل أن يسأل عن أمين بك عبد الحكيم.، وقبل أن تجيبه بالإيجاب وتدعوه للدخول، انتبه أن السحابة البيضاء لم تكن سوى هالة شفافة، أشبه بطرحة تحيط بهذا الحضور الجميل المقتحِم فى حياءٍ متردد يفسر تلك الحمرة المشتعلة، هل هذا حجاب أم "إشارب"؟

هل هو تديُّنٌ أم لباس جديد صُنع خصيصا لهذا الجمال، هكذا؟ أراد أن يلتفت إليها بعد أن أدخلته إلى حجرة ا ستقبال ليتمكن ثانية مما رأى لكنه تحرَّج حرجا شديدا، وهمس لنفسه: "عنده حق. أمين عبد الحكيم هذا: هل عنده حق؟".

كاد يجزم أن هذه الحورية التى فتحت له هى حاضرة، وحارة، بما يكفى وزيادة، حارة أكثر مائة مرة من منال، وطازجة، وشهية، ياه، ما كل هذا؟ عيب كذا!!، حاول أن يؤكد لنفسه ما جاء من أجله: زيارة عمل؟ لكن المؤكد أكثر أنه إذا كان أمين عبد الحكيم عنده حق فى كل شئ، فإنه ليس عنده أدنى حق فى مسألة منال هذه، بما أن الأمر هكذا، كره نفسه وهو يعقد هذه المقارنة وكأنه أهان نفسه منال.

جالسٌ هو فى الصالون غير المذهب، الدال على ذوق هادئ رقيق، ينتظر، المنزل أنيق جميل بسيط، فى مصر الجديدة الحقيقية قرب مكتبة فريال (سابقا)، راح يفكر مرغما فى الفرق بين الملائكة والحور العين، وهو يعلم . باسما . أن الملائكة ليسوا إناثا، ثم اتسعت ابتسامته، وليسوا ذكورا، هو لم يحب الملائكة حبا خاصا أبدا، بل إنه لم يشغل باله بدورهم أصلا، وكان يرى . حين يسمح لنفسه بالتفكير . أن الله يمكن أن يلقى بما شاء كيف شاء فى قلوب الناس مباشرة فما بالك بالأنبياء؟ شئ يحول دون ذلك، فلماذا المراسيل؟ له حكمه وحكمته، هم

يقولون ذلك دائما ويريحون أنفسهم، وقبل أن يبعد هذه الأفكار القديمه قدم الطفولة، وقبل أن يستغفر تلقائيا دون إصرار، اقتحمته مرغما أفكاره القديمة فى مسألة الحور العين.، وهى من المسائل التى قرر بينه وبين نفسه أ يعود إليها أبدا، انتبه أكثر واستغفر بذات الطريقة وهو يطرد ما تبقى من هذه الأفكار الصبيانية (هكذا يفضل أن يسميها برغم علمه بأنها صبيانية و حاجة). استطاع بجهد حقيقى أن يستبعد هذه الوساوس، ولكنه عجز عن أن يتخلص من تحفظة على مدح شخص ما بأنه ملاك، أو أن توصف سيدة جميلة بأنها حورية من الجنة، ما هذا، هل معقول أن كل هذه الخواطر تخطر له فى هذه الثوانى، وهذه الإشراقة تطل عليه حا هكذا؟ لكن ما هذا الذى يحيط برأسها هكذا؟ بديهى أن شعرها ذهبى، أو لعله ذهبى مائل إلى البياض الذى ليست له علاقة بالمشيب، أو لعله بنى فاتح جدا، لماذا تخفيه هكذا، إذا كان هذا حجابا، فهل جاءت من بلادها بلاد القوة والقدرة والتاريخ والعلم المعاصر والفن الأصيل والفكر الفحل– هل جاءت إلى مصر تتزوج من أمين عبد الحكيم، لتتحجب؟ هل ستأتى فرصة لكى يسألها؟

خسارة أنكم لا تأخذون منا إلا ما لم يعد يصلح لنا، ولا لكم، ولا لأحد.

انتبه إلى الأسئلة التى لم تخطر بباله، ثرى ما اسمها؟

. "فاتيما".

هكذا عرّفته بنفسها وهى تعتذر عن تأخر زوجها قليلا لأنه فى الحمام، قدمت نفسها إليه باسمها، وهى تجلس تضيّفه حتى يحضر زوجها، فرحَ، وتعجّب، وخجِل، وذكر اسمه كاملا مع ترجيحه أنها تعرف اسمه الأول الذى بد أن زوجها قد حدثها عنه وهو يخبرها عن موعد قدومه، قال:

. جلال غريب الأناضولى.

. هل أنت من أصل تركى، أظن أن هضبة الأناضول هذه فى تركيا، أو لعلها تشمل تركيا وبعض جوارها.

كانت تتكلم بالمصرية السلسة بإتقان عجيب، بحيث يكاد يتبين أصلها الألمانى إ من دقق فى الرنين، أو حظ بعض الحروف.

. أعلم، والدى...

سكت فجأة فهو نادرا ما يتحدث عن والده، والده ماذا؟

. والدك ماذا يا أستاذ جلال؟

. والدى لم يذكر لى شيئا أصلا عن عائلته، بل إنه لم يذكر لى شيئا عن نفسه، لم يذكر لى شيئا عن أى شئ. والدى ..

(سكت فجأة وهو يخشى أن يعترف لها أنه ليس له والد برغم تداعيات اسمه الأناضولي).

كيف جاءت سيرة أبيه هكذا فجأة فى هذا التعارف الذى علاقة له بوالده، ثم كيف أنها . هكذا قال لنفسه فيما بعد . لم تندهش أصلا لهذه المصارحة غير المألوفة، أو على الأقل لم تظهر على وجهها علامات تدل على ذلك، أتاح له كل هذا الجديد الغريب فرصة التمادى سائلا:

هل تغيير الاسم أخطر على الهوية من تغيير الدين؟

. حضرتك، تتحدثين عن هضبة الأناضول بيقين الدارس المتخصص.

. هذه بديهيه جغرافية يا أستاذ جلال، ألست المدرس الذى سوف يدرس للأو د.. أم أن ا سم اشتبه علىّ؟

. .. لست مدرِّسا، ولكننى قد أدرس للأو د.

. لستَ مدرسا؟ إذن كيف تدرس للأو د؟

وجد نفسه على بعد خمسين ألف فرسخ من الإجابة، فسارع مدافعا.

. أنا لم أدرِّس بعد لأحد، وبوسعكم أن تستغنوا عنى قبل أن أبدأ، والأستاذ أمين يعرف كل شئ.

انتبهتْ فاتيما إلى أنها أحرجته، فتراجعت، واعتذرت، وازداد وجهها احمرارا وجما وإشراقا، هذا الوجه المشرب بهذه الحمرة وسط هذه الهالة البيضاء، يجمع بين قرص الشمس بعد اكتمال بزوغه مباشرة من الشرق، وبين استدارة القمر فى ليلة شتاء صافية تجلت فيها زرقة السماء بعد مطر طهرها مؤقتا من كل فضلات المدنية، هذا الكوكب الجدلى المصنوع من شمس مشرقة وقمر بدر دون حرف

عطف، يطل عليه الآن فى تكامل فريد من بين ثنيات سحابةٍ لم تكتمل إحاطتها به، فرح بخجلها الذى أشرق عليه هكذا، وزال حرجه، فتجرأ ليسألها، على الرغم من علمه بطباع الأجانب، إذا ما اقترب غريب من خصوصياتهم، ومع ذلك وجد فى نفسه الجرأة أن يسأل:

. وأنت؟ حضرتك.... يعنى؟

. نعم؟

تراجع من فوره عما كان ينوى قوله، وحوّل الكلام:

. حضرتك مشغولة، أنا يمكن أن أنتظر وحدى حتى يحضر الأستاذ أمين، حضرتك تستطيعين أن تقومى لشئونك، شكرا.

بذل جهدا مناسبا وهو يحاول أن يتجنب التفكير فى إجابات للأسئلة المتلاحقة التى خطرت بباله عن حجابها، وحضورها إلى مصر، بل عن زواجها من أمين، بل إن سؤا أخطر خطر بباله حتى تصور أنه كان يمكن أن يقفز دون استئذان بين هذه الأسئلة، سؤا عن مدى معرفتها بعلاقة أمين بمنال، بل كاد يسألها عن حرارتها الجنسية وكيف وهى جاهزة بهذا الشكل، ينظر زوجها أمين إلى غيرها؟ أى والله، كل ذلك اختفى وراء ادعاء الأدب الذى زعم به أنه يريد أن يعطلها عن شئونها وأو دها، ثم إنها أجنبية، وغاية علمه عنهن أنهن يجالسن غرباء هكذا لمجرد انتظار زوج بالحمام، مادام هؤ ء الغرباء ليسوا أصدقاء العائلة، لكنها ردت:

. أهكذا الأصول يا أستاذ جلال؟ لقد تركت ألمانيا برمتها حتى أتركك وحيدا، كما يترك كل الناس كل الناس بعضهم بعضا هناك، لقد جئت هنا لأجالسك حتى يحضر زوجى، نتحدث.

كاد يرد عليها"جئت مصر لتجالسينى أنا؟ هنا؟ هكذا؟ نتحدث؟ لكنه امتنع فى آخر لحظة، وغمغم.

. شكرا.

أردف وكأنه يكلم نفسه، أو لعله كان فعلا يكلم نفسه: "... فيم نتحدث، ونحن نعرف بعضنا البعض؟ هل أحدثك فى الجو مثلما الأمر عندكم، أم نتحدث كما هى الحال عندنا فنغتاب أصدقاء مشتركين لم يوجدوا بعد؟ هل أحدثك بما أتصور؟ أو بما تتوقعين؟ أو بما اعتدت؟ "

كل ما نطقه بعد هذه التساؤ ت الصامتة هو أن أعاد الشكر:

. شكرا.. شكرا.

ردّت وكأنها تقاطعه:

. على فكرة، قد يتأخر أمين أكثر مما تتوقع، فهو لم يتخلص من هذه العادة التى يسميها النظافة الواجبة وأسميها أنا الوسواس، أنت تعرفه، وليس عيبا أن أخبرك، بد أن نتحدث فى أمر ما حتى يحضر، هذا من أجمل ما تعلمته منكم هنا.

. بصراحة أنا أتقن كثيرا واجبات الضيافة هذه، لم أكن زوجا تقليديا، لم تكن لى أسرة بالمعنى المألوف لمدة كافية.

. وحيد أنت؟ .

. ليس تماما، لم أشعر بالوحدة الحقيقية إ خلال تلك الأشهر التى أمضيتها فى عش الزوجية، لماذا أسموه "عشا".

. ربما ليسهل تحطيمه.

. كذا ...؟ .

. يبدو أن هذا هو ما فعلته أنت، وبسرعة.

. ليس تماما، لم أفعلها وحدى، كان عشا هشا أصلا، ثم إننا قد اتفقنا نحن ا ثنين على أن المسألة لن تنفع، فعلناها بشجاعة وبسرعة قبل أن نخسر بعضينا، وازددنا صداقة بعد ذلك.

. فعلتم مثلما نفعل عندنا، يا خسارة.

. خسارة ماذا؟

فلماذا هذا الحجاب؟ أليس حجابا؟

. وهل تشعر أنه يحجبك عنى؟ أو يحجبنى عنك؟

. خسارة هدم عش لمْ يتكون، وأيضا خسارة أنكم تأخذون منا إ ما لم يعد يصلح لنا، و لكم، و لأحد.

صمت وكأنه تمادى أكثر من اللازم، أو كأنها تمادت هى، وحاول أن يطرد أغنية مقتحمة "والنبى هشُّهْ يا لْعصفورْ، وأنكشْ له عشُّهْ، يا لْعصفورْ "

استسلامه مكنَّه من أن يعاود محاولة طرد الأغنية، مع أن أثرها . هكذا. هو الذى جعله يتمادى:

. هل تسمحين أن أستفسر أكثر؟

. طبعا، نحن فى مصر.

. نحن أين؟ آسف.

. ... أقصد : لسنا فى شتوتجارت.

. يبدو أنك تعرفين مصر أكثر منى.

. أنا أعرف مصر التى جئتُها، ولكن يبدو أننى أعرف مصر التى وجدتُها.

. وأى مصر تتوقعين منى أن أمثلها.

. أنا أعرفك بالقدر الذى يسمح لى بالتصنيف هكذا، أنا دائمة البحث عن مصر، التى أحبها، مصر التى تسمح لك الآن أن تقترب دون استئذان.

)أقترب؟ أقترب أنا دون استئذان، أقترب من قرص الشمس القمر؟ أحترق يا سيدتي!! أذوب)، لم يقل ذلك لكنه التقط الضوء الأخضر: . هل اسمك الأصلى هكذا "فاتيما".

. نعم، فاتيما، أمى كانت عندها صديقة أسمتنى على اسمها، فاتيما اسم معروف، ألم تسمع عن سانت فاتيما. ميدان سانت فاتيما هنا فى مصر الجديدة.

. آه، صحيح، وهل هو ما يقابل فاطمة عندنا؟

. أعرف، يبدو ذلك، على كل حال يظهر أن أمى كانت تستجيب لحدسٍ ما ينبئها أن هذا ا سم يتفق مع مسار حياتى.

. ألم يخطر ببالك أن تغيّريه إلى "فاطمة"؟

هل يمنع السحاب قرص الشمس من مواصلة الشروق؟ أم يزيده طزاجة وجمالا؟ ، لم يقل ذلك).

. ولماذا؟ لو كان اسمى فرانسواز احتفظت به كما هو، إن تغيير الأسماء له دلالة قبيحة، وهو خطر على الهوية التى تكونت منذ الصغر.

زادت ربكته بدرجة لم يتوقعها وتمنى فى ثانية، إحدى ثلاث أمنيات، أو هن جميعا: أن يحضر أمين فى الحال، أو أن يصاب هو بالبكم، أو أن يقفز من النافذة، ومع ذلك أكمل فى اندفاعة مباغتة وهو يحدث نفسه "سوف أقول وما يحدث يحدث:"

. هل تغيير الاسم أخطر على الهوية من تغيير الدين؟

. أنا لم أغير دينى يا أستاذ جلال.

"الآن حصحص الحق": قفزت هذه الكلمات: جملة ثقيلة من رأسه إلى مقعدته لتثبته على الكرسى حتى لا يقفز منه، هى مازالت على دينها، وهذا جائز، فى الإسلام، بل إن هذه الحقيقة كانت من ضمن الإضاءات التى أضاءت له جانبا من دينه حتى تمنى أن يجوز العكس أيضا، هى مازالت مسيحية، قالها لنفسه وهو يواصل المغامرة غير المحسوبة، هى التى تشجعه بكل الإشارات والتحولات.

. فلماذا هذا الحجاب؟ أليس حجابا؟

. وهل تشعر أنه يحجبك عنى؟ أو يحجبنى عنك؟

"أى امرأة هذه؟ سأل نفسه . وما السبيل إلى التراجع؟ وإلى متى تطول وساوس أمين فى الحمام؟ ثم انتبه ليجيب عن تساؤلها:

. يحجب؟ أبدا أبدا، لا أبدا.

)هل يمنع السحاب قرص الشمس من مواصلة الشروق؟ أم يزيده طزاجة وجمالا؟ ، لم يقل ذلك).

. أنا أخذت ذلك القرار بنفسى على الرغم من أنه ليس سَنّة مؤكدة.

"الله أكبر" قفزت هذه التكبيرة السرية فى رأسه مثلما قفزت "حصحص الحق" لكنها لم تتثاقل إلى مقعدته، بل ثبتته فى السقف بسلك صلبٍ خفىّ، "سنة

مؤكدة!!. " هذه الألمانية الأعجمية الجميلة تتكلم عن السنة المؤكدة؟ ما كل هذا الفقه يا حاجَّة؟

أنقذه من تماديه فى الدهشة التى ظهرت بوضوح على وجهه أنها استطردت دون توقف:

. الأمر بالحجاب كان لنساء النبى عليه الصلاة والسلام، وأمين ليس نبيا كما تعلم.

... . المسألة أكبر من تصوره، بل من قدرته على المتابعة، المفاجآت سريعة، ومتلاحقة وهو لم يستعد لها، مع أن عنده إجابات وإسهامات، بل اجتهادات، كم اضطر إلى مناقشتها . بلا لزوم . فى محافل فائدة من ارتيادها، إذن فقد أسلمت، فكيف قالت إنها لم تغير دينها؟ لم يجرؤ أن يسألها، ورجح أنه أساء السمع، فرك أذنيه واكتفى بالتعليق على الجملة الأخيرة وكأنه يمزح (وهو يطرد من ذهنه علاقة أمين بمنال).

– .. أعرف طبعا أنه ليس نبيا، أعنى أن أى أحد منا ليس نبيا، وهذه رحمة من الله، أليس كذلك؟

. طبعا، من ذا الذى يقدر على هداية الناس هذه الأيام؟ الأنبياء نجحوا فى مهمتهم؛ لأن الناس كان عندهم اشتياق واستعداد لما أتوا به، فضلا عن أنه كان عند الناس وقت للاستماع لهم.

قال ساهما مستسلما:

. يبدو ذلك.

–2–

لو أن دخل أمين فى هذه اللحظة فربما كان قد سألها عن مدى علمها بعلاقة أمين بمنال، تنهد حتى كاد يسمع زفيره، وكأن يدا انتشلته من متاهة أخذت تتشعب به مساراتها، حتى بدت كسيقان أخطبوط هُلامى أصيب بسرطان شرس يُفرز له ساقا كل ثانيتين، استأذنت بابتسامة أعذب فأعذب، وتركتهما

الأمر بالحجاب كان لنساء النبى عليه الصلاة والسلام، وأمين ليس نبيا كما تعلم.

"يأخذان راحتهما"، هكذا قالت باسمة وهى تتصرف.

. أهلا أستاذ جلال تأخرت عليك.

. أبدا.

. لعلك استأنست بفاتيما، تعرفتما طبعا، يقول أصدقائى إنها محدثة رائعة، بعضهم يقولون إنها مصرية أكثر منى، تصور أننى أكاد أعرفها كما يعرفها أصدقاؤنا المصريون.

. والأجانب؟

. ليس لنا أصدقاء أجانب، إ أقل القليل.

. هل لى أن أتطفل فأسأل لماذا؟

. هى التى اختارت ذلك، حاولت أن أعرّفها على كثير من الألمان الذين أتعامل معهم فلم ترحب، وهى تزعم أن الأجانب يعرفون الصداقة.

. وهل يعنى نحن الذين نعرفها؟ هل أخفيت عنها ما آلت إليه حالنا؟ ألم تلاحظ ذلك بنفسها؟

. حظتْ، لكنها تصر، وهى تزعم أن مصر التى جاءت إليها مازالت كما هى، ولكن أصحابها لم يعودوا يرونها كما ينبغى، وهى تتصور أنها تستطيع أن تسهم فى إنقاذها...

. إنقاذها؟ من أهلها؟ منا؟

. .. ربما، وربما من أهلها هى، من الغرب الذى هربت منه.

. بصراحة، لست فاهما.

. بينى وبينك، و أنا!.

. لكنك قلت لى إن بنتكما عمرها 14 سنة.

. حصل.

. ومازلت تفهمها؟

. نعم.

. عندك حق.

خطر ببال جلال أن يربط بين دهشة أمين عبد الحكيم الممتدة عبر خمسة عشر عاما بمقاله المنشور فى "الأهرام"، لكنه لم يجرؤ مستبعدا تماما أن يكون من قراء الملحق أصلا، فاستجاب لإغراء الحديث الدائر:

. هل تسمح لى يا أستاذ أمين أن أسأل أسئلة خاصة بعض الشئ، أعنى أسئلة قد تبدو خاصة، وهى ليست كذلك تماما، بل لعلها تتعلق بالمهمة التى جئت من أجلها، أعنى: التى تصورتُ أنه يمكننى القيام بها، بصراحة هى أسئلة تتعلق بك أنت والسيدة فاتيما، وهى قد تحدد معالم مهمتى، أعنى فكرتى، □ أقول مشروعى الآن.

. تحت أمرك، ولكن أذكرك أن فاتيما هى التى تحمست للفكرة حين نقلتها من منال إليها.

.... لكنها انزعجت حين عرفت أننى لست مدرِّسا محترفا.

. هل انزعجت؟

. خيل إلى ذلك.

. □ أظن، لقد أفهمتُها بوضوح أنك لست مدرسا محترفا، بل لعلى قلت لها إنك لست مدرسا أصلا، وإن كنت □ أذكر هل حددت لها مهنتك الأصلية أم □؟ ألستَ صحفيا مازلت؟

تمنَّى جلال أن يسأله . بالمناسبة . إن كان قد قرأ مقاله فى "الأهرام" أم □، خجل وتردد، طبعا هو لم يقرأه مع أنه متعلق بالموضوع.

. أحمل بطاقة النقابة، وأكتب أحيانا.

. آه، صحيح، لقد قرأت مقالك الأخير فى "الأهرام"، وتصورت أن لقاءنا هو الذى أوحى لك به، وإن كنت لم أفهمْه كله.

كاد جلال يقفز من الفرحة. أخيرا وجد من قرأ المقال، بل فاتحه فيه، كاد يكذب . مجاملة . ويدعى أنه استوحاه فعلا من لقائهما، لكنه تراجع.

من ذا الذى يقدر على هداية الناس هذه الأيام؟ الأنبياء نجحوا فى مهمتهم؛ لأن الناس كان عندهم اشتياق واستعداد لما أتوا به، فضلا عن أنه كان عند الناس وقت للاستماع لهم.

. بصراحة أنا كتبته قبل أن ألقاك.

. ربما، لأن "منال" حين حدثتنى عن فكرتك، كانت بهذا الوضوح، لابد أن تكون قد كتبتَه قبلَها، ولكن ألم تُضف إليه أى شئ بعد مقابلتنا، مراجعة مثلا، تعديل.

. بصراحة: مقابلتنا فتحت لى باب التراجع لا المراجعة.

. تراجع عن الفكرة، أم تراجع عن الصفقة التى سوف نعقدها معا الآن؟

. صفقة؟!!.

. لا تؤاخذنى فى كلمة الصفقة، حكم المهنة طول النهار والليل صفقات صفقات.

راح جلال يشرح له كيف أنه تراجع عن التراجع بعد أن قابل السيدة فاتيما، وأنه شعر أن من يترك وطنه من أجل فكرة ما، هو أشجع ممن يترك مهنته من أجل مهمة مثل ما ينوى، وأنه قرر أن يواصل مهمته ما أتاحوا له الفرصة لذلك، ثم انتبه أنه لم يقل حرفا من ذلك، انتبه على صوت أمين يقول:

. .. ما أوّلهُ شرط، آخره نورْ.

. تذكر يا أستاذ أمين أننى لم أعد إلا بالإخلاص والتفانى والوضوح، وقد يفيدنى فى نجاح مهمتى أن أعرف المطلوب منى تحديدا.

. عندك حق، فما أطلبه أنا غير ما تحلم به أمهم.

. ماذا تطلب أنت أولا؟

. أنا؟ ليس مهما ما أطلبه، إن كان علىَّ أنا: أرسل الأولاد ليتعلموا فى بلد أمهم، وأشترى لهم أى جنسية تضمن مستقبلهم، أو ليتجنسوا بجنسية أمهم مع أنها لا توافق، ويا دار ما دخلك شر.

... أنا آسف، لكن ما دام الأمر كذلك، ففيم نتكلم إذن؟

. أعني أن فكرة التكامل ومثل هذه الأشياء التى لا أفهم فيها كثيرا هى فكرة أمهم، بل إنها تقول إنها هى التى ربطتها بى، بمصر، وأنا على الرغم من عدم

الفهم، وافقت عليها، بل ربما استحسنتها، بل إنى ضبطت نفسى أتفرج منتظرا نتائجها، ثم التقت أحلامها، أو قل طموحاتها بفكرتك، أو مشروعك، أو اقتراحك،، هذا كل ما فى الأمر.

. فما هى فكرتها؟ .

. ألم تسألها أثناء غيابى فى الحمام؟

. طبعا ، ثم إنها قالت لى كلاما أربكنى، كلاما أنا السبب فى إثارته حتى أنى نادم.

. نادم على ماذا؟

. لم يكن يصح أن أفتح موضوع الدين أصلا.

. آه، فهمت، بد أنها قالت لك إنها لم تغير دينها.

قالها أمين ضاحكا وواصل.

. إنها تعتبر نفسها، ماذا أقول لك؟ شئ أشبه بما كنا نسمعه عن دين إبراهيم أو الحنيفية، هل سمعت عن مثل ذلك؟

. .... ملة إبراهيم حنيفا.

. ولهذا فهى تعتبر أنها لم تغير دينها.

. ولكن، تؤاخذنى... ... آسف دعنا من كل هذا، إذن فهى مسلمة.

. أكثر منى ومنك.

– أكثر منى نعم، ولكنك...ما علينا، هل أتجرأ وأسأل المزيد حتى أعرف بعض التفاصيل التى قد تكون زمة للتعرف على أية أرض أسير، إذا ما قمت بمهمتى للأود؟

. أرجو أن تكون عندى إجابات تنفع.

. ربنا يستر.

. يا رجل توكل.

–3–

أن من يترك وطنه من أجل فكرة ما، هو أشجع ممن يترك معتقده من أجل معمة

لم يعرف جلال كيف تجرأ وسأل عن كيف تعرفا، وكيف تزوجا، ولم يتصور أن أمين يمكن أن يحكى له كل ما حكى هكذا بأقل قدر من التردد، وهو يترجح بين الستمتاع وهو يحكى، والبتسام، والتعجب، وكأن الحكاية حدثت أول أمس، وليس منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

قال له إنها ليست قصة حب بالمعنى الشائع، وإنه لم يتعرف عليها أثناء سفره للخارج كما هو مألوف. قال له إنه تعرف على فاتيما عن طريق طبيبة كانت تساعد والده، تذكر جلال ما حكته منال عن والد أمين، الطبيب النفسى المعروف، فتابع ما يحكيه أمين وهو ما زال يتعجب من أن ينتهى ابن الدكتور عبد الحكيم نور الدين إلى أن يكون تاجر سيارات، حتى لو كان بكل هذه الثقافة والرشاقة والتحضر، وبعد أنه سأله عن ذلك بشكل ما، ذلك أن أمينا قال.

. تاجر سيارات والحمد الله، جاءت سليمة، هربت بجلدى من سنة ثانية طب.

. آسف ....، ولكن! يعنى، هل وافق والدك على هذا التحول؟

. رسبت ورسبت ورسبت حتى اضطر أن يوافق، كان هذا هو السبيل الوحيد لإقناعه، لم أكن أقصد، والتحقت بكلية التجارة.

توقف أمين عن الحكى، وتساءل بصوت مسموع عما استدرجهم إلى كل هذه التفاصيل، وما علاقة ذلك بما تقابلا بشأنه.

. هل ستكتب قصة أم ستبدأ دروسك للأولاد بتعريفهم كيف تزوج أبوهم أمهم، أو كيف تحول مسار أبيهم الدراسى؟

لم تمنع هذه الجملة العتراضية من أن يمضى أمين فى سرد تفاصيل كيف أنه التقط هو ومساعدة والده، الدكتورة إصلاح فاضل خطط والده الخفية (ثم اعتذر عن أنه ذكر اسمها ولكنه عاد وبرر وأعلن أنه لا يذيع أسرارا)، وأردف أنهما . هو والدكتورة إصلاح . اكتشفا أن والده كان يخطط لزواجهما من بعضهما بشكل أو بآخر، وذلك بعد أن فشل أمين فى استكمال دراسته فى كلية الطب، وقد رجحت الدكتورة أن أستاذها يريد أن يعوِّض فشله فى أن يمتد فى ابنه، بأن يحول امتداداته إلى الزوجة التى يختارها له، وربما إلى أبنائهما، وكلام من هذا.

. شئ معقد لم أفهمه كثيرا، كلام صعب كان يحلو لوالدى وللدكتورة إصلاح أن يتبادل اتهامات بمثل هذه اللغة.

أضاف أمين أنه كما ترك كلية الطب، تركت الدكتورة إصلاح والده ودارت 180 درجة هى الأخرى والتحقت بشركة للأدوية، وفتح الله عليها، وتوثقت علاقتهما، كمن يجد رفيقا له يهربان معا من ذات الخطر الذى يهددهما.

. خطر؟ أبوك كان خطرا؟

. لست أدرى، لكن الدكتورة إصلاح كادت تتهمه بالجنون أحيانا برغم أننى أقسم أنها كانت تحبه، ليس فقط كأستاذ لها ول حتى كوالد، كانت تحبه فعلا، وربما لهذا تركته.

. وأنت؟

حكى أمين أنه كان يحب والده، على الرغم من أنه كان غريب الأطوار، وافر الأحلام، مزعج الآراء، شديد التقلب، ورجح- بأدب- أن مهنة والده هى التى أفسدته.

. كان يريد لنا، منا، أنا وإخوتى وإصلاح وتلاميذه (كان كثيرا ما يميز بيننا) كان يريد منا، لنا، أن نكون غير الناس، أن نكون الناس الذين يتصور أن ربنا قد خلقهم على شاكلته، على شاكلة أبى أو على شاكلة ربنا، لست أدرى، قالت لى إصلاح مرة . بعد أن تركته، أوبعد ذلك أذكر، أنه غالبا كان يريد أن نحقق له ما فشل هو فى تحقيقه.

. يبدو أنها لم تنس المهنة بعد أن تركته.

. الغريب أنها كانت تعرف تماما موقع شركات الأدوية التى هربت إليها من فكر والدى.

. لعله نفس موقع تجارة السيارات.

. بالضبط، أنا وهى عملنا عكس ما كان يريدنا أن نعمل تماما.

توقف أمين عن الحكى وكأنه يراجع نفسه، وتعجب مرة أخرى كيف استدرج

إلى كل هذه التفاصيل، وعاد يسأل نفسه: هل حقا هناك علاقة بين المهمة التى جاء جلال من أجلها، وبين ما يحكيه؟ وكيف حكى كل ذلك لواحد يكاد يعرفه، مهما كان قد ارتاح له أو أحبه؟ ولماذا يشعر بالألفة هكذا مع هذا الشخص الغريب، القريب؟

قرر أن يختصر: فذكر كيف عرفته الدكتورة إصلاح على فاتيما ابنة رئيس مجلس إدارة شركة الأدوية التى تعمل بها، وكيف أن هذا التعرف كان فى مناسبة مؤلمة، رائعة، غريبة.

. كانت مناسبة تأبين شقيق فاتيما الذى استشهد فى فلسطين.

. نعم؟ نعم..؟

. استشهد فى فلسطين.

. هل أسلم هو الآخر؟

. وهل من الضرورى أن يسلم حتى يحارب مع الفلسطينيين ليحرروا أرضهم؟

. تقول استشهد.

. نعم، ماذا فى ذلك؟

. آه، صحيح ماذا فى ذلك؟ يحاربون معا، ويموتون معا، فلماذا يذهبون معا؟

أكمل أمين:

– أعتقد أن الدكتورة إصلاح، تصورت أن فى هذا الزواج ما يؤكد مزيدا من البعد عن أفكار والدى، لكننى فوجئت أن أفكار فاتيما هى أقرب إلى أفكاره!!، أفكار والدى.

. ماذا؟

. لعلى أخطأت التعبير، فوجئت أن أحلامها أقرب إلى أحلام والدى ("يعنى"!).

اقترب جلال أكثر، ليس من أمين، وإنما من حلم غامض مشترك، هل يمكن أن تأتى واحدة من أقصى ألمانيا لتتزوج واحدا، من أقصى مصر (الجديدة)،

لأنها تشارك أباه الذى لم تره أبدا حلما يقره ابنه الذى من ظهره، ومع ذلك تزوجها؟ ما هذا؟ يقول أمين إنها لم تكن قصة حب، كانت نوعا من الهرب اللذيذ إن صح التعبير السمج، لكن ما الذى جعل فاتيما تقبل نقيضها؟ هل رأت فى داخله أباه بحدْسٍ ما؟ صمت جلال صمتا طويلا نسبيا، وصمت أمين لنفس الوقت وكأنهما . فجأة . اتفقا على أن هذا يكفى. مع أن جلال راح يفكر فى الشبه بين جنونه وجنون هذا الطبيب الحالم، والد أمين وعلاقة هذا وذاك بشطح تلك المرأة القادمة من الشمال، هل هى نفس الدائرة تدور نفس الدورة فى تجليات مختلفة، لماذا تتعقد المسائل بهذه الصورة؟

قطع جلال الصمت متسائلا:

. وما الحل؟

. حل ماذا؟

فعلا. حل ماذا؟ انتبه جلال إلى أنه ليست هناك مسألة بذاتها يحاو ن حلها، وأنه جاء يتعرف على الأو د، أو يحدد الميعاد، أو يتفق على المهمة، ولم يجئ ليحل مشكلة الكون، أو ليعمل بحثا لمقارنة الشرق بالغرب، أو الأديان وبعضها، أو حتى منال بفاتيما.

استسهل جلال أن يهرب فى التساؤل الأول: إذا كانت فاتيما بكل هذا الحضور، والجمال، والإخلاص، والحيوية، والحرارة؟ مالذى يجعل "أمين" يرافق "منال" التى تفعل شيئا إ أن تتفرج عليه فى الفراش؟ هل هذا هو السبب الذى يجعله يغار منه على منال، ولكن بأى صفة يغار؟ لعله – أمين– مازال يواصل الهرب من أبيه؟ من فاتيما التى تمثله بشكل ما.

قال جلال فجأة:

. نرجع إلى موضوعنا، أريد أن أعد سعادتك إ بما أستطيع.

قالها جلال وهو يكاد يرجو أن تنتهى المقابلة بفض المسألة قبل أن تبدأ.

. بصراحة أنت صاحب الفكرة التى أفهمتنى منال أنها بالنسبة إليك محددة تماما.

(محددة ماذا ياعم، كان على منال أن تنبّهك إلى ما تعرفه من جنونى).

أضاف أمين وقد بدأ يتململ:

. المسألة أن ثم وجه شبه بين ما وصلنى من فكرتك، وبين ما تردده زوجتى أحيانا بشأن مصر، والأولاد، ومستقبلهم فى العالم الواسع، وكلام كبير من هذا، فلا تحشرنى فى الموضوع أكثر من ذلك، لعلى أخطأت، مسألة تغيير الأطفال، وتغيير الكون، مسائل تبدو لى مضحكة، لقد اكتفيتُ شخصيا بالدعوة إلى تغيير السيارات كل عام.

لم يعقِب جلال فمضى أمين متعجلا:

. أنا واضحٌ تماما، وهذه هى أهدافى، ليست لى أية علاقة بما تطمع فيه زوجتى أو كان يطمع فيه والدى، أو ما تخطط له أنت، كل ما فى الأمر أننى أعرف كيف أوزع الأدوار لأتفرَّغ لدورى شخصيا، اعذرنى وسوف أناديها لك تتفق معها على الوقت والنظام، حتى أكمل ارتداء ملابسى.

الخوف الذى طرأ على جلال كان جديدا، كان كمن أفاق فجأة على أمر لم يكن واضحا بدرجة كافية، هذا الرجل، الأولاد، الحلم، مصر، ألمانيا، إيش أدخله هو فى كل هذا؟ لماذا صدَّقته منال؟ لماذا قبل أمين؟ مَنْ فاتيما هذه؟ ماذا يريد هذا الرجل لأولاده؟ ماذا تريد هذه الخوجاية؟ ماذا يريد هو؟ هل الأولاد لعبة؟ حقل تجارب؟ أى نموذج هو يسعى إلى تحقيقه معهم؟ مثل من سيكونون؟

نطق الجملة الأخيرة بصوت مرتفع، كانت فاتيما قد حضرت دون أن يشعر، ويبدو أنها سمعت الجملة الأخيرة وقد قالها بصوت عالٍ، قالت:

. أريدهم أن يكونوا مثل أنفسهم.

. يعنى ماذا؟

. أعرف، لقد تركتُ بلدى وجئت مصر لأعرف .

تعرف هى أو تعرف، هو ماله؟ ما الذى أتى به إلى هنا؟ وكيف تحدث إليه أمين وكأنه صديق قديم؟ هل تذكّر أمين والده من خلال شئ ما فى مشروعه لتعليم الأطفال؟ ماذا قال هو بالضبط هل هو الشطح أم الخيبة البليغة؟ ليس يدرى، ربما كلاهما، يشك جلال أن"أمين" قد حكى أيا من هذا الذى حكاه له لأحد قبله، كان يحدث نفسه، خيل إلى جلال أن"أمين" هذا تجنب مثل هذا الحكى سنين كثيرة، ربما طول العمر، فما الذى جعله يحكيه هكذا لشخص يعرفه، ربما هو فعل ذلك؛ لأنه يعرفه، وهل جلال هو الذى يعرفه؟ هل جلال يعرف جلا؟ كان منذ قليل يسأل فاتيما عن أولادها تريدهم مثل من، وهو شخصيا؟ .جلال نفسه، مثله مثل من؟

صحفى وخاب، زوج فاشل، شخص مهزوز، لم ينجح فى أن يتخلص من إيمانه، و هو نجح فى أن يكتشف إيمانه، دروس ماذا وهباب ماذا؟ . لن يسمح لنفسه أن يضر أحدا، يقسم بالله أنه لن يضر أحدا، خصوصا الأطفال، لن يستطيع وحده أن يقاوم كل هؤلاء: الحكومة والنقود والناس والأشباح، والمشايخ والمثقفين والسبعينيين والثوار والتنويرين ومناديى السيارات. هل هو يستسهل؟ هل هو يضع همه وحلمه فى الأطفال المادة الخام التى تقاوم؟ كيف تصور أن تنظيم دماغ طفل أو عدة أطفال سوف يقف فى مواجهة كل ذلك؟ كان غيره أشطر، طاغور، جارودى أو حتى بيجوفتش، قال تدريس لغات قال!!؟ هل هذا هو الذى سوف يفك الشفره بين الإنسان والطبيعة؟

الله يخيبه.

طيب، ماذا لو اكتشف أنه لو وصل إلى فك شفرة هذا الحوار فإنه سوف يجد نفسه متورطا فى إيمان ليس هو قدره، لم يستعد له، وحتى لو نجح فى أن يتقبله مضطرا مستسلما فرحا مرعوبا، فمن أين يأكل؟ مثل هذه الدروس الخصوصية توكِل عيشا، وهو يحاول أن يقنع نفسه أنه مستعد أن يبيع نفسه بالقطعة لصحف الخليج، حتى يتمكن من دفع الإيجار، وفاتورة النور، وسداد بعض الأقساط المتبقية التى تورط فيها بسبب زواجه الفاشل، ولكنهم يشترون أمثاله.

. 4 .

مال أمين على أذن جلال وهو يودعه:

. سلم لى على منال إذا قابلتها قبلى.

التفت جلال إليه دون انزعاج، ودون فهم، ورد.

. الله يسلمك.

وقبل أن يغلق أمين الباب استدار جلال إليه فجأة، وكأنه نسى أمرا مهما وسأله:

. قل لى: هل تزوجت الدكتورة؟

دهش أمين، وتساءل:

. أية دكتورة؟

. الدكتورة إصلاح.

قهقه أمين عاليا وسأله فى سرور باد:

. لماذا؟ هل تشاور عقلك؟

ابتسم جلال، واعتذَرَ، وعرِقَ، وادّعَى المزِاحْ، ونزل السلالم عدوًا.

الأحـــد 2018-07-29

العدد: 3984 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") الفصل الخامس: "أبو النمرس"

أن الحاضر هو الشئ الوحيد الممكن

قبل المقدمة : (من بريد الجمعة: أول أمس)

أنا أسف

يبدو أن نشر الرواية مسلسلة، خاصة الجزء الثالث "ملحمة الرحيل والعوْد" فى هذه النشرات اليومية هو ضد التلقى الأشمل.

أنا اسف،

وأعتقد أنه سبيل للتوقف أو للتراجع

وعموما فالرواية بأكملها متاحة إلكترونيا وورقيا لمن شاء[1]

مقدمة:

نواصل اليوم نشر فصول رواية" ملحمة الرحيل والعوْد "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثالث :من ثلاثية" المشى على الصراط."

وهذا هو الفصل الخامس

"أبو النمرس"

-1-

لم يكن يعلم أن فى مصر من الأهرامات عشرات، وقيل مئات، كانت معلوماته تقتصر على أهرامات الجيزة وهرم سقارة. قد يكون ذلك مرتبطا بعلاقته بالآثار عموما، وبآثار مصر خصوصا، بل ربما بالماضى كله، هو يخجل من إطالة النظر إلى ما يسمونه آثار قدماء المصريين، يغار، □ يجرؤ أن يتحدى، يقف عاجزا، فيصرف النظر، كأنه يريد أن يثبت لهؤ□ء الناس، أو لنفسه أن الحاضر هو الشئ الوحيد الممكن، حاول أن يقنع نفسه مرارا بما يردده الناس عن عظمة الأجداد، الإتقان القديم، البحث عن الجذور، الحرص على الأصالة، كلام كله صحيح، لكنه □ يهمه، ليس من شأنه، كان . ومازال . يفضل النظر إلى الحجارة والرمل والطين التى لم يمسسها بشر، يخلق منها ما شاء كيف شاء. كانت منال قد عرَّفته بأخيها غير الشقيق: أنور إبراهيم الطيب الذى يمتلك كافتريا صغيرة فى دهب يسميها "الجامعة"، تعلم أنور من هذه الكافتريا – كما تقول منال – ما لم يتعلمه فى الجامعة التى هجرها غير آسف: يمتلك أنور عربة صغيرة يسميها الكتكوت المفترس، أطلق عليها هذا ا□سم ليرد به على اسم آخر أطلقه الشارع المصرى عليها حين أسموها "قفا الصعيدى"، ماله قفا الصعيدى، ربما كان هكذا ليزن مخه العظيم، مثل مؤخرة المرأة الحامل التى تنمو إلى الخلف مع بروز البطن للأمام، حتى □ تقع الأم، هو يسافر مع أنور كلما دعاه إلى رفقة طريق، يحب هذه الرحلات المتباعدة، أرخص وأطيب، تتيح له حوارا مع أنور الذى هو صديقه بمعنى ما، جلال ليس له أصدقاء، اللهم إ□ إن كان هناك شئ اسمه: "صداقة تحت الطلب" (رميس)، كان يتحاور مع أنور ومع الطبيعة فى نفسٍ واحد، أتقن أنور لغات أجنبية كثيرة أهمها العبرية، يحدثه فى الطريق

عن مصر أخرى غير مصر قدماء المصريين، وغير مصر "حلم فاتيما". حين تضيق بجلال الحال، وتتأخر دعوة أنور، يركب إليه أتوبيس منتصف الليل ويشد الرحال إلى أسيا الصغرى ليعيش هذا الحوار الحى بين الجبل والبحر، يتأمل أنور فى كافيتريته الصغيرة وهو يحادث اليهود والألمان والروس والطليان وبعض الإنجليز أو الأمريكان، ليس متأكدا، يشعر أنه يتابع جلسات مناقشات منتجع الشعوب المتحدة، □ يملك أحدها دون الآخر حق الفيتو، يتعرف على بدو سيناء أعمق، يتعجب أن كل من يعيش هناك، بغض النظر عن موطنه الأصلى، يصبح مثلهم، هذه البداوة الذكية العارية مُعدية، طعم الحبق على الشاى حاجة ثانية، أثناء جلوسه بجوار أنور فى السيارة، وبعد أن يكف أنور عن تساؤ□ته وتفاؤله وإصراره، يصمتان فجأة وكأنهما اتفقا على ذلك، قد تمر ساعة كاملة فى هذا الصمت المفعم دون فتح مذياع السيارة أو سماع نوال الزغبى، أو فريد الأطرش أو كاظم الساهر، يحدث ذلك عادة بعد الفشل فى التقاط محطة إذاعة غير عبرية وغير سعودية، يجلسان ليهمس الصمت بما يشاء، تغلب فترات الصمت هذه وهما وسط سلاسل الجبال التى يتحدى جلال أن يكون فيها سنتيمتر مربع مثل الآخر، هو □ يستقبل الجبال ليرصدها كما هى، هو يخلّق منها ما تقول، تتشكل الآثار الحية كل مرة مختلفة: طريق الكباش، مسلات متجددة، أبو الهول، آباء كثيرة للهول، يا للهول، لم يحب يوسف وهبى إ□ فى أدواره الكوميدية، تعاوده تساؤ□ت عن إيمان عبد الوارث عسر فى السكرتير الفنى"، يلح عليه شوق إلى هذا النوع من الإيمان السهل، ربما مثل إيمان عبد المعطى أو وردة، ربما هو نفس الشعور الذى يتجلى فى فترات الصمت بجوار أنور وسط الجبال، يروح يخلق من كل جبل هرما، ومن كل لون لوحة، ومن كل صخرة أثرا. سرعة السيارة الصغيرة تسمح له بإتقان التشكيل الذى يختلف حسب مسافة البعد عنه، كان يحب أن يغرى صديقه أنور بالمرور على سانت كاترين أثناء الذهاب أو الإياب، إ□ أنه بعد أن شاهد ما آل إليه نخيل وادى فيران عدل عن ذلك

يفضل النظر إلى الحجارة والرمل والطين التى لم يمسسها بشر، يخلق منها ما شاء كيفما شاء.

واكتفى بزيارة الشيخ الضرير فى وادى جنّىّ فى دهب، كلما رضى "فرج" أن يصحبهما إليه.

هو الذى اختار أن يزور محمود عبد السلام شقيق ثريا فى هذا المكان الذى يعده محمود للانتقال إليه بعد أن أخذ إجازة مرضية طويلة تمهيدا ستقالة يخطط لها، صعب أن تستقيل من الخدمة الرسمية فى البوليس، محمود يكرر دائما أنه لم ينقذه من الأمن المركزى إ انتدابه لمهمة البوسنة، وحين عاد . أيقن استحالة استمراره فى خدمة الحكومة، هذه الحكومة، أو أية حكومة. كلم أناسا كثيرين مهمين قدروا موقفه فى خدمته بالبوسنة، ووعدوه بالمساعدة، هذا بعض ما حكته له ثريا عن أخيها محمود مصادفة، شجعته مكافأة خدمته فى البوسنة على أن يستقيل، ليستقل عن كل ما هو ليس كذلك، ليس ماذا؟ لم يحدد، لكن هذا هو ماخطر بباله، كانت المكافأة كبيرة تكاد تعادل كل ما حصل عليه طول مدة خدمته، الشهادة التى أعلت من شأنه وجعلته يأمل فى قبول استقالته، كانت بشأن دور صغير قام به هناك حين أغاث، بتلقائية مصرية عفوية، طفلا صربيا، فحال دونه والضياع أو الخطف، ظروف أقرب إلى المصادفة، لم يقصد، ولم يتمنظر، ولم يدّع، ولم ينتظر مكافأة، كان طفلا خواجه مثل كل الأطفال، هذا ما سوف يحكيه محمود لجلال فى الزيارة الثانية بعد إلحاح، الطفل عمره ثلاث سنوات، كان الطفل يبكى بحرقة ويقول كلاما بالخواجاتى، ولم يخطر على بال محمود أصلا . أن يعرف هويته، صربيا كان أم مسلما أم كرواتيا، الطفل طفل، والخواجة خواجة، والمسلمون هناك كلهم خواجات، نفس العيون الزرق ونفس الشعر الأصفر، ونفس الطفولة الباكية المتلفتة الباحثة عن أهلها أو من يقوم مقامهم، فقام مقامهم، تحتاج هذه المسائل إلى اتفاقية دولية للتبنى المؤقت للأطفال، وهى تشترط السؤال عن انتماء الطفل و عن هوية أو دين من يستغيث فيغاث، يحكى محمود الحكاية دون زهو خاص، كيف أنه دهش لدهشة أهل الطفل من الصربيين لما اهتدوا إليهم من خلال حل رموز كتابة على "تعليقة" فى

الابتسام لغة، والأحلام كذلك، لغة عالمية لا تحتاج إلى ترجمة.

سلسلة حول عنق الطفل، لم يصدقا، كانا والدين: "خواجة وخواجاية" مثل أى "خواجة وخواجاية"، قا كلاما كثيرا لم يفهمه محمود، وأخذا عنوانه، وسجلا أشياء يبدو أنها كانت عرفانا أو ندما أو اعتذارا عما تعمله الفئة التى ينتمون إليها، هذا ما أبلغه محمود لجلال فيما بعد دون تفاصيل، كان بوده لو أنه وصف له شعوره وهو ينام والطفل فى حضنه يبتسم ثم يقهقه وهو نائم، بد أنه كان يحلم، ابتسام لغة، والأحلام كذلك، لغة عالمية تحتاج إلى ترجمة، حصل محمود على تقدير لم يقصد إليه أصلا، وسُجل الحادث فى ملفه، وقيد اسمه فى سجل شرف ما بالأمم المتحدة، وقد يكونون قد أرسلوا إلى رئاسته فى مصر خطاب شكر أو إشادة، هذا ما استنتجه حين قالوا له إن ما فعله فى البوسنة، مما شرف مصر، قد يكون هو شفيعه أن تقبل استقالته، ليتفرغ.

. تتفرغ لـ "ماذا" يا محمود؟ .

. لهذا يا جلال، ستة أفدنة من أجود أراضى جرزة، صحيح هى بور الآن، لكنها أرض الوادى، ومعاش ومكافأة، ودخل متواضع من نصيب فى صيدلية، ماذا يلزمنى غير ذلك؟ أريد أن أبتعد عن القاهرة، وعن الكذب، وعن الكفر وعن سرطان اللهاث نحو ما ندرى.

. أنت لستَ مزارعا أصلا يا محمود، والفلاحون صعب، فكِّر كثيرا قبل أن تستقيل.

. لقد فكرت ما فيه الكفاية، إما أن أستقيل، وإما أن أعود إلى البوسنة، حتى بشكل غير رسمى.

. تعود إلى أين؟ وهل البوسنة خالية من الكذب، ومن الكفر، ومن العفن، ومن اللزوجة، خصوصا بعد اتفاقات "النصف كم" التى تمَّت مؤخرا، والمعونات المشروطة سرا أو جهرا.

. أعرف، أنا فاهم تماما أن خبرتى هناك كانت لها ظروف خاصة، أنا

أعرف أنهم أول ما يستقرون، ويتمرغون فى نقود المعونات، ويقبلون شروط الإعمار الظاهرة والخفية، سوف ينسون دروس الحرب على الجانبين، وسوف ينسون سلوبودان، وينسوننى، أعنى ينسون علاقتى بسلوبودان.

ـ يا خبر أسود، علاقتك بمن؟

. بسلوبودان، هذا هو اسم الطفل الصربى، صديقى الذى حكيت لك عنه.

. اسمه سلوبودان ميلوسوفتش؟ .

. ميلوسوفتش مَنْ يا جلال؟ سلوبودان يعنى سلوبودان، هو اسم مثل محمد أو أحمد أو فرج، أ يوجد سلوبودان إ وهو ميلوسوفتش.

. آه صحيح، كم قاتلا وقوادا ونصابا عندنا اسمهم محمد.

كم قاتلا وقوادا ونصابا عندنا اسمهم محمد.

-2-

على الرغم من أن محمود هو شقيق ثريا، وأن ثريا كانت زوجة جلال، إ أن جلا لم يعرف محمودا من قبل هكذا، حتى المرات القليلة التى جاء يزور أخته فيها كان جلال يتجنبه؛ ربما لأنه ضابط، جلال لم يحب الضباط أبدا، بل إنه يخاف من كل من هو ضابط، أو كالضابط، مرور، مباحث، جوازات، إمام وخطيب، أى ضابط، حين انفض الزواج (ربما قبل أن يبدأ) نسى أن لثريا أخا ضابطا، وحين عادت تذكّرِه بأخيها كان ذلك بمناسبة تواصل حديثهما الذى لم ينقطع أبدا عن مراجعة الإنكار واحتما ت العودة إلى أصل الأصول.

. عودة إلى أين يا ثريا؟ إلى من؟ نحن نعرف كيف نعود لبعضنا، وأنت تتكلمين عن العودة إليه، ألن تعقلى أبدا؟ وأين تركناه حتى نعود إليه؟

. مازلتَ كما أنت ياجلال، عنيد حتى الغباء.

. أنت تضحكين على نفسك يا ثريا. أنا أتكلم جدّا، أريد أن أعرف محمودا لأعرفك أكثر، وربما أعرفه أعمق، أنا لم أقابله أبدا بصفته ضابطا، أنا أخاف الضباط كما تعلمين.

. اطمئن، يبدو ان الله سيتوب عليه؟.

... هل سيفصلونه بالسلامة لحسن السير والسلوك؟

. هو الذى طلب ذلك، ألم أقل لك؟ هل نسيت؟ هو يقول إن رغبته تلك لها علاقة وثيقة بالموضوع ذاته.

. أى موضوع؟

. موضوع ربنا، وأمريكا.

. وإيش أدخل أمريكا فى ربنا؟

. يا شيخ ! تستعبط؟! محمود أيضا على يقين من أن أمريكا ضد ربنا.

... كنا نصر على أن روسيا وأخواتها هم الذين كانوا ضد ربنا.

– يبدو أنهم كلهم ضد ربنا؟

. ونحن؟ .

. إيش عرفنى.

رتبت ثريا بعد ذلك هذا اللقاء الذى اختار له أخوها أن يكون فى "الموقع"، كأنه معركة حربية، أو على الأقل لقاء تدريب على الذخيرة الحية.

قال له محمود بعد أن رحب به بطيبة تتناسب مع موقف جلال غير المعلن.

. إذن فالموضوع يهمك.

اعتدل جلال على المصطبة المتهدمة تحت العريشة التى كانا يجلسان عليها معا خارج الدار المتواضعة التى يعدها محمود لهجرته. رد جلال:

. لو أنه يهمنى ما حضرت إليك هنا بالذات.

. إياك أن تكون على وشك عمل موضوع للنشر فى الصحافة، لقد أخبرتنى ثريا أنك تفكر أنت أيضا فى ترك الصحافة.

. يعنى.

. يعنى ماذا؟ لماذا؟

. يبدو أن الصحافة هى التى تركتنى، أصبح ما أكتبه يصلح لها، وما تنشره الصحافة يصلح لى.

. إن ما تنشره الصحافة يصلح لأحد على كل حال، ولكنى قرأت لك مؤخرا شيئا فى الأهرام، على ما أظن، عن التعليم أو عن المدارس أو عن اللا مدارس، أذكر، كان كلاما صعبا لكنه رن فى داخلي؛ ربما لأنه يتعلق باستقالتى المأمولة.

. هل قرأت المقال حقا؟

.– نعم، ماذا يدهشك فى هذا؟

. تصور أن أحدا لم يكلمنى عنه إ صاحب معرض سيارات تعرفتُ عليه مؤخرا، كان آخر من أظن أنه يمكن أن يقرأه أو يعلق عليه، ذهبت إليه وأنا متصور أننى سأقابل أحد الأثرياء الجدد، وهو يضع كرشه أمامه، وسلسلة ذهبية تتدلى حوله، وإذا به شئ آخر، شخص آخر فعلا.

. شخص آخر، لمجرد أنه قرأ مقالك؟

حكى جلال لمحمود عن سبب مقابلة أمين، وعن مشروعه وهو يزمع أن يترك الصحافة، وعن تصوره عن دور اللغة فى تشكيل الأطفال، ومصر، و... والدنيا.

. يا خبر، كنت أتصور أننى وحدى الـ... الـ...

. المجنون؟

. هكذا يقول لى كل من أعرف حين أعرض عليهم مشاريع ا ستقالة والزراعة.

راح كل منهما يحكى للآخر حتى نسيا سبب المقابلة إن كان لها سبب، تأكد محمود أنه لم يعرف جلا أبدا قبل ذلك،، كذلك جلال راح يكتشف محمودا من جديد.

. لم تكن هكذا عندما تزوجت أختى. أنا أدعى معرفتى بك بما يكفى، لكن هذا ما،... لست أدرى ما...، ماذا.....، لم تكن هكذا على أية حال.

. أختك تقول عكس ذلك، وتؤكد أننى لم أتغير أبدا.

. ربما..، هى تعرفك أكثر منى.

يبدو أن الصحافة هى التى تركتنى، أصبح ما أكتبه لا يصلح لها، وما تنشره الصحافة لا يصلح لى.

. وأنت أيضا لم تكن "هكذا" عندما خطبت أختك.

. أذكر أنك خطبت أختى. أنتما تزوجتما. "هكذا" فقط.

صمت جلال فجأة، كذلك محمود، ويبدو أن أمرا واحدا كان يشغلهما كل بمنطقه الخاص، بدا أن الكلام يباعد بينهما.

ومع ذلك عاد محمود يسأل:

. تصعِّب على الأمور، ما مشروعك بالضبط؟

. مشروعى متواضعُ.. وعملىّ، يعتمد على ترتيب مخ صغار التلاميذ من خلال تصحيح اللغة، إننا بدون تنقية اللغة والتصالح مع جذورها منذ الصِّغر، أمل فى الكبار،الأمل فى الأطفال، مستقبل البشرية.

. يا صلاة النبى! ما هذا الكلام الذى تقوله؟ تريد أن تصبح "مدرس لغات خصوصى" بدرجة نبى.

. إن ما جعلك يا محمود تضع ذيلك فى أسنانك وتأتى إلى هنا يجعلنى أتصور أنك أدرى بطبيعة ما أنوى أن أفعله.

. فى عز الحرب والإبادة واغتصاب، ووسط اللهجات والأصوات المحيطة بنا هناك،فى البوسنه، تصورت أنه يوجد حل إ أن نبدأ من جديد.

. نبدأ ماذا؟

. نبدأ أى شئ، وكل شئ، حتى لو كان مثل الذى تريد أن تفعله يا جلال بمشروعك الخائب هذا، وربما مثل ما أورِّط نفسى فيه هنا، يبدوأنه وباء جديد، ادعاء النبوة دون إعلان.

. ربما!!.

مرة أخرى صمت كل من محمود وجلال وكأنهما اتفقا على ذلك، كاد جلال يلمح، أو يتصور . أن عينا محمود اغرورقتا، ففرك عينيه هو، وأحس . أو تصور . أن يديه ابتلتا من أثر مسح عينيه، أزاح وجهه بعيدا وراح ينظر فيما حوله من معالم بدائية، يوجد فى هذه الأرض ما يشير إلى أى احتمال معيشة أسرة،

متوسطة، محترمة، العريشة التى يجلسون تحتها تكاد تنهار، والمصاطب متآكلة، لكن النخل عريق، نخلات متفرقة لكنها تبدو عملاقة، غير غابة النخيل فى "أبو النمرس"، وغير جذوع النخيل الخاوية فى وادى فيران.

. وهل تنوى ا□نتقال بأسرتك يا محمود إلى هنا إذا قبلوا استقالتك؟

. طبعا،....، يا ليت!.

. طبعا شئ، ويا ليت شئ آخر.

. أنا مرتبك يا جلال، بصراحة □بد من حل.

. "ما □ نعرف" هو الحل.

لم يضحك أى منهما.

-3-

أثناء حديثهما عن كيف سيدبر محمود نفقات معيشته حكى محمود لجلال كيف أن صديقا أو "معرفة" لوالده عبد السلام المشد، باع لوالده نصيبا فى صيدلية، الثلث تقريبا، وذلك حين اضطر هذا الصديق أن يدبر مصاريف هجرة أو□ده إلى كندا، وأن والده كتب هذا النصيب باسمه دون ثريا التى لم تتكلم فى حقها أبدا، لم يتوقف جلال وتذكر أن ثريا لم تعد زوجته. مضى محمود يوضح كيف أنه لم يتصور يوما أن هذا النصيب سوف يكون أحد مصادر رزقه التى تؤمنه وهو يغامر ليستقيل، وحين تطرق الحديث عن موقع الصيدلية، وأنها فى "أبو النمرس"، قفزت إلى جلال ذكريات يوم عيد ميلاده، أو مولده، فاقترح أن يكون لقاؤهما التالى أمام تلك الصيدلية ثم ينطلقا إلى حيث يتفقان بعيدا عن القاهرة وعن جرزه أيضا، كأنها أرض محايدة. أو لعل جلا□ أراد أن يتأكد أن ما يقوله محمود ليس خيا□ يطمئن به نفسه، أو لعله حنّ □نطباعات الطريق فى ذلك اليوم الطويل الخاص، الأمورعائمة وغامضة، وكل منهما يتهم الآخر (ظاهرا وباطنا) بالشطح، وكل منهما يأتنس بشطح الآخر فى ذات الوقت، ثم يتظاهر بأنه يحاول أن يعيد صاحبه إلى موقعه، وكأنه ينبه نفسه إلى موقعه هو بتحديد موقع أقدام الآخرعلى أرض الواقع.

مشروعى متواضعٌ.. وعملىّ، يعتمد على ترتيب مع صغار التلاميذ من خلال تصحيح اللغة، إننا بدون تنقية اللغة والتصالح مع جذورها منذ الصِّغر، لا أمل فى الكبار،الأمل فى الأطفال، مستقبل البشرية

تقع صيدلية "المحبة" قريبة من محطة الميكروباص أمام السور الشائه الذى بناه بنّاء يكره نفسه، تنفيذا لتعليمات رئيس مجلس مدينة يكره الناس، أثناء مرور الميكروباص الذى أقله إلى هنا، أطل جلال من النافذة فى محاولة أن يلمح عبد المعطى أو وردة أو بنتها، هو يريد أن يتزود من أى منهم بشئ يعينه على هذا اللقاء، لكنه لم يلمح أحدا منهم. وصل إلى الصيدلية قبل الموعد بأكثر من نصف ساعة، الصيدلية مفتوحة نصف فتحة، "الصبى الرجل" يكنس أمامها بكسل يتفق مع نسائم الصباح المنعشة التى لم تتراجع أمام القبح الفج.

دخل جلال إلى الصيدلية ولم يجد أحدا، فأخذ يتلفت حوله ليتأكد من أن الأرفف مليئة بما تمتلئ به، نظر إلى الطاولة ذات السطح الزجاجى والحوامل واقفة على بعض أطرافها، وفيها كل ما ليست له علاقة بالطب والدواء: أمواس حلاقة، مناديل ورقية، روائح عطرية، لم يعد هناك فرق بين صيدلية وسوبر ماركت، ومحطة بنزين، كله على كله، اطمأن إلى أن نصيب محمود فى هذه الصيدلية –إن صح كلامه– يمكن أن يكفيه هو وأولاده حين تنهار أحلامه فى مشاريع جِرْزَة الوهمية، ما له هو؟ ما رآه فى فدادين محمود الستة يبشر بخير، صحيح أن معاش أى ضابط صغير أكبر من مرتب مدير عام، لكن الأسعار تقفز كل يوم، والأولاد يكبرون – فجأة تذكّر جلال ثريا وتساءل: هل تعرف شيئا عن نصيبها؟ وهل هناك نصيب أصلا؟ ثم ذكر نفسه بخجل شديد، ورفض كذلك، أنها لم تعد زوجته– ثم إن ثريا لم تكلمه أبدا فى شأن هذه الصيدلية. هو ماله؟ عجيبة،!!! منذ متى تشغله هذه المسائل!!.

خرجت الموظفة، أو الدكتورة أوالمديرة، يدرى، من وراء باب داخلى صغير. سمراء، نصف جميلة (وليست نصف قبيحة)، يرتسم على وجهها مشروع ابتسامة جاهزة للتشكل حسب تعبير وجه الزبون، وربما نوع ثقافته، أو برج مولده، أو موطنه الأصلى، حياها فى تردد ولم يسأل عن محمود عبد السلام المشد، يبدو أن هناك أية علاقة بين هذه السيدة وبين نصيب محمود المزعوم فى هذه

الصيدلية، طلب شريط ريفو، فأحضرته بابتسامة تتناسب مع تفاهة الطلب، شكرها، ودفع، وخرج.

كان "الصبى الرجل" قد أنهى مهمته خارج الصيدلية. نظر جلال فى الساعة فوجدها التاسعة وعشرين دقيقة، الميعاد الساعة التاسعة، ما الحكاية؟ نظر إليه الصبى الرجل، خيل إليه أن السيدة الدكتورة فى الداخل تتابع خطواته على الرغم من أنه بعيد عن مجال بصرها، يبدو أنها تشك أنه من مباحث التموين، أو ربما من رجال الضرائب أو مفتشى مكتب العمل. عندها حق، ما الذى جاء به فى هذه الساعة المبكرة ليطلب شريط ريفو؟ اتجه فى ا□تجاه المؤدى إلى شبرامنت خوفا من أنه لو اتجه الناحية الأخرى فقد تجرجره قدماه إلى المزلقان حيث وردة وعبد المعطى.

التفت يسارا فجأة نحو مشهد قفز مقتحما وعيه: طفل حول العاشرة، رث الثياب، يضع ذيله فى أسنانه ويجرى بأقصى سرعة، ثم رجل حول الأربعين يلاحقه مع ا□حتفاظ بالمسافة، ربما قصدا، حتى □ يلحق به . يعبر الطفل الكوبرى الصغير المتهدم جانبه، والرجل يصيح به ويلعنه – يبدو أنه أبوه.

. والله لأوريك يا ابن الكلب.

سمع صوت موتور"الموتوسيكل" الحكومى وهو يتصاعد، يمتطيه أمين شرطة متحفز مستعد (لشئ ما)، وهو يتجه نحو الرجل وابنه (ربما هو ابنه فعلا) وكأنه يتابعهما، خيل إليه أن صوت الأمين جاءه وسط ضجيج مركبته يهدد أحدهم:

. عندك يا بن الشر....، لم يسمع جلال بقية الكلمة، لكن الموتوسيكل تجاوز كلا من ا□ب وابنه بسرعة فائقة:

"من يورى من: ماذا؟".

لماذا تأخر محمود؟ ولماذا يأتى أصلا؟ ولماذا هذا الميعاد هنا هذا الصباح؟ هل كان جلال ينوى أن يحاول أن يثنيه عن ا□ستقالة؟ بأية صفة؟ زوج أخته؟ هو عمره ما كانت له زوجة حتى يكون لها أخ يشعر إزاءه بهذه

المسئولية، مسؤول بصفة ماذا؟ هو يقاربه فى العمر، ثم إن أخت محمود هذه لم تعد زوجته، أصبحت أقرب من الزوجة وأبعد من الحبيبة، ثم إنه أصبح يشك فى كل ما هو زواج، يبدو أنها إشاعة أكثر، هل فاتيما زوجة أمين؟ منال أنصحهن، ترافق من تشاء اتقاء للزواج، فلا هى ترافق و هى تتزوج، و هو يكف عن حبها، و هى تكف. كل البيوت فى هذه المدينة داخلها زوجات وأزواج يعيشون فى التبات والنبات وينجبون صبيانا وبنات، السبعينيون أيضا يتزوجون ويتطلقون، حين خُيِّروا بين الحرية والقهر اختاروا الحرية، ثم انتهى الأمر إلى أنهم استعملوها –الحرية– ليقهروا أنفسهم بمعرفتهم، وجدوا أنفسهم – بكامل اختيارهم– فى سجن القهر الذكر، فهل من مدَّكِر؟ من أين تأتيه هذه الآيات دون استدعاء؟ كان عمه سليمان يقرأ القرآن يوميا بصوت جميل فى هدوء رائق، كان يكثر، وكانت أمه يشرق وجهها دون أن تفهم حرفا، ويبدو أنه قد وصلته هذه ا ستشهادات القرآنية التى ترد إليه هكذا من ذاكرة كانت تلتقط ما تريد من وراء ظهره، يبدو أن أعمق ما تعلمه كان من عمه سليمان، فى سنواته الأولى جدا، حين كان يحتويه فى عباءته وهو يقرأ القرآن.

نظر فى الساعة فوجدها تقترب من العاشرة، ليس ممكنا هذا، بد أن يخرج من المشوار بشئ ما، عاد إلى الصيدلية، تردد قبل أن يدخل ثانية، عرف أن الدكتورة سوف تشك فيه هذه المرة أضعافا مضاعفة، ولكنه لم يملك لرغبته دفعا، ثم من أدراه؟ أ يجوز أن يكون محمود قد حضر أثناء تمشيته على شاطئ الترعة، همهم بصوت خافت:

. ألم يحضر محمود عبد السلام؟ ألم يسأل عنى؟

فوجئت السيدة (ربما الآنسة) الدكتورة (فى الأغلب) بسؤاله هذا الذى قفز منه بصوت مرتفع. التفتت إليه حتى واجهته وقد أخذت حذرها الناحية الأخرى.

. خيرا، ماذا تقول يا سيدى، هل تخاطبنى؟ هل نسيت شيئا حضرتك؟

. .. أبدا، أردت فقط أن أسأل عن صديق كان مواعدنى على اللقاء هنا.

. صديق؟ هنا؟ بصفة ماذا و مؤاخذة؟

. آسف، بد أن أكون أكثر وضوحا، المسألة أن لى صديقا زعم أنه يملك نصيبا ما فى هذه الصيدلية، وهو على وشك عمل مشروع ما، فتواعدنا على اللقاء هنا، مجرد مكان يمكن التعرف عليه.

. سيدى، يبدو أنك رجل طيب، إياك أن تكون قد وقعت فى يد محتال يريد أن يبيع لك الترام!!.

. ترام ماذا، إنه قريبى، أعنى كان قريبى، وأنا مشغول عليه.

. كان قريبك !! وهل للقرابة عمر افتراضى؟ ثم إنى أريد أن أتدخل فى شئونك الخاصة، وليس عندى مانع أن أخبرك ما أعرف، أنا أشم رائحة خدعة، بل اسمح لى، أنا أشعر أن فى الجو جريمة نصب، احتمال يعنى.

. .. .. أبدا.

. هل أنت متأكد أنه قال لك إن هذه الصيدلية، صيدلية المَحبة، له فيها نصيب.

. طبعا، وهو الذى أعطانى العنوان.

– يا سيدى هذه صيدلية خالى مائة فى المائة.

توقف وتردد وتراجع وقرر أن يغيّر الموضوع حرجا أوهربا أو بدون سبب، وطلب باستيلية حتقان الزور فأعطته إياها وهى مازالت ترفع حاجبيها محذرة، بدأ العرق يتسحب إلى مسام جلده دون أن يظهر، ما هذه الورطة التى أوقعه فيها محمود هذا الصباح دون أن يحضر؟ ماله هو واستقالته؟ يريد أن يطمئن عليه؟ هل هذا كلام؟ من الأولى بالطمئنان على الآخر؟ إن حالته ألعن من حالة محمود ألف مرة، يستبعد فعلا أن يكون قد تقمصه لدرجة أنه يريد أن يرى مخاطر مشروعه هو، مشروع الدروس الخصوصية، من خلال التيقن من شطح المشروع الآخر، مشروع الهرب إلى جرزة، وما دخل هذه الدكتورة التى راحت تفهِمُه بوضوح وتكرار كيف أن الصيدلية ملك خالص لخالها، وتحذره من احتمال تعرضه لعملية نصب كبيرة؟ لم يساوره الشك فى كلام محمود، ومع ذلك سأل وهو يغادر:

– إذن فهذه الصيدلية هى ملك خالك وحده؟

. مائة فى المائة.

. دون شريك؟

– هذا ما أعرفه تماما.

تطوعت الدكتورة، ربما من باب الشفقة، فشرحت له – بإيجاز – كيف أن خالها لم يقرر الهجرة إلى أولاده بعد، وهو ينوى بيع الصيدلية، وأن عليه، على جلال، أن يحذر حيث أن خالها مسافر مؤقتا ليرى أولاده فى كندا، وهو على وشك الرجوع، نصحته إذا كانت المسألة تتعلق باحتمال النصب والاحتيال، أن يتصل بمحامى خالها الأستاذ شريف قلتة بشبرا، فهو أدرى بهذه المواضيع حتى من خالها.

تمتم دون اهتمام:

–... ربنا يستر.

شكرها، واعتذر، وشكرها واعتذر، لكنها أصرت أن تقدم له بطاقة باسم الصيدلية والمدير "الدكتورة : مادلين رياض"، ثم بطاقة أخرى عليها اسم وعنوان محامى خالها، ثم كتبت عليها عنوان خالها أيضا، وضع البطاقتين فى جيبه دون أن ينظر فى أى منها، وانصرف مندفعا إلى خارج الصيدلية.

تلفت يمينا ويسارا، نظر فى ساعته، بدا أن الشارع قد امتلأ حركة ودخانا وصياحا وقطرانا، ثم أضيفت إليه جرعات جسيمة من قذارة غير متميزة، الناس – أيضا– غير متميزين، تماوجت حركة متداخلة من الحمير والبغال والخيول والعربات الكارو، والسيارات النصف نقل، والميكروباص، وبعض الملاكى العابرة بسرعة دون اعتبار للمارة. لم يظهر أى أثر لمحمود عبد السلام.

راح جلال يفكر أن يعوض المقلب الذى أخذه هذا الصباح بأن يمر على أصدقاء المزلقان، ولابد أنه سيجد أحدهم، عبدالمعطى، أو وردة، أو حتى بنتها – كان يأمل أن يخففوا عنه بعض ما هو فيه من إحباط وحيرة، يريد أن يراهم، لكنه

يخشى أن يسأله عبد المعطى عن مسألة النقل، كما يخشى أن تكتشف وردة، بحدسها المخترق، إحباطه، وحيرته، وخيبته البليغة.

الأفضل أن يختبئ من الجميع.

أخذ يتذكر هل ذكر له محمود عبد السلام اسم معرفة والده الذى باع له ثلث الصيدلية أم □، ماذا يفيد ا□سم، هل ستفرق؟ هل هناك سر غامض يربط بين هؤ□ء الناس بخيوط خفية، حاول أن يتذكر أكثر فخيل إليه أن اسمه غالى، هل ذكره محمود، أو لعل الدكتورة مادلين هى التى ذكرته، أو لعلها كانت تقول خالى، وهو سمعها غالى..، إذن ماذا؟ □ شئ.

التقط صوت مناد ينادى:

. واحد جيزة، واحد، واحد ميدان الجيزة، فاضل واحد.

طلع إلى الميكروباص مطمئنا أنه سوف يقوم فى التو، وجده خاليا تماما، قرأ المنادى أفكاره، فطمأنه، أنه سيمتلئ حا□، وعزم عليه . أمريكانى – بواحد شاى.

وجد نفسه مرتاحا لعدم حضور محمود عبد السلام من أصله.

لم يكن عنده جديد يقوله له، وإن كان عنده، فليقله لنفسه.

ويعقل.

أو يتلهى على عينه..

الإثنيـــن 30-07-2018

العدد: 3985 - جذور إرهاصات الطبنفسى الإيقاعحيوى التطورى (من الإبداع الخاص: "ملحمة الرحيل والعوْد") الفصل الخامس: "أبو النمرس"

كان قد اشترى هذا "الطبق" (الدش) المتوسط أيام أن كان صحفيا نشطا لزوم تتبع الأخبار فى قنواتها المتعددة، خصوصا القناة المسماة "الجزيرة".

قبل المقدمة : (من بريد الجمعة 27-7-2018)

أنا أسف

يبدو أن نشر الرواية مسلسلة، خاصة الجزء الثالث "ملحمة الرحيل والعوْد" فى هذه النشرات اليومية هو ضد التلقى الأشمل.

أنا اسف،

وأعتقد أنه سبيل للتوقف أو للتراجع

وعموما فالرواية بأكملها متاحة إلكترونيا وورقيا لمن شاء[1]

مقدمة

نواصل اليوم نشر فصول رواية" ملحمة الرحيل والعوْد "تباعا فى هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهى الجزء الثالث :من ثلاثية" المشى على الصراط."

وهذا هو الفصل السادس

"وادى النطرون"

.1

راح يعبث بأزرار جهاز التحكم عن بعد (الريموت) وهو يبتسم فى ألفة ليست

جديدة عليه فى المدة الأخيرة على الرغم من كل شئ، من كل شئ.كان قد اشترى هذا "الطبق" (الدش) المتوسط أيام أن كان صحفيا نشطا لزوم تتبع الأخبار فى قنواتها المتعددة، خصوصا القناة المسماة "الجزيرة"، هو يملك ثمنه، وليس عنده الوقت للتمتع بالتجوال حول العالم مسحوبا بهذه التفاهات المتنوعة، كان قد اضطر لشرائه للقيام بمهمة مجزية، كانت الصحيفة التى يتعامل معها بالقطعة قد كلفته أن يعمل دراسة مقارنة بين قناة الأخبار العربية، وقناة الجزيرة القطرية، والفضائية المصرية والـ .CNN أحب هذه المهمة، وهو نادرا ما يحب عملا له عائد كبير هكذا مما سمح له أن يقتنى طبقا، انتهت المهمة بنجاح، وخرج منها وقد كسب الطبق وخسر المهنة، تعرت أمامه حتى باخت.

كان فى البداية يجتهد للبحث عن القنوات، أما الآن فهو يحذق الهرب منها، كانت ثريا قد أبلغته باعتذار محمود الذى طرأ له طارئ ذلك الصباح لم يسمح له حتى أن يرسل اعتذاره ولو هاتفيا فى الوقت المناسب، قبل جلال العذر بينه وبين نفسه، لكنه تعجب لماذا لم يعتذر محمود له مباشرة، لماذا أبلغ ثريا اعتذاره دونه مع أنه يعرف رقم هاتفه، كما أن ثريا لم تعد زوجته مع أنها ظلت أخت محمود!، برغم هذه التساؤ ت فقد وجد جلال فى نفسه عزوفا عن أن يتصل هو به ليجد الإجابات، لن تفرق .

أخذ يرتب أوراق حافظته، فوجد بطاقة الأستاذ شريف قلتة المحامى، وبطاقة الصيدلية، واسم الصيد نية مادلين رياض، الشهيرة بالدكتورة مادلين، وعلى الجانب الآخر من بطاقة المحامى وجد اسما آخر مكتوبا بخط اليد، هو فعلا ما خطر غامضا بباله حتى أنكره، "غالى جوهر"، ياه! كيف لم ينتبه، لمَ شك أنه سمع اسم؟ لقد ذكرت له الدكتورة اسم كاملا، محمود لم يذكر إ اسم الأول، أيكون هو عمنا اليسارى التقدمى ذو التاريخ. ربما، لكن الدكتورة ذكرت اسم بوضوح، بل كتبته فى ظهر البطاقة، لم يلاحظ إ اسم المحامى على وجه البطاقة، بل إنها أضافت العنوان أيضا، يا ترى هل هذا هو عنوان منزل

كان قد اضطر لشرائه للقيام بمهمة مجزية، كانت الصحيفة التى يتعامل معها بالقطعة قد كلفته أن يعمل دراسة مقارنة بين قناة الأخبار العربية، وقناة الجزيرة القطرية، والفضائية المصرية والـ .CNN أحب هذه المهمة، وهو نادرا ما يحب عملا له عائد كبير هكذا مما سمح له أن يقتنى طبقا، انتهت المهمة بنجاح، وخرج منها وقد كسب الطبق وخسر المهنة

المحامى، أم عنوان خالها ذى الـسم الشبيه باسم أستاذه، 128 الترعة البولـقية شبرا، تشابه أسماء فى الأغلب؟ ما علاقة هذا المفكر الرائد بهذه الصيدلة وتلك الصيدلـنية؟ ثم إيش عرفه بحماه السابق عبد السلام المشد؟ هذا فى واد وذاك فى واد، ثم إنه يذكر أن الأستاذ غالى قد اشتغل بالنقد الأدبى بعد أن ترك السياسة، وقد سمع حوله لغطا كثيرا، فمن قائل إنه انهزم، ومن قائل إنه تراجع، ومن قائل إنه عقل، كل ذلك جائز، حتى تحوله إلى النقد الأدبى مفهوم، ولو أنه ناقد دون المتوسط، لكن مستحيل أن يكون صاحب صيدلية، وبالذات مستحيل أن يكون هو خال الدكتورة مادلين رياض.

كان فى البداية يجتهد للبحث عن العنوان، أما الآن فهو يحذق الهرب منها.

لماذا مستحيل؟

-2-

فى محاولة أ يبدو متطفلا سمجا، راح يرتب كلماته، وأحيانا مداعباته، مع بعض التظرف الذى يحذقه؛ فبدا زائفا حتى السخف برغم ضحكها الخافت، ربما مجاملة سألها معتذرا إذا كان خالها هذا هو الأستاذ غالى جوهر، الـ.. الـ.. سياسى، يعنى البطل السياسى، الناقد المعروف. كان قد اصطنع أى شئ يبرر هذه الزيارة التى فرضها عليه هاتف داخلى يتراوح بين حب الـستطلاع وسوء الظن.

مازال يذكرالمقال الذى قرأه عن سيربرنسكا أيام مجازر البوسنة، واهتز له حتى أنه احتفظ به، المسألة هنا زادت وفاضت

. هل تعرفه يا أستاذ؟ .خالى؟ لماذا تسأل بهذه اللهفة.

. ليس تماما، ولكن إن كان هو هو، فهو أستاذ الجيل.

. يعنى ..، لقد طلق خالى السياسة بالثلاث.

. أظن أنه اشتغل بالنقد الأدبى.

. ليس لى فى النقد و فى الأدب، ولكنى سمعت شيئا كهذا.

رمى آخر سهم ليتأكد مما أصبح مؤكدا:

. هو زوج الأستاذة ملكة مناع، أليس كذلك؟

. هل تعرفها أيضا؟ لقد أصبحنا معارف قدامى إذن.

راح يشرح لها أنه فى زواجه كان يرجو أن يقتدى بأستاذه، فاختار زميلة كفاح كان والدها جار والده الذى لم يره، وجاء تعارفهما وهو يخلى شقة والده بعد طول اختفائه، بناء على طلب صاحب العمارة، ولم يتردد جلال فى أن يذكر للدكتورة مادلين كيف فشلت الزيجة برغم استمرار الود وا□تصال.

. صدقنى يا أستاذ أنت رجل طيب، هذاما قلته لك من أول مرة، حذار أن يضحك عليك قريبك هذا، ويبيع لك الترام.

. يا سيدتى قلت لك أنا □ أملك ثمن تذكرة الميكروباص، إن أحسن وقاية من السرقة وا□حتيال، هو الفلس العظيم.

. بصراحة يا أستاذ، أنا من ساعة ما رأيتك، وأنا أتعجب من موقفك، ومن تصرفاتك، ومن طريقة تفكيرك، ومن أسئلتك، □تؤاخذنى إذا أنا قلت لك أننى تصورتك مثل صبى ترسله أمه لأول مره للشراء وحده، آسفة، فعلا، لست أدرى كيف ستتقبل ملاحظتى هذه؟ أرجو أن تعتبرها مديحا وتذكرة فى ذات الوقت، كل ما أقصده هو أن أحذرك من ا□حتيال خصوصا هذه الأيام.

انتهز الفرصة، وفرح بمبادرتها للكلام فيما هو شخصى إلى هذه الدرجة، فتمادى فى سؤالها عن خالها بالذات، ولم يتطرق إلى أحوالها الخاصة، وهو يتجنب النظر إلى أصابعها الخالية من أية علامات ارتباط، وشم الصليب على باطن أسفل رسغها يقول أشياء ذات معنى، ويبدو أنه نجح فى استدراجها للحكى باعتباره ساذجا □ خوف منه.

ترددت، وأشفقت، ورحبت، وحكت له –ليس يدرى كيف – أنها تحب خالها هذا جدا، وأنها لم ترتح لزوجته ملكة مناع يوما، وأنها تعلم أنهما قررا (خالها وزوجته) . فى البداية . أ□ ينجبا ليتفرغا للسياسة، لكن زوجة خالها ملكة عدلت فجأة وأنجبت ابنها الأول "جوهر" فى ظروف اختلف المحيطون فى تأويلها، ثم أنجبت بعده ثلاثة آخرين، ثم قررت السفر بناء على إغراء من أخت لها فى مونتريال، سافروا جميعا إ□ جوهر، بقى مع والده، لكن ظَنّ خالها غير موافق

راح يتبين أن شعورا أشبه بشعور التلبس بالخيانة هو الذى جعله يكف عن الكتابة، يترك الصحافة، ثم ها هى الأخبار تلاحقه وكأنه مسئول، ليس فقط عن إعلانها، ولكن عن حدوثها. يريد أن يهرب أبعد.

على سفر الأسرة برغم أنه يتمنى الآن سفر جوهر، وهو لم يفلح حتى الآن فى إقناعه بذلك؛ لأن جوهر كان قد ذهب إلى الناحية الأخرى.

. أية ناحية أخرى؟ وما هى الناحية الأولى؟ .

. جوهر ابن خالى يا سيدى، فى سبيله أن يتم إجراءات الرهبنة، وهذا ما يكاد يجنن خالى.

. لماذا؟ .

. خالى الآن حائر بين ابنه الذى يعد نفسه للقبول فى دير فى وادى النطرون، وبين زوجته وبقية أولاده فى كندا، وهو ينتظر أن يعدل أى منهم عن موقفه، ويبدو أنه فشل حتى الآن.

انقطع الحوار فجأة، شكرها بشدة، فشعرت بصدقه، حتى تجرأ أن يصافحها باليد وهو خارج، ولعله شعر أنها تضغط على يده، أو ربما هو تصور ذلك متعجبا.

3.

ماذا جرى لك يا أستاذنا الجليل؟ وكيف ترهبن ابنك هكذا؟ هل هو هروب جماعى؟ ماذا جرى فى الدنيا؟ وماذا يجرى؟ محمود، النقيب محمود، الرائد محمود عبد السلام المشد يزمع أن يحزم زوجته وأولاده إلى جرزة ليعذبهم فى أرض قاحلة بالقرب من هرم ميدوم، وأولادك يا أستاذنا العظيم غالى: يتركونك ويذهبون إلى كندا، وابنك يترهبن، ! أحد يريد أن يواصل ...

ابتسم وهو ينبه نفسه متذكرا تنبيه ثريا ومنال الواحدة تلو الأخرى، بل والآخرين كذلك، أنه أكثر هربا، وشطحا، وربما جنونا من الجميع.

4.

أضاء شاشة التليفزيون، وأمسك بجهاز التحكم وهو مستلق على وشك النوم، هو يستعمل التليفزيون الآن منوما إلكترونيا، هو ! يذكر مؤخرا أنه أكمل فيلما حتى لو كان انتظره شهورا، ما إن يبدأ الفيلم، إثارة ! إثارة، حركة ! حركة، رومانسية، أكشن!، كلها أفلام مفعولها أكيد فى التهيئة لنوم عميق.

لم يسمح لنفسه أن ييأس أو ينحو باللوم على أحد إلا نفسه، هو يفهم تماما خدعة الشعور بالذنب، هو لم يذنب فى حق أحد، هو ليس مذنبا أصلا، هذا يقين لا يتزحزح، المسئولية ليست ذنبا ومن لا يفهم ينغلق.

السى إن إن. الله يخرب بيوتكم. كتر الله خيركم. إلى أية مصيبة تذهبون بنا؟

كيف كنا سنعرف كل هذا بدونكم؟

مازال يقاوم التسليم بفضل هذه الإنجازات الإعلامية عليه كصحفى، وكبنى آدم، وهو يحاول إبعاد تعداد مخاطرها على وعيه وعلى استقلال فكره، إذ يعترف بضرورتها المثيرة، ولكن تسحبها اللزج يصيبه بالغثيان، ماذا يعمل؟ اكتشف كل هذا بوضوح أكبر من خلال مهمة البحث المقارن الذى كلفوه به وستره قليلا.

هؤلاء الأطفال على الشاشة ليسوا أطفال البوسنة، بل أطفال كوسوفو، كله واحد، أهذا ما كنت تقصده يا محمود؟ مازال يذكرالمقال الذى قرأه عن سيربرنسكا أيام مجازر البوسنة، واهتز له حتى أنه احتفظ به، المسألة هنا زادت وفاضت، يطل عليه الأطفال المسلمون الخواجات الشقر، على رأى محمود عبد السلام، فيتذكر ذلك الطفل الصربى الذى أنقذه محمود، ويكاد يسمع دقات قلبه وهو فى حضن محمود يرتجف خوفا ثم يبتسم ثم ينام مطمئنا، يتقاذف الأطفال المطرودون من بيوتهم حول أهليهم الممزقين جزعا، أما جدودهم، فهم يجرون أرجلهم زحفا حولهم إلى المجهول . هو سيتذكر ذلك أيضا بألم ساحق وهو يتابع ما سيجرى فى فلسطين . يقوم جلال فيحضر المقال القديم عن سيربرنسكا الذى كان قد احتفظ به لأسباب غير واضحة، يقرأه ثم يمزقه فى غيظ مكتوم، لم يلق بجهاز التحكم عن بعد، بل راح يعبث به مغيظا أو محبطا حسب محطة الإرسال، راح يتبين أن شعورا أشبه بشعور التلبس بالخيانة هو الذى جعله يكف عن الكتابة، يترك الصحافة، ثم ها هى الأخبار تلاحقه وكأنه مسئول، ليس فقط عن إعلانها، ولكن عن حدوثها. يريد أن يهرب أبعد.

"=) !!. "ما أنا بهارب"!.

" =إذن ماذا يا روح امك؟ "(

اكتشف باسما أن تعبير"روح أمك "ليس سبابا، نعم كان هو روح أمه حقيقة.

حلوة هذه اللعبة، هذه الحركة وأنت تتجول حول العالم وأنت مستلق فى حجرتك هى التى ستغيّر وعى البشر؟ فماذا سوف يفعل هو بدروسه لبضعة أطفال وهم يمضون ثلاثة أرباع حياتهم أمام كل هذا البث الدوّار

من هو الذى أكثر صوابا؟ جوهر غالى جوهر على أبواب دير وادى النطرون، أم إخوته وأمه الذين فروا إلى كندا؟ من الذى سينجح فى الهرب المحلى؟ محمود عبد السلام الذى يريد أن يهرب من القاهرة إلى الأدغال الخيالية فى جرزة محافظة بنى سويف؟ أم هو الذى يريد أن يعطى دروسا خصوصية لأولاد أمين عبد الحكيم من الست فاتيما الألمانية؟ أم "منال" التى تتفرج على الرجال فى ملهاة الجنس دون مشاركة، وترفع راية الكفاح ضد الختان، وهى خير دليل على أن مخبأ قوالب الجليد أبعد من متناول الكذابين – لكن يا ترى هل هى فى متناول الصادقين أمثاله؟ (يعنى!) لماذا يجربان؟ . أم أخوها أنور إبراهيم الذى افتتح جامعة "الدنيا" فى كافتريا فى دهب فى جنوب سيناء.

ما الحكاية بالضبط؟

لم يسمح لنفسه أن ييأس أو ينحو باللوم على أحد إ نفسه، هو يفهم تماما خدعة الشعور بالذنب، هو لم يذنب فى حق أحد، هو ليس مذنبا أصلا، هذا يقين يتزحرح، المسئولية ليست ذنبا ومن يفهم ينفلق.

أخذ يعبث بأزرار التليفزيون وهو يغيّر المحطات: صورة بدون صوت كالعادة غالبا، لعبة اعتادها للتسلية والتأمل، ضغط زر ضابط القنوات فجاءته قناة الجزيرة، ثم قناة "أبوظبى"، ثم دبى، و السودان، فاليمن، يا صلاة النبى لمن كل هذا البث؟ يبثون ماذا؟ لماذا؟ ليلهونا عن ماذا؟ أما القنوات الخوجاتى فخذ عندك، قنوات قليلة باللغات التى يعرفها، وعشرات غيرها بلغات يعرفها، أحيانا يأتنس أكثر باللغات التى يعرفها.

ذات مرة أخذ يلعب فى التليفزيون، وكلما أطل عليه وجه طفل أو امرأة جميلة أو شيخ عجوز يتكلم لغة يفهمها توجه بالسؤال فى عشم أو عتاب أو احتجاج عن هذا الطفل بالذات، وهذا الفتى الجميل الأمرد الذى بلغ الحلم لتوه، وهو يسير فى الجبل وحيدا يغنى بلغة غريبة جميلة، وهذا الشيخ الطيب، أين سيذهبون؟ الناحية الثانية؟ كم مرة نبهه عمه سليمان أنه يمكن "إثباته"، ولكن

أما كان يكفى أن تجلسى فى شتوتجارت، وتلعبى بأزرار "طبقك" الخاص، وتسمعى أخبار مصر المحروسة التى تبدأ بمقابلات الرئيس، وتنتهى بتهنئة وزيرالإعلام؛ لتعرفى إلى أى بلد تهاجرين!

يمكنه أن يجده، طيب كيف؟ أين؟ فى دير أبينا متى المسكين يا جوهر يا ابن غالى جوهر؟ فى أرض جرزة يا محمود يا عبد السلام يا مشد؟ فى معرض سيارات أمين عبد الحكيم يا جلال يا غريب يا أناضولى؟ ثم ما الذى جعل إسرائيل هكذا؟ ملعون أبو كل شئ.

المعاكسة الصامتة مطلوبة أحيانا، يمكن للمنزعجة، لأول وهلة، أن تخلق منها خيالا كما تشتهى

أحيانا يتقمص الطبق فوق السطح ويلف معه وهو يلف يجوب العالم، أى والله، يشعر أن جسمه يدور نصف دائرة، ثم ربع دائرة، ثم ثلث دائرة وهكذا، حلوة هذه اللعبة، هذه الحركة وأنت تتجول حول العالم وأنت مستلق فى حجرتك هى التى ستغيّر وعى البشر؟ فماذا سوف يفعل هو بدروسه لبضعة أطفال وهم يمضون ثلاثة أرباع حياتهم أمام كل هذا البث الدوّار؟ وما الذى أتى بكِ يا فاتيما من آخر الدنيا إلى مصر هكذا؟ هذه السيدة، تبحث عن ماذا؟ هكذا؟ أما كان يكفى أن تجلسى فى شتوتجارت، وتلعبى بأزرار "طبقك" الخاص، وتسمعى أخبار مصر المحروسة التى تبدأ بمقابلات الرئيس، وتنتهى بتهنئة وزيرالإعلام؛ لتعرفى إلى أى بلد تهاجرين! ألم تبلغك هجرة أولاد غالى جوهر هم وأمهم؟ لماذا هذا التبادل الخائب؟

راهن بينه وبين نفسه أنها لو صالحت أنوثتها بطيبة حقيقية، فسوف تكون أجمل امرأة فى العالم

خفض من صوت المحطة ذات اللغة التى لا يفهمها أصلا، مع أن الوجوه أوروبية، وهو يراهن على ذلك، لكن اللغة ليست فى متناول تخميناته، وليس فيها حتى المَدَّة الإيطالية أو إيقاع إنهاء الكلمات الإسبانى، ولا ضخّ الحجارة الألمانى، أدار قرص التليفون وطلب رقما، الرقم الذى قفز إلى وعيه والسلام. كان التليفزيون صورة، بلا صوت، استجاب الهاتف، ليس مشغولا، خير وبركة، جاء صوتها عبر الهاتف:

. آلو.. آلو...من؟

لم يرد، ولم يسرع بوضع السماعة، فرح بسماع صوتها على الرغم من أنه لم يكن متأكدا من أن هذا هو رقمها، أصابعه عرفت الطريق إلى رقمها دون أمر منه، انتظرحتى وضعت هى السماعة، وجهها جميل رائق، حوله تلك الهالة

البيضاء كسحابة تتخطر بدل حول مشرق الشمس القمر، يا خبر!! همَّ بأن يدير رقما آخر لكنه تراجع مؤقتا، لم يعدل، راح يفكر، وجدها لعبة لطيفة، وتمنى أن تنزعج، سخيف هو؟ ليس بالضرورة، المعاكسة الصامتة مطلوبة أحيانا، يمكن للمنزعجة، لأول وهلة، أن تخلق منها خيال كما تشتهى، فقرر أن يظل التليفزيون صورة بلا صوت، وأن يظل الرادّ على الطرف الآخر من الهاتف صوتا بلا رد، غير محطة التليفزيون فجاءته قناة دبى، كانت بدون صوت مثل الباقى، لكن خيل إليه هذه المرة أنه سمع صوت المذيعة الجميلة تناديه باسمه، ردَّ شاكرا واعتذر، ضغطة أخرى، أطلت عليه وجوه هندية فى الأغلب، كاد يعلى الصوت ليسمع الأغنية الهندية؛ لأن الجميلات السمراوات اللاتى ظهرن، والمغنى المتمايل الفاحم الشعر، كانوا يعدون بلحن جميل، ولكنه لم يرفع الصوت، أدار رقم الهاتف الخاص الآخر الذى يستعمله نادرا، جاءه الصوت الآخر.

. ألو..، وبعد؟ ألوا.. ألو.. طيب اقفل يابن القـ.....

سارع بوضع السماعة مبتسما حتى لا يسمع بقية الكلمة، هى هى لا فائدة فيها، متنمرة أبدا، حتى وهى ترد على مجهول فى الهاتف، راهن بينه وبين نفسه أنها لو صالحت أنوثتها بطيبة حقيقية، فسوف تكون أجمل امرأة فى العالم، وصل به الابتسام إلى ضحك خفيف، خجل من كمية القسوة التى يخفيها هذا الضحك، منال لا تستأهل ما حبست نفسها فيه، لم لا يتقدم حتى لو...، كم هو جبان نذل.

غير محطة التليفزون من جديد فقفزت له صورة إيهود باراك، وهو يقفز كالفهد الصغير الذى يتلمظ فى انتظار حارسه الذى يهيئ له فرائسه من الحِمْلان حديثى الولادة، لم يسارع بتغيير المحطة، لكنه فرح أن التليفزيون . فعلا. صورة فقط، أطلت صورته كهلا وشفته السفلى ترتعش، عيناه زائغتان، وهو يشب بقدر ما يستطيع، لعل طوله يزيد ولو سنتيمترا واحدا عما كان عليه طالبا فى الجامعة، بعيدا عن السياسة. تساءل: يا ترى ماذا تفعلين يا سُها مع هذا المسكين؟ خجل من هذه السخرية القبيحة من عجوز له تاريخ طويل زاخر مهما كان.

غير المحطة بسرعة فجاءه تسجيل لهذا الرجل الشيخ الداعية، البالغ الحضور، المحبب للغة، خفيف الظل، طلق اللسان، أغلب الناس يحبونه، فلماذا هو لا يحبه مثلهم

سافر بضغطة زر أخرى فوجد نفسه أمام أوربيات سمراوات أكثر منهن شقراوات، فأعْلَى الصوت، فجاءته اللهجة الممطوطة كأن خيوط المكرونة الأسباجيتى تريد أن تتوقف عن التدلى مهما لفت الشوكة، ابتسم ابتسامة أوسع، ملعون أبو الغم، حتى لو نام أطفال كوسوفو فى العراء فوق الجليد، هل هو الذى طردهم من بيوتهم؟ جاءه خاطر من داخله ردا على السؤال، أن "نعم"، هو الذى طردهم !! فوجه الكلام إلى داخله الذى يكف عن التعقيب، نهره، وسبه أن: "ملعون أبوك أنت أيضا "، أدار قرص الهاتف هربا من داخله قبل أن يرد السباب بسباب أفظع. رقم آخر، نفس اللعبة.

. ألو..آلووو.. ألو..آلووو...

خيل إليه أنها تبكى، أو أنها قد استيقظت على الرغم منها أثناء حلم مزعج لم ينته، أو أنها نادمة على طلاقها منه، أو أنها كل ذلك، اغرورقت عيناه وأسف على هذا العبث، لماذا هو مازال يحب ثريا كل هذا الحب، سمع صوت السماعة وهى توضع على الجانب الآخر فى رقة حزينة، ليكن، هو ليس مذنبا، و هى.

عاد إلى لوحة الأزرار، واستدعى موجة الجزيرة، صوت وصورة، هذه المرة، شاهد الرجل ثقيل الظل الذى يمثل ما يشبه الديمقراطية وهو يعلن عن موضوع برنامج "الرأى الآخر" ويحرك يديه بأصابعه المفرودة انفراجا وضما قبالة بعضها، وكأنه بهذا يؤكد أن الحوار وارد، وأن الخلاف محتمل. لماذ تحقد هذه المحطة على مصر بالذات، وأين أخبار قطر المحروسة؟ منع يده من أن ترتفع إلى جبهته تبحث عن آثار البطحة.

غير المحطة بسرعة فجاءه تسجيل هذا الرجل الشيخ الداعية، البالغ الحضور، المحب للغة، خفيف الظل، طلق اللسان، أغلب الناس يحبونه، فلماذا هو يحبه مثلهم، ليس كذلك تماما، هو يحبه لكنه يقبل منه أن يستهين بعقله، كان قد اعتاد أن يرد على تساؤلات هذا الشيخ الجليل الذى يتمايل زهوا بنفسه وبتخريجاته وهو يشاهده وكأنه سوف يسمعه، يرد بعكس ما يتوقع الشيخ،

هو يحبه لكنه لا يقبل منه أن يستهين بعقله، كان قد اعتاد أن يرد على تساؤلات هذا الشيخ الجليل الذى يتمايل زهوا بنفسه وبتخريجاته وهو يشاهده وكأنه سوف يسمعه، يرد بعكس ما يتوقع الشيخ،

أعاد فتح التليفزيون ليوقف هذا السيل من التفكير المعاد، فإذا بالشيخ الجليل يقول كلاما رصينا، ويخرّج من اللغة العربية معان لم تخطر على باله

. يكتفى بأن يرجوه عن بعد -وبكل إخلاص عاتبه- ألا يستهين بعقله مرة أخرى حتى لو كان خطابه موجها إلى هؤلاء المطأطئين رؤوسهم بالموافقة، المصمصين شفاهم بتقوى لن تشفع لهم فى الأغلب.

انتبه فجأة إلى أن مولانا الشيخ مد رجله اليمنى إلى الأمام فتصور أنه يعدل من جلسته، وإذا برجله تخرج من الشاشة إلى الحجرة، ثم تتبعه رجله الأخرى، ثم هو يخطو إلى الأريكة فى الحجرة ويتربع ثم يواصل تمايله إلى الأمام وعلى جانب ثم الآخر، كل ذلك وجلال غير منزعج، وغير مرحِّب فى نفس الوقت، واصل الشيخ تساؤلاته فوجد جلال أنه جمهوره الوحيد، وقرر أنها فرصة ليرد عليه بما كان دائما يخالف به جمهوره.

). جهنم "إيييه"؟

= وبئس المصير.

. لأنهم "إيييه"؟

= لأنهم مغفلون، فهموا الدين خطأ، وباعوا أنفسهم لعقول غيرهم.

. إذن "إيييه"؟

= إذن.. ربنا ينتقم منهم.

. منَ الذين هم إيييه؟

= من الذين ضحكوا عليهم.

. ورضيوا ينضحك عليهم "ليييه"؟

= لم يسمعوا كلام عبد المعطى عامل المزلقان، ولا عمى سليمان، ولا الحاجة وردة.

= يعنى عبد المعطى هذا يمثل أحباب "إيييه"؟

= أحباب الله.

. على أساس "إيييه"؟)

هز جلال رأسه يمينا يسارا بشدة وهو يعتذر للشيخ، فرك عينيه وعاد لشاشة التليفزيون فإذا بها خالية من أى صورة أو صوت، يبدو أنه أغلقه حفاظا على خصوصية الحوار، وحتى لا يربك المشاهدين المشدوهين فيحذون حذوه، وأيضا حتى لا تسمعهما الحكومة، الاحتياط واجب. عاد يلوم الشيخ بينه وبين نفسه

على تسطيحه للأمور هكذا رغم حسن نيته وجمال حضوره خصوصا لمحبيه، رد على نفسه أن لكل واحد أن يبتدع لغته الخاصة التى توصله إلى غايته وتقنع مستمعيه، انتبه إلى أن له هو أيضا لغته الخاصة التى يستطيع أن يدافع عنها، خذ مثلا الكلمة التى يرددها بلا توقف وهو يستطيع أن يضع لها تعريفا إذا سئل، كلمة "الفطرة"، كل واحد يستعملها على مزاجه، الهارب والمناور والمجتهد والأبله، الفطرة وما أدراك ما الفطرة، طيب ما علاقة الفطرة بالفطيرة؟ ثم ما علاقة الفطيرة السخنة، بالبليلة السخنة؟ ثم بالبطاطا السخنة؟ وبحمّص الشام؟ وكلام قلة أدب وسمج جدا، هو يعترف أنه مخطئ إذ يسخر بهذه الصورة، وأن دمه ثقيل، وهو يستطيع أن يحول دون ذلك.

أعاد فتح التليفزيون ليوقف هذا السيل من التفكير المعاد، فإذا بالشيخ الجليل يقول كلاما رصينا، ويخرِّج من اللغة العربية معان لم تخطر على باله، يعتذر له جلال عن الحوار الذى وصله دون أن يحدث، ويهم أن يقوم ليقبل يده من باب النفاق النصف نصف، لكن شاشة التليفزيون تحول دون ذلك قبل أن يخرج من تحت الغطاء. يكتفى بأن يرجوه عن بعد –وبكل إخلاص عاتب– أ يستهين بعقله مرة أخرى حتى لو كان خطابه موجها إلى هؤ ء المطأطئين رؤوسهم بالموافقة، الممصمصين شفاهم بتقوى لن تشفع لهم فى الأغلب. خيل إليه أن الشيخ يبتسم له، أو أنه يغمز له بطيبة أبوية ، ولكن من موقع متعال ، لم يرفض سماحه، ولم يقبله.

تساءل: هل سيأخذ هذا الشيخ المتحمس كل ثروته معه إلى الجنة؟ تلفت خشية أن يكون أحد قد سمعه، كماتذكر ميراث محمد عبد الوهاب وموقف بناته، اعتذر مرة أخرى، واستغفر للجميع وهو واثق من رحمته.

. 5.

أدار الرقم الأخير الذى كان قد طلبه حا ؛ ذلك أنه كان ما زال منشغلا على ثريا وصوتها الأقرب إلى الحزن، . فعلا هو ما زال يحبها، فعلا هى تستأهل الحب، لكن قرارهما با نفصال كان عين العقل على الرغم من كل شئ.

تساءل: هل سيأخذ هذا الشيخ المتحمس كل ثروته معه إلى الجنة؟ تلفت خشية أن يكون أحد قد سمعه، كماتذكر ميراث محمد عبد الوهاب وموقف بناته، اعتذر مرة أخرى، واستغفر للجميع وهو واثق من رحمته.

لن تتوب عن محاولة تعديل الكون بادعاء النبوة المعبأة فى قراطيس نبض اللغة؟.

جاءه صوتها عبر الهاتف بنفس النبرة الجياشة فصدَق حدسه، صوتها يقول إنها "فى حال":

. أنا جلال يا ثريا.

– عارفة.

. عارفة؟ من أين؟

. أنت طلبتنى قبل ذلك، منذ قليل.

كاد ينكر خجلا، لكنه سارع معترفا.

. نعم، ولكن من أدراك أنه أنا؟

. أنا أشم رائحتك عن بعد، فى التليفون وغير التليفون، كيف حالك يا جلال؟

. ولم تشمين رائحة حالى بالمرة؟

. أنت تخاف أن أفعل.

. سوف أتحمّل هذه المرة، فماذا عن رائحة حالى؟

. عرق طازج، وعنادٌ ذكى، وهربٌ دائم.

. هذه روائح قديمة، تعرفينها عنى من زمان، أنا أسألك عن رائحتى الآن.

. أشم رائحة الجبن والمراوغة، تريد أن تعترف أنك تحبنى.

. أعترف بماذا وأنت تعرفين كل شىء،هل عندك اقتراح؟

. أبدا.

. طيب، خلاص.

. خلاص، خلاص. ماذا كنت تريد؟

. كنت أريد أن أطمئن عليك، بعد أن سمعت صوتك مليئا بالشجن؛ حين علقتك فى المكالمة السابقة.

. عليك، أنا بخير، على فكرة محمود يكرر اعتذاره كما أبلغتك قبلا، كانت ظروفا قاهره، هو يريد أن يبلغك....

أخذ يعبث بالأزرار حتى جاءته إحدى المحطات التى تعلن عن فتيات تحت الطلب، بالتليفون، لم يكن يعرف كيف يحضرن من هذا البعد بمجرد إدارة أرقام الهاتف التى تتحرج فى بطء أسفل الشاشة،

سارع جلال بمقاطعتها:

. بصراحة حدثت أشياء نتيجة تخلفه عن هذا الموعد تستأهل أن أشكره عليها، أشياء فى منتهى الغرابة.

. دائما أشياؤك فى منتهى الغرابة يا جلال، كل ما يحدث لك وحولك غريب عجيب يا جلال. أما آن الأوان أن تكف عن هذا الـستغراب الذى ينتهى؟

. تظلمينى كالعادة، يعنى مثلا تريدين منى أن أسمع عن استقالة أخيك، وتهديد أولـده بالجوع، ثم خوفى عليه من الجنون، ثم أستغرب، أو أحاول أن أحول دون ذلك؟

. وأنت مالك يا أخى، أنا يا أخته، أملك إزاءه شيئا.

. مالى كيف؟

. هو عقله فى راسه، يعرف خلاصه.

. المسألة ليست خلاصه هو، المسألة خلاصنا كلنا.

. لن تتوب عن محاولة تعديل الكون بادعاء النبوة المعبأة فى قراطيس نبض اللغة؟.

. تسخرين؟ اسألى أخاك، يبدو أن الأمر سوف ينتهى إلى أن أذهب أدرس لأولـده فى جرزة هذه، أعلمهم كيف يستخرجون دودة الأرض من جوف الطين؛ ليصطادوا بها فى المصرف القذر السمكة التى ابتلعت خاتم سليمان أثناء "العشاء الأخير".

. اتلم المتعوس على خائب الرجاء.

. لست متعوسا، حتى لو كان أخوك خائب الرجاء.

. طيب هل تريد شيئا؟ خلِّ بالك من نفسك.

. تصبحين على خير.

. وأنت من أهله.

.6

إلى متى يظل الحال هكذا ؟ كلما زادا ابتعادا عن بعضهما زادا اقترابا.

نبهه أحدهم إلى أن مثل هذه الدعوة هى لممارسة الجنس بالهاتف، وليس للحضور جسديا، يا خبر أسود!! كيف؟

إلى متى يظل ا□قتراب مستحيلا، والبعد ضامًا مع وقف التنفيذ؟

اغرورقت عيناه ولم يسمح للدمعة أن تنزل.

هو □ يذكر أنه أضاء شاشة التليفزيون من جديد، يبدو أنها اشتعلت تلقائيا،. هذا الشاب الذى يسير وحيدا يدعوه إليه، يشبه أستاذه غالى جوهر، هل هو جوهر ابنه الصيدلى حديث التخرج الذى يريد أن يترهبن فى دير وادى النطرون. عاود الشاب الإشارة فاستجاب جلال بنفس حب ا□ستطلاع وبسوء ظن أقل، رجح أنه يمكن أن يعرف من جوهر ما □ تعرفه عمته شخصيا. يبدو أن جوهر قد اطمأن إلى تحقيق ما أراد فاستدار وانطلق دون أن يلتفت وراءه، وجلال يتبعه وهو محتفظ بالمسافة.

الصحراء مترامية، صحراء وادى النطرون ليست صحراء تماما، هو الذى قرر ذلك منذ زيارته لدير أبونا متى المسكين، توجد علامات متفرقة على جانبى طرق بعضها ممهد، والأخر يبدو أنه كان ممهدا، وبعضها □ يعدو أن يكون "مدقا" اخترعته سيارات الربع نقل □ختصار الطريق، انتظر أن يلتفت إليه جوهر ليطمئن أنه ما زال وراءه لكنه لم يفعل.

لم يتساءل لماذا ناداه جوهر و□ هو عرف لماذا استجاب.

تسارعت خطوات جوهر ولم تتسارع خطوات جلال بنفس القدر، وتعجب أن المسافة ظلت ثابته، هل يسحبه جوهر إلى هناك ليعلمه شيئا من واقع الممارسة بد□ من الضياع وسط كتابات ليس لجلال هم إ□ أن يتشكك متى كتبت، وهو غير متأكد من مصدرها؟ اكتشف جلال فجأة أنهما يسيران داخل طرق ضيقة لم تعد تصلح لسير سيارة، طرق أشبه بمدقات الراجلين، تكاثفت أشجار الزيتون المحيطة وبدت وافرة الإثمار شديدة الجمال، كيف نبتت هكذا كاملة دون أن يلحظ؟ أين الصحراء؟ كأن المزرعة انبثقت من تحت الأرض، ومازال جوهر يسير دون أن يلتفت، كل ما فى الأمر أن عباءة سوداء لبسته فى نفس الوقت الذى اكتملت فيه مزرعة الزيتون، العباءة تشبه عباءة عمه سليمان، امتد أعلى

كاد ألا يصدق لولا أن محطة أخرى من ذات النوع عثر عليها بالصدفة، كتبتها صراحة، "اتصل بى الآن، إن كنت تريد أن تمارس الجنس بالهاتف"، إذن فهذا هو "النظام الجنسى الجديد"

العباءة ليخفى الرأس بغطاء مدبب الطرف حتى بدا السائر أكبر سنا (مع أنه لم يعد يرى وجهه) المشية مِشية عمه سليمان والعباءة تمتد حتى تكاد تحيط بجلال كله رغم الحفاظ على المسافة، ما هذا الرحم الغامض الذى يعيشه دون تمييز.

استسلم جلال للجارى وكأن هذا هو المفروض أن يحدث، لم يكن يشعر بالمفاجأة، و بالخوف، و بالتعب، وجد صدره يتفتح وكأنه يتسع فعلا مجازا، فأخذ شهيقا عميقا سمع من خلاله لحنا يحبه مع أنه لم يسمعه من قبل، راح ينصت بحنان إلى نبضات قلبه فاكتملت الحركة الثانية بتماوج قوى برغم نعومته، دون أن يفقد اللحن انتظامه المعاد بلا إملال.

همَّ أن ينادى جوهر ليسأله إلى أين، وربما يعرفه بنفسه، وأنه من حواريي والده، فلم يخرج صوته أصلا رغم وضوح الكلمات، هو لم يعد جوهرا (فى الأغلب)، فليناد عمه بصوت أكثر حياء، تراجع بإصرار، فهو يدرى كيف يواجهه وكأنه قد تخلى عن وصاياه.

ليس زيتونا فقط هذا الشجر الذى يزداد خضرة وطزاجة وكثافة وجما، هو يعرف اسمه و طبيعة ثماره، كان وهو ينصت للتلاوة داخل عباءة عمه سليمان يتشوق أن يتذوق ما كان يدعوه عمه "أبّا". ظل يتصور أن "الأب" هذا هو فاكهة غامضة سرية برغم أنه كشف فى المعجم على الكلمة يوما فوجد أن معناها هو العشب أو الكلأ، رفض ما جاء فى المعجم واعتبره خطأ لأن طعم "الأبا" الذى تذوقه داخل العباءة طفلا ما زال يستشعره بمذاقه الفريد حتى الآن، هو الآن وسط شجر الزيتون وهو يستطعم ثمار "الأبّا"، ثمة فواكه أخرى ليس لها اسم تتبدى له فوق أشجارها فتحل محل بعضها بفضل الهندسة "الرؤيوية" وهو يمضى دون تردد وراء جوهر غالى جوهر.

توقف فجأة، قرر أن يتراجع مادامت المسائل تتساوى، جوهر، أو عمه، أحد منهم يهتم إن كان يتبعه أم ، وإ لماذا لم يلتفت أحدهما إليه ولو مرة

لم يبق إلا أن يعيّنوا المشاعر حسب درجة حرارة الاحتياج، ثم يعلنوا، توصيل المشاعر المصنعة إلى القلوب الممكنة لتليين العلاقات المبرمجة.

واحدة؟ توقف فعلا، وحتى يتأكد أنه لن يواصل المتابعة كالمسحور، هبط فجأة جالسا على الأرض حتى آلمته مقعدته، لم يتوقف جوهر (أوكائنا من كان) رغم صوت ارتطام مقعدة جلال بالأرض، لكنه تباطأ، ثم تباطأ أكثر حتى خيل لجلال أنه سيدعوه (أو يأمره) أن يواصل، وتمنى أ يفعل.

استدار بس العباءة للخلف لأول مرة فإذا وجه فاتيما هو الذى يطل مثلما أطل عليه أول مرة من بين سحاب الحجاب الشفيف، فرح جلال بالمفاجأة وكأنه كان يتوقعها، لم تكن مفاجأة تماما. هو يدرى ماذا كانت بالضبط، لكنها لم تكن مفاجأة، اتسع صدره أكثر وتنوعت الأنغام التى تتردد فيه بآت الشهيق والزفير ونبض القلب المنساب فى هدوء صاخب، لم يشعر أنه بحاجة للترحيب بها فقد كان على يقين أن فرحته وصلتها بما يكفى، تركت فاتيما العباءة تتهادى ساقطة من حول كتفيها، وإذا بها تسقط وإنما تتحول إلى ملاءة لف" مثل تلك التى أحبها فى طفولته وأطلقت لخياله العنان، تحكم فاتيما حبك الملاءة فى دال، هى تغمز بعينيها مثل نساء سوق السلاح حين تغمرهن أنوثتهن فخرا واستبدادا، تستدير فاتيما وتعاود السير بكل ما تقوله الملاءة لجسدها وكل ما يقوله فرعها المتمايل بانسياب للملاءة.

هو ما زال متربعا ينادى، أو لعله ينادى بغير صوت.

قبل أن تختفى فاتيما عند نهاية الممر لوحت له بيدها وهى تقول :"باى".

– "باى" يادّ لعدى!! أهكذا أيضا؟

أفاق ولم يُفِق

.7

انتبه لأصابعه تعبث بجهاز التحكم من جديد، هوالذى أضاء الشاشة هذه المرة، أخذ يعبث بالأزرار حتى جاءته إحدى المحطات التى تعلن عن فتيات تحت الطلب، بالتليفون، لم يكن يعرف كيف يحضرن من هذا البعد بمجرد إدارة أرقام الهاتف التى تتدحرج فى بطء أسفل الشاشة، نبهه أحدهم إلى أن مثل هذه

يبدو أن المصيبة أكبر من كل تصور، المفروض أن يغير المحطة كما اعتاد، لكنه هذه المرة تلكأ ليربط بين تجواله مع الطبق حول العالم، وبين دوره التربوى الجديد.

الدعوة هى لممارسة الجنس بالهاتف، وليس للحضور جسديا، يا خبر أسود!! كيف؟ كاد أ يصدق لو أن محطة أخرى من ذات النوع عثر عليها بالصدفة، كتبتها صراحة، "اتصل بى الآن، إن كنت تريد أن تمارس الجنس بالهاتف"، إذن فهذا هو "النظام الجنسى الجديد"، حاول أن يستسيغ التأوهات، أو أن يشتهى صدرا متضخما، وصاحبته تضمه بين كفيها، أو أن يتقمص إصبع موز ضخم نزعت قشرته لتمر عليها بلسانها تجسد هواية السيد كلينتون، فلم يستطع. لم يشك فى نفسه، حتى حين أصابه الغثيان. لم يفسر غثيانه بالكبت أو خلافه، كان منشغلا تماما بربط كل هذا بالفجوة التى تتسع بين الناس وهم يتكلمون عن ثورة التوصيل والتواصل، تواصل ماذا؟ حلت المعلومات محل المعانى، كما حل الخيال محل اللحم والدم. لم يبق إ أن يعبِّوا المشاعر حسب درجة حرارة ا□حتياج، ثم يعلنوا، توصيل المشاعر المصنعة إلى القلوب المميكنة لتليين العلاقات المبرمجة.

الله يخرب بيوتهم.

يبدو أن المصيبة أكبر من كل تصور، المفروض أن يغير المحطة كما اعتاد، لكنه هذه المرة تلكأ ليربط بين تجواله مع الطبق حول العالم، وبين دوره التربوى الجديد.

أخذ يسترجع الصور التى مرت به أثناء لعبته الطبقية "هذا المساء". عادت إليه الواحدة وراء الأخرى، أطفال كوسوفو، باراك، عرفات، الأغنية الهندية، اللغات التى لم يفهمها، وتساؤ□ته عن كيفية حسابهم فى الآخرة، وبأية لغة، فضائية أولى، ثانية، دبى، السودان،اليمن. الجزيرة، المحطة الطليانى، استضافة شيخ اللغة والتفسير، رحلة الصحراء والزيتون وتوالى ا□نسلاخ فى وادى النطرون.

ماذا يعنى كل هذا؟

ماذا بعد؟

مازالت محطة الجنس أمامه، يا خبر أسود، ما هذا؟ ماذا تفعل هذه المرأة،

مازالت محطة الجنس أمامه، يا خبر أسود، ما هذا؟ ماذا تفعل هذه المرأة، بتلك الأخرى؟ ماذا يريدون أن يقولوا بهذا؟ من هذا الغبى الذى تثيره مثل هذه المناظر؟

بتلك الأخرى؟ ماذا يريدون أن يقولوا بهذا؟ من هذا الغبى الذى تثيره مثل هذه المناظر؟ ثم ما هذا بالضبط؟ امرأة تمارس العادة من فوق السروال، وتتأوه دون شريك أو شريكة، يبدو وجهها أصلا، ثم يظهر وجهها وهى ترتعش حتى تهمد.

.8

قام إلى النافذة وفتحها على مصراعيها.

نظر إلى السماء فى جوف الليل، وقال معاتبا فى عشم باد، واحتجاج متردد:

. أيرضيك هذا؟

الأســـاس فـــي الطـب النفســي: الإفتراضـات الاساسيـة

الفصـــل السابـــــع

جميـــع الحقـــوق محفوظـــة للمؤلـــف 2023

30
2024

الإنسان والتطور

سلسلة الإصدارات المكتبية العلمية

في بيتي كأم مبدعة

إصدارات: مؤسسة العلوم النفسية العربية
مؤسسة الرخاوي للتدريب والأبحاث العلمية